دراسات فى

تاريخ المغرب الإسلامى

الأحوال الجغرافية

الفتوح الإسلامية

قيام الإمارات والدول

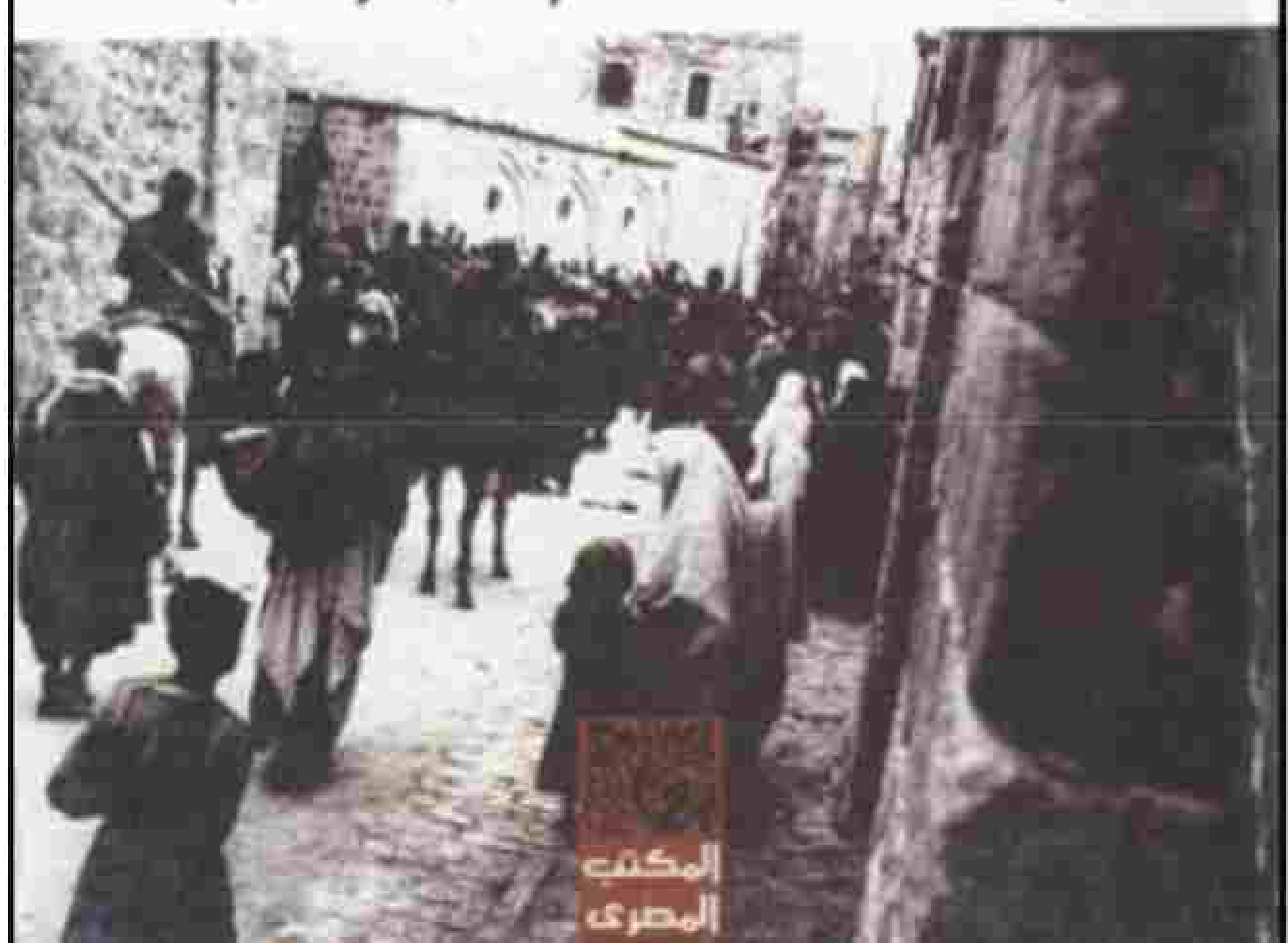
الحضارة الفكرية

الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية

تأليف

د/سوادى عبد محمد

د/صالح عمار الحاج



دراســـات في

تـــاريخ المغـرب الإســلامي

الأحول الجغرافية. الفتوح الإسلامية.

قيام الإمارات و الدول

الحضارة الفكرية.الأحوال السياسية

و الإجتماعية و الإقتصادية

تأليــــف

د/ سوادي عبد محمّد

د/صالح عمّار الحاج

الناشر

المكتب المصري لتوزيع المطبوعات (طباعة. نشر. تصدير كتب)

دراسات في

تاريخ المغرب الإسلامي

الأحول الجغرافية.

الفتوم الإسلامية.

قيام الإمارات و الدول

الحضارة الفكرية.الأحوال السياسية و الإجتماعية و الإقتصادية

تأليف

د/ سوادي عبد محمّد د/صالح عمّار الحاج

رقم الإيداع:2004/2784

الترقيم الدولي I.S.B.N.

977-5841-79-7

الطبعة الأولى/2004

الناشر:المكتب المصرى لتوزيع المطبوعات(طباعة. نشر. تصدير كتب)

الإدارة: (5 ش مصطفى طموم – المنيل – القاهرة

تليفاكس:3655487

الإهداء

إلى الوطن الليبي... تسري...

شعلتان من المشرق متأججتان...إلى عروبة

الإسلام والعروبة

و الغبار تثيره... سنابك خيولنا

على أديمه... حضارته العظمى

تقديم

إن خطة هذا الكتاب تقوم على دراسة تعالج حقبة مهمة من تاريخ المغرب الإسلامي، منذ الفتح العربي حتى سقوط الإمارات المحلية في لربع الأخير من القرن الثامن الهجري؛ و قد باركت لعمل على إنجاز هذه الدراسة الملخصة لتزويد مكتبتنا و باحثين ودارسينا و طلبتنا بأحوج ما يكونون لي لمزيد من الدراسات لتاريخ هذه البلاد لتي استعصت على الجبابرة والظالمين حين شرفه الإسلام و أصبحت جزءا لا يتجزأ من عالمه الذي بسط في أكثر من ثلاثة أرباع العالم آنذاك.

و لا غرور، أن يلمس القارئ ، لجهود التي بذلت في إعداد الكتب بما يضعه في مصاف الكتب التي تصلح لتكون مراجع منهجيةً مساعدة و مقررة لدارسي التاريخ،والكتاب كذلك بمجمله دراسة موضوعية جامعية تنحو إلى التلخيص غير المخل بموضوعاته، نظرا" إلى توضيبه وتبسيط عروضه التاريخية و بالاستناد إلى مصادر وافية و متنوعة بما تحمل من نصوص و أصول أولية قديمة و ما أتيح في جمع مادته العلمية و ترتيبها و تنسيقها على نحو مفيد و متكامل.

و الكتاب بأبوابه و فصوله وموضوعاته وشروحه السياسية و الاجتماعية والاقتصادية و الثقافية يقوم على أساس " الكلية **Totalite** " أي الدراسة الشاملة و في وحدة فيها شيء من التماسك الموضوعي و الخلاصة التحليلية التي دأبت على أن يكون التركيب الاجتماعي الاقتصادي الأساس لكل تحليل تاريخي فيه ، وليس واجهة ظاهرة لتاريخ المغرب الإسلامي و في هذا الإطار . فان الدراسة التاريخية التي عول عليها الكتاب فيما يتعلق بالأحداث السياسية و العسكرية ووقائعها تضع الأساس للتاريخ الحقيقي لهذه البلاد الذي كان يتمثل في عصوره المزدهرة في جميع نواحي الحضارة الفكرية و المادية.لذلك ليس لي الآن ءالا أن أحرض طلبتنا و أبنائنا إلى التزود على حقائق تاريخنا في جانبه المشرق ويتدبروها و يدركوا مقاصدها لكي يسهل عليهم استلهامها لحاضرنا و مستقبلنا. و أغلب الظن، أن دعوتي لتوظيف كتاب "دراسات في المغرب الإسلامي" لهذا الغرض سيساهم على إغناء طموحنا في التوصل إلى استخلاصات مفيدة من الناحيتين النقدية و التحليلية

أ.د. صالح عمار الحاج

بين يدي القارئ

يصح القول، أن التاريخ، يحتل بين فروع المعرفة الإنسانية، مكانة متميزة،وتشغل المؤلفات التاريخية فيه نسبة كبيرة من الكتب والإصدارات في الشرق و الغرب على السواء ؛ و على الرغم من غلبة الاهتمام بالعلوم التكنولوجية والتطبيقية والطبية والرياضية والهندسية، على الاهتمام بما عداها،لاتزال المؤلفات التاريخية تحتل جانبا" ضخما" مما ينشر كل عام* ،حتى أننا يمكن أن نستلفت النظر إلى هذا العصر الذى هو:

" عصر العقلية التاريخية " مما يتعين علينا، أن تكون لنا رؤية حضارية من خلال دراستنا لتاريخنا العربى الإسلامى بعالميه المشرقى و الغربى.

وفى صفحات هذا الكتاب تتركز دراسة التجربة الإنسانية فى عالم بلاد المغرب، الذي هو قطعة من العالم القديم توطد فيها الإسلام بما حمل إلى أهلها من بناء اجتماعى ومن مثل أخلاقى ومن غنى وتنوع لا حد لهما فى العلم والسياسة والتنظيم الاجتماعى والاقتصادى، بحيث أصبح هذا الغنى والتنوع مادة للتاريخ تثرى الحاضر والمستقبل فى اعتبارها واستلهامها.

وغنى عن البيان، أن توزع المغرب الإسلامى إلى دول و إمارات وكيانات محلية مستقلة، كان مظهرا" من مظاهر التماسك والقوة اللتان أتاحتا ازدهار الحضارة الفكرية و المادية ووفرتا، الاستقرار السياسى والاجتماعي والاقتصادى، ولعلنا نجد ذلك أو شىء منه فى هذا الكتاب الذى سيكون عونا" لدارسينا و متخصصينا فى الدراسات التاريخية المغاربية.

وفى نهاية المطاف ندعو إخواننا و زملائنا الأساتذة و المهتمين،أن يقوموا الكتاب بآرائهم السديدة و توجيهاتهم الصائبة،كما نحث أبنائنا وإخواننا الطلبة و الدارسين أن يجتنوا أكبر قدر من الفائدة ، وأن تكون موضوعاته خطوطا" عامة

---

* و يضيف د/ حسين مؤنس، النوع الجديد من الكتب الذى يؤلفه نفر من أذكياء أهل الصحافة والأدب عن حوادث التاريخ الجارى Current History و رجاله. أنظر: المؤرخون، دراسة فى علم التاريخ ص 11.

لدراستهم وبحوثهم فى المستقبل ، مع تقديرنا لكل من تكون كلمته منصفة للحـــق ومبطلة للباطل، فيتبين مواضع القوة فى هذه الدراسة أو مواطن الضعف فيها،بنقد نزيه بناء يوم على الموضوعية والتجرد ويستهدف تعميق النظرة لتراثنا التاريخى والخروج منه بمفاهيم وآراء يمكن توظيفها لخدمة حاضرنا ومستقبلنا.

أ.د. سوادى عبد محمد

مدخل إلى المغرب الإسلامي

على مدى القرون الثلاثة التى سبقت دخول الإسلام إلى بلاد المغـرب كانـت الموجات الجرمانية المتبربرة ولاسيما الوندال والسواف و الألان قد وضعت هدفا" لها فى الوصول إلى هذه البلاد، نظرا" لثرواتها الوفيرة ولم تستطع الامبراطوريـة الرومانية التى كانت تبسط هيمنتها عليها أن تصد هذه السـيول الجارفـة،غير أن الوندال انفردوا فى الظهور على السواحل الأفريقية ؛ ولكى يحكم هؤلاء سيطرتهم على المغرب نشروا الدمار والموت والخراب فى أكثر المدن والمراكـز الحضـرية فيه، وما لبـثوا بعد أن تمكنـوا من هذه المدن،أن اجتاحوا موريتانيـا الطنجيـة وطرابلس.

وفى منتصف القرن السادس قبل الميلاد، استطاعت القبائل المغربيـة سـكان البلاد الأصليين،أن تثور ضد الوندال يدخل مقاتلوها قرطاجنة ثم راحوا يحـررون مدنهم الواحدة تلو الأخرى. ولكن هذه البلاد عادت لتقع هذه المـرة فـى قبضـة الإمبراطورية البيزنطية التى احتفظت حتى سـنة 21هـ/642 م حيـث بـدأت المحاولات الأولى بقيادة عمرو بن العاص لتحريرها،ففى سنة 48هـ 647 م فتحت ليبيا وتونس ثم استكمل فتح شمال أفريقيا سنة 82 هـ/ 701م على يـد الفـاتح العربى عقبة بن نافع الذى أسس مدينة القيروان كقاعدة عسكرية ثم انطلق نحـو الغرب حتى وصل إلى شواطئ المحيط الأطلنطى ثم أعقبه بين سنتى 82 هـ/ 701 م و92 هـ/710م موسى بن نصير الذى أتم فتح ما تبقى من بلاد المغرب.

وهكذا ينبغى علينا أن نصف الأحداث التى توجت بدخول المسلمين إلى بـلاد المغرب،بأنها كانت إرهاصا" لولادة جديدة لهذه البلاد فى ظل الإسلام التى أنجبـت مولودها " المغرب الإسلامى ".

المقدمة

نطاق البحث – تحليل المصادر

يعرض هذا الكتاب .محاولة لدراسة التاريخ السياسى والاجتماعى و الاقتصادى لبلدان المغرب الإسلامى منذ الربع الأخير من القرن الثانى الهجرى حتى نهاية القرن العاشر.ويمكن للمتخصصين والمتتبعين أن يجنوا بعض الفائدة مما بذلناه فيه من جهد من حيث العرض والروح التحليلية والنقدية وتمحيص الروايات و استجلاء الحقبة التاريخية بالاستناد إلى المعلومات الموثقة بالنصوص والأصول المعتمدة إلى جانب التماس العروض الواضحة والمفيدة لموضوعاته وفصوله وإكسابها تبسيطاً لا يخل بعمق مادته العلمية.

ومع أن الحقبة التى تناولتها هذه الدراسة،استغرقت أكثر من ثمانية قرون استوعبت أحداثاً غير قليلة،يحتاج كل منها إلى تفصيلات خاصة،و لكن تحقيق الترابط الموضوعى اقتضى استعراض تاريخها من جوانبه السياسية و العسكرية والحضارية بما فيها الأحوال الفكرية و الاجتماعية و الإقتصادية ، وباعتقادنا إن الدراسة على هذا الأسلوب ، تعين الباحث على تقديم صورة واضحة لمسيرة التاريخ العربى الإسلامى وأحداثه ، وتساعد على استنتاجات مهمة للأسس التى ترتكز عليها الحضارة العربية الإسلامية . كما إن الموضوعات التى عنيت فصول هذه الكتاب باستيعابها و خصوصاً فيما يتعلق بالتاريخ السياسى و العسكرى، سيكون لهل تأثيراتها فى مجرى التاريخ الحضارى فى المغرب الإسلامى وستترتب عليها تطورات بعيدة المدى فى تاريخ العالم الإسلامى لذلك حاولنا جهدنا أن نطبق هذا المنهج ونعتمده، ولعل القارئ يلمس ذلك من خلال تتبعه لهذه الدراسة و استيعابه لخطوطها العامة و سيتضح له أخيراً أنها تقدم معنى فيه بعض الوضوح للنظرة الشاملة للحقبة التاريخية.

يقوم الكتاب على ثلاثة أبواب رئيسية، و ينعقد فى كل باب منها بعدد من الفصول . فالباب الأول الذى يُعنى (بالأحوال العامة فى بلاد المغرب) يضم ثلاثة

فصول أولهم فى خريطة بلاد المغرب بدراسة الحدود التى جاءت فى كتب الجغرافيين المسلمين و المناطق السهلية و الواحات و التقسيمات الإدارية والإقليمية والموارد المائية وفى سكان المغرب الإسلامى منهم العرب و القبائل المغربية ،وثانيهم الفتح الإسلامى لبلاد المغرب و يكرس هذا الفصل محاولات الفتح الأولى ثم الفتوح الإسلامية فى ليبيا و تونس و الجزائر، أما الأخير فيدرس عصر الولاة وخاصة ولاة المغرب فى العصر الأموى ، كما يعنى بتوضيح سياسة الانفصال فى المغرب الإسلامى .

وينتصب الباب الثانى (قيام الإمارات و الدول و أحوالها و علاقاتها السياسية و الإدارية) على ثمانية فصول، تتقدم فى الفصل الرابع منها دراسة إمارة بنى مدرار فى المغرب الأقصى، قيامها و تأسيس عاصمتها سجلماسة ثم علاقاتها السياسية بالخلافة العباسية و بالرستميين و الأدارسة، وفى الفصل الخامس بحث عن إمارة بنى رستم فى المغرب الأوسط و تتصدره محاولة عبد الأعلى بن السمح المعافرى لإقامة إمارته فى منطقة غربى طرابلس يُعرف باسم " الصياد " غير أن جهوده فشلت و لم تستطع الحركة الأباضية التى كان يتزعمها أن تصمد أمام الجيوش العباسية. و لكن عبد الرحمن بن رستم و هو أحد رجاله استطاع أن يؤسس إمارة عُرفت بالإمارة الرستمية فى مدينة تاهرت التى شيدها و أصبحت قاعدة وعاصمة لإمارته. ويستكمل هذا الفصل بموضوع العلاقات السياسية بين الرستميين والأدارسة وأمويي الأندلس. إما إمارة الأدارسة فقد تخصص فيها الفصل السادس من حيث قيامها وبناء مدينة فاس حاضرة لهم و علاقاتهم مع الخلفاء العباسيين التى تميزت بالطابع العدائى، و تضمن الفصل السابع دراسة عن إمارة الأغالبة فى المغرب الأدنى و اشتراطات الخلافة العباسية تنصيبهم و إقامة كيان لهم يكون حليفاً لها فى المنطقة و اتخاذهم القيروان عاصمة لهم و جهودهم العسكرية فى فتح جزيرة صقلية والتوقف عند علاقاتهم المتميزة بالخلفاء العباسيين.

أما قيام الخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب فقد تضمنها الفصل الثامن من حيث تصدره تمهيد عن الفاطميين و ظهورهم على مسرح التاريخ وسعيهم فى استكمال

قيام دولتهم بتأسيس مدينة المهدية و اتخاذها عاصـمة و تطـرق الفصـل إلـى علاقاتهم السياسية فى نطاق وجودهم فى المغرب الإسلامى و بخاصة مع دولة بنى العباس ،فشرح موقف العباسيين منهم و كذلك طبيعة المناوشات فيما بينهم حـول جزيرة صقلية التى كانت تحت نفوذ الأغالبة . و تطلعهم نحو الـبلاد المصـرية و حملاتهم العسكرية التى توجت بانتقال دولتهم إليها. و تذيل هذا الفصل بالتحـدث علاقات الفاطميين مع أمويين الأندلس. و فى الفصل التاسع من هذا البـاب نقـرأ دراسة عن دولة المرابطين و أصلهم و تأسيسهم لمدينة مراكش التى أصبحت من أهم المراكز الحضارية فى المغرب الإسلامى وعلاقاتهم مع الخلافة العباسية التـى تميزت بالإعتدال و التقارب ،و يلقى الفصل العاشر بعـض الضـوء علـى دولـة الموحدين و تحول دعوتهم الدينية إلى حركة سياسية اسـتهدفت إسـقاط دولـة المرابطين و إقامة دولتهم على أنقاضها . كما شرح علاقات الموحدين بخلفاء بنى العباس حيث قطعوا الخطبة لهم و تلقبوا بلقب أمير المؤمنين و هو لقب الخلافة و لم يعترفوا بالتقليد والأعلام والشارات التى كانت ترسلها الخلافة لمن ينضوى تحت لوائها، و يهتم الفصل الحادى عشر بدراسة إمارة بنى مرين التى خلفت الموحدين بعد أن قوضت دولتهم و كذلك مساهمتهم فى إنجاد أهـل الأنـدلس مـن تعـديات القشتاليين و الممالك الأسبانية الشمالية و دراسة الإمارات المحلية فـى المغـرب الإسلامى حيث أقتصر على إمارتى بنى عبد الواد و إمارة بنى حفص فضلاً عـن الدور الذى كان يلعبه المغرب الإسلامى فى إحتضان العرب المسلمين المهـاجرين من الأندلس بعد سقوط مملكة غرناطة.

واستوعب الباب الثالث الذى عقد لموضوع تلخيص حضارة المغرب الإسـلامى فصليين، الفصل الثاني عشر منهما عن الحضارة الفكرية و الثقافية حيث أوضـح اسهامات بنى رستم و بنى مدرار والأدارسة والأغالبة والفاطميين والمـرابطين و الموحدين و بنى مرين فى تشجيع العلم والمعرفة والأخذ بيد العلمـاء و الفقهـاء و الشعراء و أصحاب الفكر والفلاسفة وإقامة المساجد والجوامع و دور العلم ومنشآته و المدارس والمكتبات وإحتواء الكتب و المجلدات و التصـانيف وعقـد المنـاظرات

العلمية حيث كان العلماء و المفكرون يتنافسون و يتناظرون و يتطارحون في العلوم الدينية والعقلية واللغة والشعر و غيرها من صنوف المعرفة و الأدب .

أما الفصل الثالث عشر و الأخير فقد تعلق بـالنظم السياسـية والاجتماعيـة و الإقتصادية للإمارات و الدول التي احتواها المغرب الإسلامي فتحـدث عـن نظـام الوراثة في الحكم و القوانين و الرسوم التي كانت تحكم سياستهم و إدراتهم طبقـاً لمبادئهم و مذاهبهم واتجاهاتهم و كذلك فيما يتعلق بالنواحي الإجتماعيـة داخـل حواضرهم وعواصمهم و مدنهم و مراكزهم و الوضع الإجتماعي لقبائل المغـرب الذي تشكل بعد قيام إماراتهم و دولهم و النفوذ الإجتماعي للفئات و العناصر التي كانت تدير النشاط الإقتصادي الذي كان يتمثل بالزراعة والصناعة والتجارة والنظام النقدي و السكة.

أما القول هنا، أن هذا الكتاب يقدم صورة ربما فيها من الوضوح مـا يسـاعد على الفهم الحضاري للتأثيرات التي تركها المغرب الإسلامي في الجوانب الفكريـة والثقافية والعلمية في مجالات الحياة الإجتماعية والإقتصادية و في جوانب الحضـارة الروحية والمادية التي اشادها المسلمون في هذه المنطقة من العالم الإسلامي.

لقد تطلبت هذه الدراسة، الرجوع إلى مصادر و مراجع كثيرة ومتنوعة، عربية وغير عربية، مخطوطة ومنشورة، تاريخية وجغرافية، لغوية وأدبية، وموسوعات وقواميس وبيبليوغرافيات ومعاجم وفهارس وموارد وغيرها، ففي هذه المجموعات من الكتب مادة على قدر من الأهمية لموضـوعاتها، و خصوصـاً فيمـا يتعلـق بالأحوال و العلاقات السياسية والعسكرية، غير أن مهمتنا فيما يخص المسـاهمات و الجهود في نطاق الحضارة الروحية والفكرية والمادية وفي النشاط الإجتماعي و الإقتصادي لبلدان المغرب الإسلامي و أهله، كانت صعبة، لأن المصادر التاريخيـة المعاصرة للحقبة التي نُعنى بدراستها قليلة ومفقودة و المعلومات فيما يتوفر منها مشتتة و موزعة بين هذه الكتب.

ولعل من أبرز المصادر التي استندنا عليها لتوثيق دراستنا و شكلت معلوماتها هيكلاً عاماً لبحوث الكتاب و فصوله يأتي في مقدمتها، كتاب المالكي(المتوفى فـي

نهاية القرن الرابع الهجرى) الموسوم"رياض النفوس فى طبقات القيروان وأفريقية" وكتاب أبى عبيد البكرى(المتوفى فى 487 هـ) " المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب" وكتاب إبن عذارى (المتوفى فى695 هـ) "البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب " كما نقرأ فى كتاب القيروانى(المتوفى فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى) " تاريخ أفريقية والمغرب " وكتاب محى الدين المراكشى(المتوفى فى 647هـ) " المعجب فى تلخيص أخبار المغرب " وكتاب إبن خلدون(المتوفى 808 هـ) " العبر وديوان المبتدا والخبر" و كتاب إبن أبى دينار(المتوفى1092 هـ) " المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس " وكتاب المقرى (المتوفى 1041هـ) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب " حقائق مكملة لمعلوماتنا عن بلاد المغرب الإسلامى. أما الشريف الادريسى(المتوفى 558هـ)فى كتابه "صفة المغرب وأرض السودان" (وهو قطعة من كتاب نزهة المشتاق فى إختراق الآفاق)والمؤلف المجهول فى كتابه"الإستبصار فى عجائب الأمصار" وإبن شاهين الظاهرى (المتوفى 873هـ) "زبدة كشف الممالك و بيان الطرق والمسالك " والحميرى(المتوفى 960 هـ) فى كتابه "الروض المعطار فى خبر الأقطار" فإن هؤلاء المؤرخين يبرزون طبيعة بلاد المغرب وأفريقية من الناحيتين السياسية والادارية. و تحدثت المصادر عن حواضر المغرب و مدنه وبخاصة مدينة فاس فقد ذكر إبن أبى زرع(المتوفى 720 هـ) فى مؤلفه المعنون "الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس" والجزنائى(المتوفى أواخر القرن الثامن الهجرى)فى كتابه "زهرة الآس فى بناء مدينة فاس" وكان لهذين المصدرين أهميتها فى إعداد دراسة مفيدة عن مدينة فاس التى كانت تمثل مركزاً حضارياً مهماً من مراكز المغرب. أما المصادر التى استقينا منها معلوماتنا عن تاريخ دول الخوارج فى المغرب الإسلامى فيتقدمها كتاب إبن الصغير المالكى (المتوفى فى نهاية القرن الثالث الهجرى) الموسوم "أخبار الأئمة الرسميين" وكتاب أبى زكريا(المتوفى فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى) "السيرة وأخبار الأئمة "وكتاب الدرجينى(المتوفى منتصف القرن الرابع الهجرى) "طبقات

الإباضية كما يقدم لنا كل من لسان الدين بن الخطيب(المتوفى 940 هـ) ضمن كتابه "أعمال الأعلام "وهو مغربي،وابن الأثير(المتوفى 630هـ)في كتابه "الكامل في التاريخ " وهو من أهل المشرق، معلومات متفرقة عن أحداث مختلفة لها مساس مباشر بأبواب الكتاب و فصوله.

ومن الكتب والمصنفات الجغرافية الإسلامية نقتبس معلوماتنا في جغرافية بلاد المغرب، حدودها ومناطقها وتقسيماتها الإدارية و الإقليمية و سكانها و مواردها و على رأس هذه القائمة من الكتب، كتاب اليعقوبي(المتوفى 284هـ) " البلدان " وكتاب إبن خرداذبه (المتوفى 300 هـ)" المسالك والممالك " وكتاب إبن حوقل (المتوفى367 هـ) "صورة الأرض " وكتاب المقدسي(المتوفى 375هـ) "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم " وكتاب ياقوت(المتوفى626 هـ) " معجم البلدان " وكتاب أبي(المتوفى732 هـ) " تقويم البلدان ".

أما الفصل الذي عقد لموضوع الفتح الإسلامي في بلاد المغرب، فتوثقه كتب الفتوح و منها نذكر، كتابي إبن عبد الحكم(المتوفى276هـ) "فتوح مصر والمغرب" والآخر" فتوح أفريقية والأندلس"، وكتاب البلاذري(المتوفى 279هـ) "فتوح البلدان" و ذلك ضمن المصادر التي إعتمدناها في دراسة الفتوح الإسلامية في ليبيا و فتوح البلاد التونسية(منطقة المغرب الأدنى) وفتوح الجزائر(منطقتي المغربين الأوسط والأقصى).

وفي الدراسات الحديثة نجد بعض الآراء والتحليلات المفيدة لبحوثنا في هذا الكتاب وخصوصاً لدى الكتور عبد العزيز سالم في كتابه " المغرب الكبير" والدكتور الحبيب الجنحاني في كتابه " المغرب الإسلامي "والدكتور محمود إسماعيل في كتابه " الخوارج في المغرب الإسلامي " وفي دراسة الدولة الفاطمية التي يُعد تاريخا مرحلة مهمة من تاريخ المغرب السياسي والإجتماعي و الحضاري، وكتب الدكتور حسن إبراهيم حسن، كتابه الموسوم "تاريخ الدولة الفاطمية " والدكتور موسى لقبال وكتابه "دور كتامه في تاريخ الدولة الفاطمية "حيث أوردا تمحيصاً دقيقاً للروايات و النصوص المتعلقة بهذا الجانب.

ونقرأ في كتاب المستشرق فاسيلى بارتلود المُعرب تاريخ الحضارة الإسـلامية "وكتاب المستشرق آدم متز المُعرب "الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى" معلومات عن الأنشطة الحضارية والمدنية للإمارات و الدول التى تقاسمت المغرب الإسلامى كما إننا وجدنا بعض الآراء المفيدة فىعدد من الكتب الأجنبية يمكـن أن تعين فى إيضاح بعض المعلومات فى موضوعات مختلفة من بحثنا ومن هذه الكتب كتاب المستشرق مارسيه

Marcais .G."La Beris Musulane" et "Oriient aumagenage"وكتـاب هيـد Heyed.W."Hostoire du Commerce du Levant au Mogen-age"وكتـاب بريسكوت W.Prescott History of Ferdinand and Isabella the catholic

ويجدر بنا قبل أن نفرغ من هذه المقدمة، أن نردد مع أنفسنا فى الأقل إننا بذلنا جهوداً غير قليلة فى تأليف هذا الكتاب و إعداده، ويمكن للقارئ أن يتلمس هـذه الجهود من خلال تصفح الكتاب و استعراض أبوابه و فصوله بما يجعله يقتنع، إن اهتمامنا كان منصباً على السير نحو الهدف الذى كنا نسعى إليـه، وهـو تبيـان الحقيقة و إظهارها بطريقة صحيحة و بأسلوب موضوعى و بمنهجية علميـة، و الإبتعاد عن المبالغة فى وصف الماضى التى لا تجدى نفعـاً، إذ إن معرفـة هـذا الماضى على حقيقته أقوم فى خدمة الإنسان المعاصر فى سعيه إلى غـد مشـرق وضاء. كما إن العرض التاريخى الذى اتسمت به مادة الكتاب، به مـن الوضـوح والتميز، بحيث يتاح للمتخصص و المتتبع والقارئ، أن يستلهم تـاريخ المغـرب الإسلامى فى صفحاته المشرقة لحاضره و مستقبله.

ومهما يكن من أمر، فإنه ينبغى أن تحث موضوعات الكتاب، المتخصصين فى تاريخ المغرب والأندلس و القراء المتابعين و طلبتنا الأعزاء، على المزيـد مـن الإطلاع على المصادر و المراجع المختلفة الأخرى التى لم يُتح لنا تناولهـا بغيـة الحصول على معلومات جديدة و لتحقيق التوثيق التاريخى و إجتنـاء أكبـر قـدر ممكن من الفائدة العلمية. ولكن يجب علينا أن لا نبالغ إلى الحد الذى يجعـل مـن الصعوبات التى واجهتنا خلال العمل على إنجازه، عقبةً في إعداد بحـث منهجـى

يقوم على الموضوعية، فقد أمكن تخطى هذه الصعوبات، غير إنها هفوات سطحية لا تمس ما انتهينا إليه في هذا البحث من نتائج على قدر من الأهمية التاريخية.

والله تعالى من وراء القصد.

الباب الأول

الأحوال العامة في بلاد المغرب

ثــلاثة فصـــول

الفصل الأول

جغرافية بلاد المغرب

1. حدود المغرب فى كتب الجغرافيين المسلمين
2. المناطق السهلية و الجبلية والواحات
3. التقسيمات الإدارية و الإقليمية
4. سكان المغرب الإسلامى
   أ. العرب
   ب. القبائل المغربية
5. الموارد المائية: الأنهار، الأمطار، العيون.

الفصل الأول

جغرافية بلاد المغرب

حدود المغرب فى كتب الجغرافيين المسلمين:

أصطنح على جميع البلاد التى تلى مصر غرباً حتى المحيط الأطلسى بما فيها أفريقية الشمالية ، منذ أقدم العصور بأسماء مختلفة فكان الإغريق يسمون الجزء الشمالى منها الذى يسكنه العنصر الأبيض باسم "ليبو" أو "لوبيا" أو ليبيا فيما كانوا يسمون الصحراء ببلاد الأحباش السود. و لفظ أفريقية **Africa** أطلقه الرومان على الإقليم الذى يقابل اليوم الجزء الشمالىالشرقى من البلاد التونسية ،وهو يشتمل على قرطاجنة و ما حولها حتى نوميديا، وكان يعرف على عهد الرومان بولاية أفريقية القنصلية. الذى عُرب فيما بعد إلى كلمة أفريقية و قد أطلقه العرب فى بادئ الأمر على جميع بلاد المغرب فيما عدا طرابلس و برقة ثم اقتصر اسم أفريقية بعد ذلك على جميع البلدان التى تلى مصر غربا حتى بجاية و أطلق اسم المغرب على البلاد التى تلى بجاية غرباً حتى المحيط الأطلسى .

أن أصل كلمة أفريقية مشتق من كلمة أفرى **Aphri** التى أطلقها الفينيقيون على أهل البلاد الذين كانوا يسكنون مدينتهم يوتكا **Utica**وعاصمتهم قرطاجنة ثم عممه اليونانيون على جميع سكان البلاد الذين يسكنون المغرب من حدود مصر الغربية إلى المحط الأطلسى .وقد أجمع المؤرخون و الجغرافيون العرب على أن بلاد المغرب تمتد من طرابلس شرقاً حتى المحيط الأطلسى غرباً وإن من طرابلس إلى الشرق لا يدخل فى اصطلاح المغرب .

ومن الجدير بالذكر،أن الجغرافيين المسلمين تناولوا فى كتبهم وتآليفهم اصطلاح المغرب ، فيشير المؤرخون و الجغرافيون المغاربة ومنهم إبن عبد الحكم إلى أن المغرب هى البلاد التى تلى بجاية حتى بحر (الظلمات) المحيط الأطلسى [1]

---

[1] فتوح افريقية والاندلس ص34-42

ويحدد البكري، أفريقية طولاً من برقة شرقاً إلى طنجة في المملكة المغربية غرباً[1]. أما الحدود التي رسمها ابن عذاري المراكشي لبلاد المغرب، فهي من تاهرت (عاصمة الرستميين) إلى مدينة سلا ويسميها بلاد طنجة و يدخل الأندلس في هذا الإقليم [2]. ويذكر عبد الواحد المراكشي تحديدين لبلاد المغرب،الأول ويسميه أفريقية ويبدأ من إطابلس في ليبيا شرقاً إلى قسطنطينية في الجزائر غربا،والثاني يسميه المغرب ويبدأ من قسطنطينية في الجزائر شرقاً إلى مدينة طنجة غرباً [3]، ثم يقول: ما بعد قسطنطينية فهو من المغرب غير أفريقية [4]،ونجد في كتاب السلاوي تحديدا للمغرب ويبدأ من برقة في ليبيا شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً بما في ذلك إقليم طرابلس[5].

أما في كتب الجغرافيين المشارقة فهناك تعريفات مختلفة أحياناً، يذكر ابن حوقل،إن المغرب " من مصر وبرقة إلى أفريقية وناحية تنس إلى سبتة وطنجة "[6] ويجعل المقدسي حدود المغرب من مصر إلى السوس الأقصى وجزيرة صقلية و الأندلس "[7] أما ياقوت فيحدد أفريقية ويجعل ضمنها المغرب بقوله أفريقية إسم لبلاد واسعة ومملكة كبيرة قبالة جزيرة صقلية و ينتهي آخرها إلى قبالة جزيرة الأندلس "، ثم يقول أيضاً: "وحد أفريقية من طرابلس الغرب من جهة برقة و الأسكندرية إلى بجاية "[8].

---

(1) المغرب في بلاد الأندلس و المغرب ص21.

(2) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج 1 ص5.

(3) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص .347-357

(4) المصدر نفسه ص442

(5) الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج1 ص33.

(6) صورة الأرض ص 062

(7) احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص216 .

(8) معجم البلدان ج1 ص228،229 .

المناطق السهلية و الجبلية و الواحات

ترتبط بلاد المغرب جغرافياً وأنثولوجيا بالإمتداد الطبيعي لجبال الأطلس المتفرعة من المجموعة الألبية التى تتوسط المغرب و تمتد من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق وذلك بسلسلتين:إحداهما شمالية وتسمى جبال الريف التى تمتد قريباً من السواحل الواقعة بين طنجة و مليلة، ثم جبال الأطلس التلى.وثانيتهما، جنوبية تمتد فى الصحراء الداخلية اعتبارا من جنوب وادى السوس عبر الصحراء إلى جبال أوراس وجبال زغوان التى تقع جنوبى تونس.إن سلسلة جبال الأطلس الشمالية، وهى السلسلة الأولى وتنقسم إلى مجموعتين: الأولى جبال الريف أو جبال أطلس الغربية وتظهر فيها جبال أطاس الساحل المتاخمة للنهاية الجنوبية الغربية لجبال سيرا نيفا و الإسبانية و يطلق عليها (جبال شلير)وهى قليلة الإرتفاع وأكثرها إرتفاعاً جبل بنى حسن الذى يبلغ إرتفاعه ما يقرب من ألفى متر،وتكون هذه الجبال شكلاً أقرب إلى القوس يحتضن الساحل الشمالى الممتد من سبتة إلى مليلة، ويترك سهلاً ضيقاً فى هذه المنطقة.أما المجموعة الثانية فهى جبال الأطلس التلى وهى سلسلة تمتد من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى إستمراراً لجبال الريف الساحلية،وتمتاز هذه السلسلة بإرتفاعها وانحدارها الشديد نحو السواحل الشمالية وكذلك نحو أحواض الأنهار الجنوبية المنعزلة بين جبال الأطلس التلى وأطلس المتوسط وخصوصاً فى القسم الغربى من منطقة المغرب الأوسط . أما الجزء الشرقى من هذه المجموعة فاقل إرتفاعاً وأكثر تقطعاً ثم تستمر جبال الأطلس التلى

فى الإمتداد شرقاً حتى تنتهى بجبال خمير فى منطقة المغرب الأدنى.

أما السلسة الثانية فهى جبال الأطلس الجنوبية أو الأطلس الصحراوى ويسميها إبن خلدون(جبال درن)[1] وتبدأ من منطقة المغرب الأقصى وتسمى جبال الأطلس الكبرى وهى أكثر جبال الأطلس إرتفاعاً، كما إنها عديمة الممرات، مما تركت تأثيرها فى منطقة المغرب الأقصى عن سائر بلاد المغرب، ونجد فى هذه السلسلة

---

[1] العبر وديوان المبتدا والخبر ج6 ص100.

(جبال القياشى)الذى يتراوح إرتفاعه بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف متر، ثم تستمر جبال الأطلس الكبرى بامتدادها إلى المغرب الأوسط،وهى تشتمل على (جبال القصور)و(جبال العمور)و (جبال أولاد نايل) وجبال الزاب) و(جبال أوراس) وتنتهى بـ(جبال زغوان) فى المغرب الأدنى، و أغلب هذه الجبال تكسوها الغابات و تتوجها الثلوج. و يلاحظ أن الهضاب أو السهول المرتفعة تنحصر بين هاتين السلسلتين حيث يشتغل فيها السكان برعى الماشية، وإن أغلب هذه الهضاب تقع بين جبال الأطلس التلى و الأطلس الصحراوى فى المغرب الأوسط،كما تقع إلى شمال سلسلة جبال الأطلس الكبرى سلسلة جبال الأطلس الوسطى وتسمى أحياناً الأطلس الصغرى ولكن يغلب عليها طابع الهضاب أكثر من الطابع الجبلى وبخاصة فى الجنوب الغربى منها . وتبدو واضحة المعالم فى حدودها الجنوبية الغربية حيث تشرف على سهل تادلا وكذلك حدودها الشرقية حيث يجرى هناك نهر ملوية، أما فى الشمال فيقع ممر تازة وهو المدخل الوحيد إلى منطقة المغرب الأقصى، ونتيجة لالتصاقها بجبال الأطلس الكبرى فانه من الصعب تمييزها عنها فى حدودها الجنوبية.

وتعد جبال الأطلس الوسطى، المصدر الدائم لمياه الأنهار والعيون ونلاحظ أن الهضاب المغربية تمتد بين جبال الأطلس الكبرى والوسطى حتى المحيط الأطلسى، ففى منطقة المغرب القصى توجد(هضبة الِمزيتا) وفى منطقة المغرب الوسط تمتد"هضبة الشطوط" التي تتميز ببحيراتها وبينها يقع ممر تازة .

أما المناطق السهلية فأغلبها يقع على ساحل المحيط الأطلسى و ساحل العدوة والبحر المتوسط، وفى ساحل البحر المتوسط تظهر السهول بمناطق محدودة وأشهر سهول المغرب الأقصى " سهل شاوية "و" سهل دكالة "و" سهل عبدة " أما سهولالمغرب الأدنى الساحلية فتكاد لا تذكر لضيقها وذلك بسبب إقتراب الجبال من الساحل التونسى .

وقد تكونت بعض السهول حول وديان صغيرة تجرى فيها النهار ومنها"سهل ماكتة" و" سهل زيق " في منطقة مدينة وهران بالجزائر و(سهل وادى شليف) فى

منطقة المغرب الأوسط و" سهل وادى مجردة "فى منطقة المغرب الأدنى و" سهل وادى مجردة " فى منطقة المغرب الأدنى و" سهل وادى ملوية " و" سهل مكناس" فى منطقة المغرب الأقصى وكلا هذين السهلين مرتفع.

كما أن هناك مجموعتان من السهول الداخلية:

الأولى تمتد من مصب نهر تنسيفت الى وادى ملوية ويضمها السهل المطل على المحيط الأطلسى و(سهل سبو) و(سهل ممر تازة) و(سهول ملوية الدنيا) التى تتشكل فيها الطرق الطبيعية الممتدة بين جبال الأطلس ومنطقة المغرب الأوسط؛ والمجموعة الثانية تشتمل على (سهل الحوز) الذى يخترقه نهر تنسيفت ثم منخفض تادلا. أما سهول المغرب الأدنى فى البلاد الليبية والتونسية فتشتمل على سهول داخلية يقع أغلبها حول الواحات، وقد أشار إليها ابن خلدون، فذكر منطقة الجريد جنوب المغرب الأدنى، وهى (نفطة وتوزر وقفصة) وهذه جميعا تسمى بلاد قسطيلية.[1]

---

[1] المصدر السابق ج6 ص101 .

التقسيمات الإدارية و الإقليمية

بدأت منذ القرن الثانى الهجرى،تظهر فى مسميات العرب لبلاد المغرب مفاهيم وإصطلاحات، تدل على تقسيمات إدارية وأقليمية ثلاثة لهذه البلاد

أولاً:المغرب الأدنى:

وكان يسميه العرب فى كتابتهم وتآليفهم" أفريقية " فيذكر البكرى أفريقية تعنى "صاحبة السماء " كما إنها سميت كذلك لأن أفريقشى بن أبرهة ابن الرائشى غـزا نحوالمغرب حتى أنتهى إلى أرض طنجة فبنى أفريقية فسميت باسمه؛ وقيل سميت بأفريق بن إبراهيم عليه السلام من زوجته الثانية قطورى. وقال آخرون،إنما سُموا "الأفارقة " لأنهم من ولد فارق بن مصريم،وقد زعموا أن إسم أفريقية امرأة ليبيـة سميت ببنت يافوه بن يونش الذى بنى مدينة منفيس بمصر،وقد ملكت هذه المرأة ملك أفريقية أجمع فسمى بها.[2]

لقد أطلق اسم المغرب الأدنى على هذه البلاد لأنها أقرب إلى الإدارة المركزيـة للدولة العربية الإسلامية ودار الخلافة فى بلاد الشام أو العراق. ويمتـد المغـرب الأدنى من طرابس شرقاً حتى بجاية أو مدينة تاهرت غرباً، وأحياناً يحددها بعض المؤرخين والجغرافيين من خليج سرت شرقاً حتى المحيط الأطلسى غرباً. ويمكـن القول إستناداً إلى بعض المصادر إن مركز المغرب الأدنى هو مدينة " القيروان ". أما فى الوقت الحاضر فإن هذا المفهوم يشمل ليبيا وتونس وبعض الجزاء الشرقية من الجزائر .

ثانياً: المغرب الأوسط:

ويمتد من مدينة تاهرت شرقاً حتى وادى نهلر ملوية وسلسلة جبال تازة غرباً. ومركز هذا الإقليم مدينة تاهرت عاصمة الدولة الرستمية الإباضية وبـالقرب مـن تاريت Tiatat فى وهران Oranفى بلاد الجزائر.

---

[2] المسالك والممالك ج2 ص671.

ثالثاً: المغرب الأقصى:

ويمتد من وادى نهر ملوية شرقاً حتى المحيط الأطلسى غرباً، كما لأنه إمتداد للمغرب الأوسط، ويفصل بينهما نهر ملوية، وتتمثل مناطق المغرب الأقصى اليوم بالمملكة المغربية. كما إن بعض المؤرخين المسلمين يجعل الأندلس ضمن المغرب الأقصى وبعضهم الآخر يعده ضمن المغرب الإسلامى عامة، وإن أفريقية كانت تشمل المغرب الأدنى وليبيا وإقليم تونس حتى مدينة قسطنطينة شرق الجزائر.أما مفهوم المغرب الإسلامى الذى تكرر فى كتب المؤرخين والجغرافيين والبلدانيين فيطلق على جميع المغرب الأدنى و الأوسط والأقصى وربما الأندلس إعتباراً من خليج سرت شرقاً أو برقة حتى المحيط الأطلسى أو شبه جزيرة إيبيريا. وهناك من يقول إن لفظ المغرب إسم إضافى على مكان فى جهة الشرق وتحديداً على مصر. وقد اكتسب اللفظ مفهوماً جغرافياً وسياسياً خلال التاريخ الإسلامى والتعريف الذى نُعنى به بلاد المغرب الإسلامى يستند إلى ثلاثة أسس، أولها الحواجز الطبيعية مثل الجبال والسهول والأنهار أو المناطق الصحراوية وثانيها التركيب البشرى و السكانى الذى يتحدد فى الأقاليم التى تشكل هذا المفهوم وثالثها، الوضاع الإدارية والظروف السياسية التى تسود خلال الحقب التى مرت منذ الفتح الإسلامى حتى سقوط غرناطة، ومهما يكن من أمر فإن مفهوم المغرب الإسلامى، هو سياسى يختلف من عصر إلى آخر. ونقرأ اصطلاح " شمال أفريقية " الذى يشير إلى جميع المناطق التى تقع ضمن كل من تونس والجزائر و المغرب باستبعاد ليبيا وهذا الاصطلاح يتضمن حسب المصادر العربية لفظة " أفريقية " التى كانت تختلط أحياناً بالمفهوم الكلى لكلمة المغرب التى لابد أن تتضمن جميع الدول الواقعة شمال أفريقية ابتداء من ليبيا حتى سواحل المحيط الأطلسى.

سكان المغرب الإسلامي

يتألف سكان المغرب، بعد توطد الفتوحات الإسلامية فيه من عناصر مختلفةوأهمها:

أولاً:العرب

يشكل العرب اليمانيون المضرين الغالبية فى مجموع العرب الساكنين فى بلاد المغرب، وكان يطلق عليهم "عرب المغرب"أو "العرب البلديون" أو "العرب الأفارقة" وأكثرهم من اليمن وأهل الحجاز ويمثلون الأكثرية الساحقة من سكان المغرب.

والظاهر أن هؤلاء العرب هم أنفسهم الذين كانوا التحقوا فى الحملة المتوجهة من مصر إلى شمال أفريقية لغرض الفتح فاختطوا لهم خططاً فى مدينة القيروان وصاروا خلال القرن الأول الهجرى يؤلفون جزءاً كبيراً من سكانه فى القرون التالية ...

ويمكن القول، إن العرب الأفارقة هو فى الواقع من أقدم بيوت العرب المحررين الذين إستقروا بأفريقية منذ تأسيس مدينة القيروان على يد القائد العربى عقبة بن نافع الفهرى. وكان معظم هؤلاء العرب يقيمون فى مدينة "بلزمة" التى تعرضت فيما بعد إلى هجوم بعض القبائل المغربية التى استهدفت الوجود العربى هناك حيث أبيد أكثر من سبعمائة من وجوه العرب وأبطالهم مما أثار حفيظة عرب أفريقية عامة وفى مقدمتهم عرب تميم وعرب الجزيرة العربية وقبائل عرب الأربس(والأربس قرية كبيرة تقع شمال مدينة تونس) وكذلك بنى باجة حيث انجدوهم ضد هجمات القبائل وتعدياتها.

ولما حل موسى بن نصير والياً للمغرب آزره العرب اليمانيون حتى سنة 96 هـ حيث برز بعد ذلك العرب القيسيون على مسرح الأحداث يقودها الوالى محمد بن يزيد القيسي. غير إن نفوذ العرب اليمانيون لم يلبث إن عاد من جديد فى عهد ولاية يزيد بن أبى المسلم سنة(101–103 هـ) ولكن مع ذلك فان نفوذ العرب القيسيون ازداد انتشارا في البلاد ولم يسدل الستار عنهم الا بعد أن تولى بشر بن صفوان اليمانى، ثم استمر العرب اليمانيون يسودون فى البلاد حتى سنة

116هـ،حيث ولى الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك عبيد الله بن الحبحاب الذى كان قيسياً،فأعاد سيادة العرب القيسيين. ومن المفيد القول أن العلاقات بين اليمانية والقيسية فى بلاد المغرب هى فى الحقيقة بين البلدين من عرب المغرب وبين العرب الطارئين عليه من المشرق وهم الشاميون سواء من القيسية أو اليمانية معاً.

والعرب الشاميون هم من القيسيين ومعظمهم كان يناصر أو يقف إلى جانب العباسيين فى صراعهم على السيادة النهائية فى المغرب، وقد انضم اغلبهم للجيش العباسى وأصبحوا فيه من العناصر المهمة التى يمكن الإعتماد عليها فى قمع الحركات والثورات المضادة للنفوذ العباسى هناك، وقد لعب عرب تميم الذين استقروا فى تونس دوراً حاسما فى الوقوف ضد السيادة غير العربية أما قبيلة صدف العربية فى كهلان التى كانت تقيم هناك وبالقرب من القيروان فقد لعبت هى الأخرى دورا مؤثرا فى الصراع نتج عنه الموقف المعروف بالميل نحو العرب بصورة عامة فى بلاد المغرب الاسلامى.

ولعل معظم العرب فى بلاد المغرب هم جند أو مقاتلة يمكن استنفارهم فى ظروف معينة وبخاصة فى أوقات الحروب أو التعبئة لها، وعرف عن هؤلاء الجند أنهم يفضلون أن يقودهم من هو أرفع منزلة ونسباً وبدون ذلك فلقد طالما أعلنوا ثوراتهم وتمردوا بوجه الأمراء أو الولاة أو العمال الذين لا يشدهم اى شعور بالولاء نحوهم.

والعرب فى بلاد المغرب ينقسمون إلى فريقين، الأول وهم الأكثرية الذين يشكلون سكان المغرب وأغلبهم من أعقاب العرب الفاتحين للمغرب الذين كانوا قد سكنوا هذه البلاد وينضم إلى هؤلاء جماعات العرب الذين وفدوا من المشرق فى العصرين الأموى والعباسى واستقروا فى أفريقيا واصبحوا أهل البلاد. أمل الفريق الآخر فهم من العرب الوافدين على المغرب فى العصرالعباسى ومن الذين كانوا قد اشتركوا فى الجيوش التى جردها الخلفاء العباسيون لاستكمال فتح هذه البلاد وكان

هؤلاء ألفوا طبقة متميزة عُرفت "بطبقة الجند" وكانت تستقر حيثما تشاء فى أنحاء المغرب وتتمتع بامتيازات كثيرة .

أما فيما عُرف فى تاريخ المغرب الإسلامى " بالطوالع العربية " فإن أول طالعة هى طالعة موسى بن نصير وتتمثل بالجيش الذى قاده هذا القائد وأغلبه من عرب الحجاز الذين عرفوا فيما بعد "بالبلديين" لاختلاطهم بأهل البلاد. وكان هؤلاء قد فضلوا ترك بلادهم والهجرة إلى المغرب للابتعاد عن الإضطهادات الدموية التى كانوا يتعرضون لها،وقد بدأت هذه الإضطهادات فى موقعة (الحرة) وهى منطقة قرب المدينة فى الحجاز حيث استمرت بعد هذه الموقعة وخلال الأحداث التى رافقت حركة عبد الله بن الزبير سنة 63 هـ .

أما الطالعة الثانية فتتمثل بالجيش الشامى الذى كان يقوده كلثوم بن عياض القشيرى لفتح المغرب، ويتألف هذه الجيش من عرب الشام ولعل هذه الطالعة لم تلق ترحيباً من العرب الحجازيين أو اليمانيين وذلك بسب خشيتهم بأنهم ربما يشاركونهم فى الإمتيازات التى أو الحصول على الأراضى والمناطق التى كانوا قد استحوذوا عليها.

وكان يقود الطالع الثانية بلج بن بشر القشيرى،وقدرت هذه الطالعة بحوالى التسعة آلاف رجل أكثرهم من عرب الشام مع أقلية من الجند المصريين. ومن الملاحظ أن هذه الطالعة لم يسبق لها الاستقرار فى بلاد المغرب، بل تهيأت لها الظروف المناسبة للعبور إلى بلاد الأندلس حيث أتيح لها السكنى هناك .

ومن الجدير بالذكر،إن عرب تميم المستقرين فى تونس ينتسب أكثرهم إلى الأغالبة،وقد حازوا لأنفسهم إمتيازات وافرة، غير أن حكام الأغالبة إنقلبوا عليهم وجردوهم من امتيازاتهم وقتلوا جماعة منهم ولابد أن يكون السبب فى ذلك تمويه الأوضاع لصالحهم والخروج عن طاعة الأغالبة وعدم الإمتثال لأوامرهم وخاصة فيما يتعلق بالموقف من العباسيين،حيث إن أغلب عرب بنى تميم من يقف موقفاً مناوئاً للسلطة العباسية والنظر بعين العداء للجيوش العباسية فى المغرب خلال هذه الحقبة ومعروف أن وقوف الأغالبة ضد العنصر العربى فى المغرب كان بسبب

ما أضرموا من فتن وتمردات وثورات مستمرة على المراء والعمال والجباة من بنى الأغلب مما كان يشكل خطراً يهدد كيان دولتهم وأصبحوا بمرور الزمن "يظنون سوءاً بالعرب ويستخفون بهم و يمعنون أحياناً فى الفتك بهم وسفك دمائهم "[1].

ثانياً: القبائل المغربية

وتتوزع هذه القبائل فى جميع أنحاء المغرب الإسلامى من برقة شرقاً حتى المحيط الأطلسى ويؤلفون العناصر السكانية الأصلية لهذه البلاد، وكان الرومان أطلقوا على سكان إقليم موريطانية(منطقة طنجة) اسم مور **Maures** وما لبث هذا الاسم، أن أطلق على سائر سكان المغرب، ويشير ابن خلدون إلى أن أفريقشى بن قيس بن صيفى هو الذى حدد العلاقات بين القبائل المغربية بعد أن فتح المغرب[2]، ومن المرجح إن هذه القبائل تنقسم إلى مجموعتين أولاهم الحضرية التى كانت تسكن المدن والحواضر والقرى الكبيرة وتمتهن الزراعة وتربية الحيوان وبعض الصناعات اليدوية، وثانيهما القبائل الرحل الذين كانوا ينتشرون فى الصحارى ويعيشون على الرعى.

وكانت القبائل المغربية تتفرع إلى بطون وعشائر وتتصف بالشجاعة والخشونة وحب القتال وحدة الخلق كما انقسموا إلى جذمين كبيرين،الأول قبائل البرانس الذين استقروا فى المدن وتحضروا بالحضارة اللاتينية، والثانى جذم متبد يسكن البادية ويسمون قبائل البتر ومنها قبيلة زناته، ولعل هذا التقسيم لا يمكنالأخذ به ،لأن هذه القبيلة من أكثر القبائل حضارة وعمراناً على حد قول ابن خلدون[3]، مما يجعلها فرعاً مستقلاً عن سائر القبائل الأخرى، ثم إن المتحضرين كانوا قلة ضئيلة بالنسبة للمبتدين الذين يؤلفون السواد الأعظم من سكان البلاد .

---

[1] ابن عذارى،البيان المغرب ج1 ص130 .

[2] العبر وديوان المبتدا والخبر ج6 ص88 .

[3] المصدر نفسه ص90 .

أما التفسير اللغوى لكلمتى البرانس والبتر، فتعنى الأولى القبائل المتدثرون بالبرنس والثانية بانهم العارون من الثياب، ولكن هذا التفسير لا صحة له فليس لزاما على البترى أن يكون عارياً من البرانس كما أنه ليس شرطاً أن يكون البرانس مرتدياً له.

والقبائل البرانسية سبع قبائل: أوربة وصنهاجة وكتابة ومصمودة وعجيسة وأريغة وأزدواجة، وقيل عشرة فيضاف إليها لمطة وهكسورة وجزولة [1]. وتعد صنهاجة بنو زيرى ابن مناد والملثمون(المرابطون) وقد غلب على صنهاجة طابع البداوة فتفرقت فى أنحاء المغرب. وأكبر قبائل صنهاجة قبيلة زناجة التى كانت تتخذ من جبال الأطلس المتوسط جنوبى تازة حتى منطقة بنى حلال موطنا لها. كما احتلت بعض قبائل صنهاجة جزءاً مهما من إقليم الريف، واحتضنت قبائل أخرى من صنهاجة بمنطقة آزمور .

أما قبيلة كتامة فقد لعبت دورا مهماً فى القيام الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب، كما تعد قبيلة مصمودة من أهم قبائل البرانس حتى إن بعض المؤرخين يجعلها فرعا قائما بذاته. ومن قبيلة مصمودة تخرج قبيلة غمارة التى تحتل منطقة العدوة من الريف وقبيلة برغواطة وهم سكان تامسنا وأهل جبل درن، ومن مصمودة، المستقرون فى السهول ومنهم قبيلة دكالة التى تنزل جنوبى وادى أم الربيع وقبيلة رجراجة على وادى نهر تنسيفت وإن جميع المصامدة متحضرون قد تعودوا حياة الإستقرار فى المدن.

وتنقسم قبائل البتر إلى أربع قبائل هى: ضريسة ونفوسة وأداسة ولواتة وتتفرع ضريسة إلى قبيلتين هما:مكناسة و زفاتة ويخرج من قبيلة زناتة قبائل:جراوة ومغراوة وبنو يفرن وبنو زيات وبنو مرين .

أما من حيث الجنس فهناك نوعين مختلفين لهذه القبائل. الأول وهو الأغلبية من سكان البلاد يتميز بلونه الأسمر وشعره الأسود ورأسه المستدير وخديه البارزين وأنفه القصير وجبهته المقوسة وهى الصفات نفسها التى تتوفر فى سكان

---

[1] إبن خلدون، المصدر السابق ص 90.

جنوبى أسبانيا وإيطاليا وفرنسا، والثانى ويقتصر على سكان الريف والشلوح فى منطقة المغرب الأقصى وسكان جبال جرجرة فى منطقة المغرب الأوسط ويتميز بشقرة لون الشعر وزرقة العينين واستطالة الرأس ودقة الأنف ورقة الشفتين وتسطح الجبهة[1].

ومن الجدير بالذكر أن العداء كان مستكماً بين قبائل البرانس والبتر فقد حالفت قبيلة زناتة البترية المسلمين الفاتحين لبلاد المغرب منذ وطأت أقدامهم أرض هذه البلاد، فيما تولت بعض القبائل البرانس مهمة مقاومتهم والحيلولة دون إنتشار الإسلام بين قبائل المغرب، كما حالفت قبيلة كتامة البرانسية الفاطمين فى المغرب وخدمت مصالحهم فى حين عقدت قبيلة زناتة البترية تحالفاً مع أمويى الأندلس الذين كانوا يشكلون الحزب المعارض للعباسيين؛ وبعد ظهور العلويين فى المغرب ممثلاً بالأدارسة، نشطت صنهاجة البرانسية لمحالفتهم.

ومن الممكن من أمر فأن قبائل البرانس كانوا يتميزون بنشاط سياسى أكثر وذلك بمحاولتهم الظهور ممثلين فى صنهاجة للتغلب على المغرب كله وتاسيس دولة اللمتونيين (المرابطين) كما ظهروا فى دولة الموحدين بقيادة قبيلة المصامدة حيث لعبت كلتا الدولتين دوراً رئيسياً على المسرح السياسى فى المغرب والأندلس، ولا غرو فإن كثيراً من المؤرخين، يعللون تاريخ المغرب وأحداثه على ضوء الصراع السياسى و الإجتماعى والدينى بين قبائل البرانس وقبائل البتر [2].

أما انتشار الإسلام بين القبائل المغربية فيصح أن نشير إلى الدور الذى قام به والى أفريقية عقبة بن نافع الفهرى حيث مهد الطريق أمامها للدخول إلى الإسلام فأبتنى مدينة القيروان سنة 50هـ/675 م لتكون مهداً لبعض القبائل واتخذ من مسجدها الجامع مركزاً لبث الإسلام وتعميقه بين صفوفهم ثم استمر الولاة العرب

---

[1] د.السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص20–21 نقلا عن:
Andre Julien,Hisoire " Afrique du Nord,P.50-53, Tevrasse(Henri) Lart Hispano Mauresque des orginines au ,p.17

[2] ابن عذارى، المصدر السابق ج1 ص37؛ إبن الأثير، الكامل فى التاريخ ج3 ص34؛ د.السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير ج2 ص 248.

بعده يواصلون سياسة نشر الإسلام وقد توج ذلك بدخول قبيلة أوربة وأصبحوا قوة فى الجيش الإسلامى. وتذكر المصادر المتوفرة أن بعض الولاة فى المغرب ومنهم حسان بن نعمان انتهجوا سياسة المؤاخاة بين القبائل فجندوا منهم أجناداً فى الجيش الإسلامي وعهدوا إلى ثلاثة عشر فقيهاً من كبار النابغين بتعليم بعض القبائل القرآن ومبادئ الإسلام واتخذوا من المساجد مراكز لهذا النشاط[1] كما أسسوا مدينة تونس حيث ضمت العلماء والفقهاء والمعلمين لتثقيف القبائل بالعلوم الدينية وأصول الشريعة ولم تمض إلا فترة قصيرة حتى غلب الإسلام على المغرب.

ومن المفيد أن نذكر أن قبائل البرانس الرئيسية وهى أوربة وصنهاجة ومصمودة وكتامة قد حققت لها دوراً سياسياً كبيراً فى ظل الإسلام سواء بأسيسها الإمارات مستقلة تمتاز بالأصالة أو بموالتها للحركات السياسية والفكرية التى تهيأ لها تأسيس أنظمة سياسية فى المغرب، إن هذا الدور الذى مثلته قبائل البرانس جعلها فى مصاف القبائل المغربية الرائدة فى صنع الشخصيات والزعامات القديرة فى الحياة السياسية سواء في بلاد المغرب أو على نطاق العالم الخارجى[2]،كما يلاحظ أن هناك حضوراً ملموساً لقبائل البرانس دون البتر فى الحروب والمعارك والثورات التى شهدها المغرب وذلك على اغلب الأحتمال بسبب كثرتهم حيث أشار إلى ذلك ابن خلدون من طرف خفى قائلاً " أن البرانس أوفر القبائل و أكثرهم عدداً فلا يكاد قطر من القطار يخلو من بطن من بطونهم فى جبل أو بسيط حتى زعم الناس انهم الثلثان من مجموع القبائل" [3]

غير أن بعض القبائل المغربية أصيبت بخيبة أمل عندما صدموا بتعسف بعض الولاة من الأثيوبيين أومن العباسين وتسلطهم على ممتلكاتهم ورقابهم وإرهاقهم

---

[1] ابن عذارى، المصدر نفسه ص37، البلاذرى، فتوح البلدان ج2 ص273؛ ابن كثير، البداية والنهاية فى التاريخ ج9 ص 185.

[2] د.موسى لقبال، دور كتامة فى تاريخ الخلافة الفاطمية ص67.

[3] العبر وديوان المبتدا والخبر ج6 ص152.

بالضرائب والجبيات والمغارم؛ وفى هذا الصدد يمكن أن نشير إلى ولاية عبيد اللى الحجاب على أفريقية سنة 114 هـ التي تمثل قمة الإسراف فى هذه السياسة [1].

ولكن فى خلافة عمر بن عبد العزيز تم التحول إلى سياسة جديدة تقوم على إقامة العدالة واستبعاد الولاة والعمال والجباة الذين عرفوا بالظلم والتعسف، كما تم تعيين عدد من كبار الفقهاء المشارقة للاستهداء فى فهم أصول الدين وفروعه والسير والتوحيد والشريعة إلى جانب علوم اللغة والفلك والعلوم الإسلامية وأصبحت المساجد فى القيروان وتونس وتلمسان وأغمات هيلانة ومسجد الرباطى وجامع الزيتونة مراكز متألقة ومعاهد للدراسة والتحصيل فى العلوم الدينية وعلوم العربية وسائر صفوف المعرفة، وهكذا يمكننا مجاراة ما ذهب إليه الدكتور/ موسى لقبال، أن الفتح الإسلامى كان فى جوهره إعترافاً بالسيادة للدولة العربية الإسلامية ولم يكن يعنى فى حقيقته دخولاً فى الإسلام ولا تقريباً، فاعتناق الإسلام سيكون من عمل القبائل المغربية أنفسهم، أما التعريب فإنه يستوجب الإنتظار قروناً لكى يتم ويكتمل [2].

---

[1] الرقيق القيروانى، تاريخ أفريقيا والمغرب ص109، ابن الأثير، الكامل ج5 ص69؛ ابن عذارى، البيان المغرب ج1، ص52.

[2] دور كتامة ص 88.

الموارد المائية، الأنهار، الأمطار، العيون

يتحدث اليعقوبى الذى كان يتجول فى منطقة المغرب عامة وفى منطقة المغرب الأقصى بصورة خاصة عن النهر العظيم الذى يقال له نهر(فاس) وهو" أعظم من جميع أنهار الأرض"[1] وربما تكمن أهميته فى الإعتماد عليه فى الإرواء الزراعى. ويؤكد ابن حوقل أن هذا النهر "كبير غزير المياه"[2] مما ساعد إلى تحويل منطقة فاس إلى أراض خصبة صالحة للإنبات الزراعى. كما يقول البكرى فى معرض حديثه عن مدينة فاس "وعلى دار الرجل فيها رحاه وبستانه بأنواع الثمر وجداول الماء تخرق داره "[3].

يبدو مما جار به هؤلاء المؤرخين أن منطقة مدينة فاس حاضرة الأدارسة كانت وفيرة المياه حيث يزودها نهر فاس فضلاً عن كثرة " العيون التى تزيد على الستين عينا، فكانت مياهها تفيض على الأرض الفسيحة فتروى الغياض ذات الأشجار الملتفة المطردة العيون والأنهار"[4].

أما النهر الآخر فهو نهر ملوية الذى يسميه اليعقوبى نهر "زيز" فتقوم الزراعة على المياه التى يوفرها هذا النهر والذى تقع على منحنياته مدينة سجلماسة عاصمة إمارة بنى مدرار فى منطقة المغرب الأقصى وأن جميع المناطق التى تحيط بالمدينة هى سهول فيضية صالحة للزراعة، إلى جانب ذلك فقد كانوا يحفرون الخلجان ويشقون القنوات ويهيئون الأحواض وخصوصاً عندما يفيض هذا النهر بفرعيه الشرقى والغربى، لذلك شهدت المنطقة تقسيماً إلى أحواض زراعية تملؤها الفروع والقنوات والجداول التى يغذيها النهر طوال موسم الأمطار.

---

(1) البلدان ص357.
(2) صورة الأرض ص 90.
(3) المغرب فى بلاد أفريقية والمغرب ص117 .
(4) البكرى ،المصدر نفسه ص118 .

وفى منطقة المغرب الأوسط يشاهد الأصطخرى وهو من أهـل القـرن الرابـع الهجرى، مدينة تاهرت وقد أحدق بها الأنهار ونبضت حولها الأعين.[1]

كما يشير ابن حوقل إلى أن أهل تاهرت "لهم مياه كثيرة تدخل بيوتهم على أكثر دورهم "[2] ، أما البكرى فهو أكثر إطلاعاً فيقول عن تاهرت إنها " تقع على نهـر يسمى " مينة " ونهر آخر يجرى من عيون تجتمع يسمى "تاتش" ومنه شرب أهلها وأرضها " [3].

وإذا استعرضنا وديان الأنهار التى كانت تخترق المنـاطق التى تقع تحت نفـوذ إمارة الرستميين فى المغرب الأدنى والأوسط فإننا سنقرأ أهم هذه الوديان ومنهـا "وادى نهر شلف " الذى يتفرع منه نهر " مينة " حيث يمتد مجراه حتى يصل إلـى مدينة تاهرت من جهة الجنوب، ووادى نهر" سوفجج "الذى يتجه شـرقاً فيلتقـى بوادى نهر"القرعة " ثم بوادى نهر " الوحش " كما إن كمية الأمطار التـى كانـت تسقط بغزارة، تؤثر فى تكوين السهول الخصبة. فيذكر النفوس إن موقع تـاهرت فى مكان" جيد الهواء كثير المياه، وقد افادو كثيراً من هذه المياه فشقوا القنـوات للزراعة " [4].

وأهتم المرابطون بتوفير المياه اللازمة لشـرب النـاس والـدواب فأنشـأوا الصهاريج الكبيرة وعملوا السقايات واستغلوا العيون وخصوصاً فى منطقة مدينـة مراكش، كما بدأ الموحدون عهداً جديداً بعد المرابطين فى استكمال جلـب الميـاه وصناعة الأسقيات واستغلال العيون والآبار إلى مدينة مراكش والمـدن الأخـرى. وفى مدينة " قابس " احدى المدن التونسية فى المغرب الأوسط، ويذكر البكرى أن فيها الماء من عين خرارة(أى أنها تشكل شلالاً يصب الماء من أعلى الجبل)وفى مدينة "القصرين" فى المنطقة نفسها،عين ماء ثرثار تتشعب منـه أنهـار تسـقى زرعهم ونخلهم وثمارهم"[5].

---

[1] المسالك والممالك ص34.

[2] صورة الأرض ص 86.

[3] المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ص 66-67 .

[4] المسالك والممالك ج2ص663.

[5] المصدر نفسه ص666.

الفصل الثانى

الفتح الإسلامي لبلاد المغرب

1-محاولات الفتح الأولى

2-الفتوح الإسلامية في ليبيا"المغرب الأدنى"

3-الفتوح الإسلامية في تونس"المغرب الأدنى "

4-الفتوح الإسلامية في الجزائر "المغرب الأوسط والمغرب الأقصى"

الفصل الثانى

الفتح الإسلامي لبلاد المغرب

محاولات الفتح الأولى:

لم تدخل بلاد المغرب فى حوزة الدولة العربية الإسلامية، دفعة واحة بل مـرت بسلسلة من المعارك والحروب، استمرت حوالي السبعين عاماً متوالية بدأت مـن عام 21هـ/642 م وذلك في السرية الأولى التى قادها عقبة بن نافع الفهرى،الذى يُعد من أكابر التابعين وأفاضلهم ، بعد اشتراكه فى فتح بلاد مصر مع القائد العربى المعروف عمرو بن العاص، وانتهت بالحملة التى قادها موسى بن نصير واخضع فيها جميع المغرب الأقصى حتى المحيط الأطلسى عام 90هـ /708 م .

غير أن هناك بعض المعلمات تشير إلى أن المسلمين، بفتح المغرب عقب فـتح مصر بعامين، أى فى عام 22هـ /643 م ،حيث سار عمرو بـن العـاص غربـاً متوجهاً إلى برقة فدخلها وصالح أهلها على الجزية ، ثم دخل طرابلس الغرب بعد حصار دام شهراً ثم أوعز لقائده عقبة بن نافع لاستكمال الفتح إذ سار إليها علـى رأس حملة استطلاعية من برقة حتى لوبيا (ليبيا) وأفريقية فأفتتحهما [1] وبـذلك تكون ليبيا قد تم فتحها على يد القائدين العربى عمرو بن العاص وعقبة بن نـافع عام 22هـ/643 م. وفى خلافة عثمان بن عفان (رض) دخلت الجيوش الإسلامية فى قفار أفريقية وذلك عندما عبد الله بن أبى سرح ، عمرو بن العاص، حيث سار إلى أفريقية فى نحو عشرين الف مقاتل[2]، وسارت معه حامية بقيادة عقبـة بـن نافع، وكان عمرو بن العاص قد ولاه على تلك الأنحاء[3] .

ولعل من المفيد أن نستعرض من محاولات المسلمين فى فـتح بـلاد المغـرب وتخليصها من السيطرة البيزنطية، حيث كللت بالإنتصار، وانضواء هذه البلاد تحت

---

[1] ابن الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ص71 .

[2] ابن عذارى، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ج1 ص 8 .

[3] ابن الحكم ، المصدر السابق ص 187 .

لواء الدولة العربية الإسلامية. وقد بدأت هذه المحاولات منذ الربع الأول من القرن الأول الهجرى بانتشار جيوش عمرو بن العاص فى برقة ومشارف طرابلس الغرب، إذ تُعد الباب للدخول و التوغل فى بلاد المغرب، فقد استطاع عمرو بن العاص أن يكسب تأييد بعض القبائل المغربية إلى جانبه ويدخلها الاسلام فضلاً عن جهود عقبة بن نافع فى هذا الصدد حيث كسب هو الآخر عدداً من هذه القبائل التى لأصبح لها دور مهم فى إسناد الجيش الإسلامى، ولدينا تفصيلات مهمة أوردتها المصادر[1] عن وصول الجيوش الإسلامية إلى مناطق واسعة من ليبيا وتونس، غير أننا يجدر بنا أن نشير إلى الانتصار الحاسم على البيزنطيين عند مدينة "سبيطلة" عام 28 هـ/648 م ،حيث فتح جميع المناطق من برقة شرقاً حتى سبيطلة غرباً.

ولعل من المفيد أن نخلص إلى تفصيلات عن الفتوح الإسلامية فى البلاد الليبية حتى دواخل المغرب الأقصى:

---

[1] يمكن الرجوع إلى المصادر والمراجع الآتية للتوسع :

أ- ابن أبى الحكم، فتوح افريقية والأندلس ص 34 .

ب- البلاذرى، فتوح البلدان ص 224-226 .

ج- أبو عبيد البكرى، المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ص 123 .

د- ابن الأثير، الكامل فى التاريخ ج1 ص 8 .

هـ-ابن عذارى، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ج1 ص 10-12 .

و-ابن أبى دينار، المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس ج1 ص 122 .

ثم المراجع الثانوية:

1-د.حسين مؤنس ، فجر الأندلس .

2-د.السيد عبد العزيز سالم ،تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس .

3-محمد عبد الله عنان ، دولة الإسلام فى الأندلس .

4-نص جديد عن فتح العرب للمغرب نشره المستشرق ليفى بروفنسال فى مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد (المجلد الثانى -1954) .

1- الفتوح الإسلامية فى ليبيا " المغرب الأدنى "

انتشرت الجيوش الإسلامية فى ليبيا يقودها عمرو بن العاص فحين وصوله برقة صالح أهلها على الجزية ثم شرع يعد العدة لفتح مدينة طرابلس بغية التمهيد للدخول إلى أفريقية، وكان لزاما عليه أن يزحف إلى طرابلس من الساحل والداخل، ففيما يتعلق بدواخل البلاد بعث إليها قائده عقبة بن نافع حيث بلغ مدينة فزان ومنها وصل إلى مدينة زويلة ، وفى غضون أشهر قليلة أصبحت جميع المناطق التى تقع بين برقة وزويلة ،ضمن النفوذ الإسلامى وبذلك ضمن عمرو بن العاص إخضاع الواحات الداخلية التى كانت مصدر تهديد للإستحكامات العسكرية والمواقع الإسلامية فى المدن والمناطق المفتوحة وخصوصاً الساحلية منها. وكانت مدينة طرابلس أخذت من إهتمام عمرو بن العاص ففى عام 22 هـ حاصر أسوارها شهراً ولم يظفر بها ولكنه إرتد إلى المدن المجاورة لها وخصوصاً مدينة صبراته [1]وكان البيزنطيون قد احكموا سيطرتهم عليها ،مما جعله يعاود الكرة على طرابلس باتخاذه خطة تقوم على مباغتهم عن طريق الساحل مستغلاً إنحسار المياه عن سواحلها وبذلك حقق الإستيلاء على الجزء الشرقى منها . وخلال وقائع فتح طرابلس جرد عمرو بن العاص كتيبة من الفرسان لمعاودة الهجوم على مدينة صبراته مرة أخرى حيث تحصن أهلها داخل الأسوار بعد فرار الحامية البيزنطية التى كانت تدافع عن المدينة، عن طريق البحر فحاصرها المقاتلة المسلمون وما لبثوا إن دخلوا المدينة فى غفلة من أهلها الذين كانوا قد فتحوا أبوابها لتسرح بها ماشيتهم "فلم ينج منهم أحد واحتوى عمرو على ما فيها " [2]

ثم أعد عمرو بن العاص، كتيبة بقيادة " بشر بن أرطاة " لفتح مدينة ودان فأفتتحها سنة 23هـ وبذلك تم لعمرو بن العاص الإستيلاء على برقة والجزء الشرقى من طرابلس، وعندئذ بادر البيزنطيون إلى تحصين المدن وإقامة الحاميات

---

[1] ابن عبد الحكم، فتوح أفريقية والأندلس ص28 ،ويقول البكرى:أن إسمها " صبرة " وهى بلد معمور تسكنه قبيلة زواغة (المسالك والممالك ج2 ص 665) .

[2] ابن عبد الحكم،المصدر السابق ص 28 .

فيما يلى مدينة صبراته إلى الغرب خوفاً من الزحف الإسلامى وكتب عمرو بن العاص كتاباً إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه فتح أفريقيا باتجاه الغرب. وقد جاء فيه: " إن الله قد فتح علينا طرابلس وليس بينها وبين أفريقية إلا تسعة أيام " ولكن الخليفة رفض الإستمرار فى فتح أفريقية فاضطر عمرو بن العاص على العودة إلى مصر بعد أن ثبت قائده عقبة بن نافع على المناطق الداخلية المفتوحة فى البلاد الليبية. وقد استطاع هذا القائد أن يستقطب إليه بعض القبائل المغربية مثل قبيلة لواته وقبيلة نفوسة وقبيلة نفزاوة وهى أكبر القبائل حيث دخلت الإسلام وأصبح معظم رجالها ضمن المقاتلة فى الجيش الإسلامى.

وفى عام 49 هـ خرج عقبة بن نافع وبصحبته من القواد العرب: بشر بن أرطاة وشريك بن سحيم المرادى. فنزل بغدامس ثم تابع سيره إلى مدينة ودان فأعاد فتحها بعد أن ترك فرقة من جيشه بقيادة زهير بن قيس البلوى فى منطقة سرت. ومضى عقبة بن نافع إلى قصور فزان وافتتحها قصراً قصراً ثم افتتح قصور كوار واستولى على قصر جاوان ومن هناك انصرف إلى مدينة زويلة التى كانت تعد منطلقاً للفتوح الإسلامية فى الأراضى الليبية.

وبعد الإخفاقات التى منى بها المسلمون لتثبيت الفتوحات الإسلامية فى المغرب نتيجة المقاومة التى إنخرطت بها القبائل المغربية بمساعدة البيزنطيين الذين كانوا يسيطرون على المدن والمناطق، درج حسان بن نعمان الغسانى قائد الجيوش لإسلامية عام 81هـ على إقامة أكبر قاعدة عسكرية فى مدينة برقة استغرق تأسيسها أربع سنوات ،ثم بدأ يترقب وصول النجدات التى وعد بها الخليفة عبد الملك بن مروان لتعزيز هذه القاعدة ،وقد أشاد هناك قصوراً سميت قصور حسان . ولما وصلته الإمدادات وتوافد عليه فرسان العرب ورجالهم زحف بجيوشه لمقاتلة الكاهنة التى يقال لها " داهية بنت ماتية ابن تيغان " ملكة جبال أوراس التى رفعت لواء العصيان ضد المسلمين ،وقد بعثت الكاهنة بابنيها إلى حسان بن نعمان ليطلبا الأمان لنفسيهما فأمنهما، أما هى فقررت أن تحارب المسلمين ،وفى عام 82 هـ إلتقى حسان بن نعمان بجيوش الكاهنة عند منطقة البئر بالقرب من

جبال أوراس فهزمها هزيمة نكراء وسحق أتباعها وقتلهـا. وبـذلك اسـتطاع أن يستأصل جميع أوكار المقاومة ضد المسلمين فى بلاد المغرب الإسلامى عموماً .

2- الفتوح الإسلامية فى تونس " المغرب الأدنى "

بدأت طلائع الجيش الإسلامى تنتشر فى مناطق تونس سنة 28 هـ بقيادة عبد الله بن أبى سرح وذلك لفتح المناطق وصولاً الى طنجة. وفى طريق زحفها التقت مع جيوش البيزنطيين التى يقودها الحاكم البيزنطى " كريكوريوس " الذى تطلـق عليه المصادر العربية " جرجير " بالقرب من المدينة التونسية " سبيطلة " حيـث قُتل كريكوريوس وتفرق جيشه وتم الإستيلاء على حصن سبيطلة، ثـم تحركـت جيوش عبد الله بن أبى سرح نحو حصن الأجم فحاصرته ثم دخلته، ولم يلبث هذا القائد أن عاد إلى مصر مكتفياً بما حققه من فتح معظم البلاد التونسية .وخصوصاً الخط الممتد من سبيطلة إلى مدينة سوسة فى الشمال ثم من سبيطلة إلى مدينـة قفصة من الشرق والشريط الساحلى الضيق فيما بين قابس[1] وشط الجريـد مـن الجنوب. ويبدو إن هذه المناطق قد انتفضت على الحاميات الإسلامية أيام الخلافة الأموية،مما جعل معاوية بن حديج الكندى يقود جيشاً عدته عشرة آلف مقاتل وقد استصحب معه عددا من قواد العرب منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبـد الله بن الزبير بن العوام وعبد الملك بن مروان ويحيى بن الحكم بـن العـاص حيـث وصلوا بكتائبهم جنوبى قرطاجنة التى لا تبعد عن مدينة تونس إلا بضـعة كيلـو مترات، وهناك واجهوا البيزنطيين بالقرب من مدينة سوسة إذ دخلها المسـلمون بقيادة عبد الله بن الزبير بن العوام بعد الهزيمة التى ألحقوها بالبيزنطيين. كـذلك استطاعت فرقة أخرى من المسلمين بقيادة عبد الملك بن مروان الإستيلاء علـى مدينة جلولا .ثم اتجه معاوية بن حديج بأسطوله فى البحر المتوسط إلـى جزيـرة

---

[1] وهى مدينة جليلة مسورة بالصخر من بنيان الأول ذات حصن وارباض وأسـواق وفنـادق وجـامع وحمامات كثيرة وقد أحاط بها خندق كبير يجرون إليه الماء عند الحاجة(البكرى ج2ص666).

صقلية عام 46 هـ واقتحها ومضى فى فتوحاته فدخل مدينة بنزرت ثم عرج والمسلمون نحو جزيرة جربة[1] فدخلها .

وفى عام 49هـ تابع عقبة بن نافع فتوحاته فهاجم مدينة قفصة وسقطت بيده واتبعها بقسطيلية واختتم هجومه بموضع القيروان الذى كان أقامه معاوية بن حديج فلم ينل إعجابه وانتقل منه إلى موضع المدينة الكبرى التى عرفت فيما بعد بالقيروان جنوبى مدينة قرطاجنة. وكان عقبة بن نافع قد ابتنى مدينة القيروان سنة 50 هـ بعيدة عن الساحل استجابة للضرورات العسكرية لكى لا يدركها العدو البيزنطى على حين بغتة عن طريق البحر .

والمدينة أشبه بمعسكر حيث اختط عقبة بن نافع دار الإمارة وأقام الناس الدور والمساكن ثم اختط المسجد الأعظم وعمرت المدينة بمختلف أنواع الأبنية والمنشئات والعمائر وشد الناس إليها الرحال واتسعت بالأسواق والمرافق وأصبحت القيروان مركزاً وقاعدة توجه منها الحملات العسكرية الإسلامية على جبال أوراس المواجهة لها.وقد اجتذبت هذه المدينة عددا كبيراً من القبائل المغربية التى دخلت الإسلام. وفى عام 55هـ تولى قيادة الجيوش الإسلامية فى بلاد المغرب،أبو المهاجر دينار بعد أن عزل معاوية بن أبى سفيان، عقبة بن نافع وكان أبو المهاجر قد نزل فى موضع غير القيروان حيث اختار موضعاً يبعد بمقدار ميلين عن المدينة واختط بها مدينة أخرى وأمر بحرق القيروان، وبدأ بالزحف على المدن التونسية التى لم تُفتح بعد أو التى تمردت على المسلمين فتم له الإستيلاء على مدينة تلمسان ثم شن هجوماً كبيراً سنة 59هـ على مدينة قرطاجنة، ثم تركها بعد أن تخلى له البيزنطيون عن الجزء الواقع جنوبى قرطاجنة. وفى سنة 60 هـ استعاد عقبة بن نافع قيادة الجيوش الإسلامية فى المغرب فعاد إلى القيروان وهو أشد عزماً وقوة فى الفتح ثم أمر بتخريب المدينة التى أقامها أبو المهاجر دينار وأعاد الناس إلى القيروان وترك بها جنداً من

---

[1] وتسمى جزيرة قرقنه فيها آثار بنيان ومراجل للماء وارباض وارضها خصبة (البكرى المصدر نفسه ص 669).

المسلمين استخلف عليهم قائده زهير بن قيس البلوى وأعاد فتح قرطاجنة ثم حاصر المنستير وهى أعظم مدن أفريقية واستولى عليها. وفى خلافة عبد الملك بن مروان سار زهير بن قيس البلوى بجيوشه فى حملة لاسترجاع القيروان بعد أن احتلها البيزنطيون وكذلك لمواجهة كسيلة بن لمزم الذى كان يقود المقاومة ضد المسلمين فى الساحل التونسى والمتحصن فى مدينة قرطاجنة، ولكن، لما بلغ كسيلة، قدوم زهير بن قيس إليه، رحل عن القيروان بجيشه إلى موضع يعرف "ساقية ممس" يقع بين القيروان وتبسا وذلك لحصانته ومناعة موقعه، إذ تقع ساقية ممس هذه على مرتفع من هضبة تتصل بجبال أوراس أما القوات الإسلامية، فقد تمركزت مشارف القيروان ثم بدأت بالزحف نحو العدو وذلك بعد أن عقد القائد زهير بن قيس هدنة مع البيزنطيين الذين اشتركوا معه لكى يعزل كسيلة بن لمزم ويتفرغ لقتاله، وعلى وادى ممس دارت رحى معركة فاصلة أحرز الجيش الإسلامى فيها انتصاراً ساحقاً وقُتل كسيلة ومضى المسلمون يتعقبون فلول جيشه فقتلوا منهم عدداً كبيراً وطاردوا ما بقى منهم حتى نهر وادى ملوية ثم عاد زهير بن قيس إلى القيروان ونظم إدارتها ثم عاد إلى برقة وفى طريقه وبالقرب من طبرق نصب البيزنطيون كميناً له ودارت بين الطرفين معركة غير متكافئة استشهد وفيها زهير ،كما قتل عدد من المسلمين .

وبغياب زهير بن قيس توقفت الفتوحات الإسلامية فى المغرب لمدة أربع سنوات ولكن الخليفة عبد الملك بن مروان، أمر بإعداد جيش كبير مسلح بكل أنواع الأسلحة والمعدات وجعل على رأسه قائداً قديراً هو حسان بن النعمان الغسانى؛ وقد اتبع هذا القائد سياسة تقوم على استمالة القبائل المغربية فانضم إليه عدد كبير من هؤلاء، فزحف إلى القيروان التى كان البيزنطيون قد احتلوها بعد مقتل زهير بن قيس، ثم أعد عدته لمقاتلة ما سمى بملك قرطاجنة البيزنطى فوضع خطة تقوم على الدخول إلى هذه المدينة التى لم تلبث فى كل مرة يدخلها المسلمون يعاود عليا البيزنطيون ويستردونها، ونجحت خطته فقد دخلها، وهربت فلول الجيش البيزنطى إلى مدينة صطفورة وبنزرت فلحقت بهم القوات الإسلامية وهزمتهم. ثم أصبح حسان بن النعمان أمام مشكلة جديدة وهى اجتماع بعض

القبائل المغربية المعادية للمسلمين والتى كانت منضوية تحت إمرة الكاهنة التـــى سبق أن أطيح بها فى مناطق جبال أوراس وقُتلت،وقد أسرت جيوش هذه القبائـــل عدداً كبيرا من المقاتلة المسلمين

،فتراجع الجيش الإسلامى إلى برقة،ولم تكتف بذلك بل عمدت القضاء على جميـــع مظاهر العمران في منطقة تونس لكي تمحى كل أثر من آثار الفتوحات الاسلامية ، وانتهز البيزنطيون هذه الفرصة فأغاروا على الحامية الإســـلامية فـــى قرطاجنـــة وقتلوا عددا من رجالها وسلبوا وغنموا، بيد أن الإمدادات التى كـــان وعـــد بهـــا الخليفة عبد الملك بن مروان وصلت إلى حسان بن النعمان فسخرها فى الإستمرار فى الفتوحات فى تونس، فاتجه لتطهير قرطاجنة من الحاميـــة البيزنطيـــة التـــى اضطرت على الفرار بحرا، فاسترد المسلمون المدينة. ولكـــن المســـلمين كـــانوا يخشون أن يفاجئهم البيزنطيون من البحر فرأى أن يؤسس مدينة أخـــرى تجـــاه قرطاجنة فى موقع البحر تشرف على قرطاجنة، فبنى تونس على بعد كيلو مترات شرقى قرطاجنة.

وكانت تونس قبل ذلك مدينة قديمة يطلق عليها " تنيس " ولم تكن عند بنائها إلا قرية صغيرة[1]فحولها حسان بن النعمان إلى قاعدة بحرية تقلع منها الأساطيل، وأنشأ بها دارا لصناعة السفن حيث عول على الصـــناع الأقبـــاط فـــى صـــناعة المراكب، ثم شيد بها مسجدا جامعا ودارا للإمارة وثكنات وحاميات للجند. وقد قدر لهذه المدينة الصغيرة فى بدايتها أن تكون أعظم ثغور أفريقية بعد مـــرور ثلاثـــة عقود من الزمن على يد والي أفريقيا عبيد الله بن الحبحاب، حيث نمت واتســـعت وأقبل الناس إليها من جميع الآفاق وأقيم فيها أعظم جامع بالمغرب الأدنى وهـــو جامع الزيتونة ثم بدأ حسان بن النعمان يوجه عنايته لتنظيم البلاد مـــن الناحيـــة الادارية فدون الدواوين ونظم الخراج وعمل على نشر الإسلام واللغـــة العربيـــة. وهكذا يمكن القول، إن حسان بن النعمان، فتح بلاد المغـــرب عســـكريا وثقافيـــا واجتماعيا فى آن واحد.

---

[1] ذكر البكرى، أن تونس كانت تسمى قد يما "ترشيش"ويقال لبحرها بحر "رادس" ويسمى مرسى "رادس" (المغرب فى ذكربلاد أفريقيا والمغرب ص37).

الفتح الإسلامي في المغرب الأوسط والأقصى:

انطلق عقبة بن نافع بجيوشه مكتسحاً شمال أفريقية كله ووهو يطارد البيزنطيين ويدمر معاقلهم حتى دخل المغرب الأقصى سنة 62هـ حيث اترب من مدينة طنجة واستمر مندفعاً بقواته حتى مدينة وليلة أو "وليلى" كما دأب على مطاردة القبائل المغربية التى ساندت البيزنطيين حتى مدينة درعة ثم واصل هجومه الكبير حتى وطئت قدماه ارض السوس الأقصى وانتهى به المطاف إلى مدينة " إيغيران يطوف " التى تقع على ساحل المحيط الأطلسى، وكان قد افتتح فى طريقه مدن أغمات وريكة ووادى نفيس وإيجلى القريبة من مدينة دركالة ثم انتشرت جيوشه فى مدينة ماسه الواقعة أيضاً على المحيط الأطلسى، غير إنه عاد إلى القيروان مارا بإيغيران يطوف وتارنا ومنها إلى رباط شاكر فدخل إقليم دركالة حتى بلغ طنجة ومنها إتجه نحو المغرب الأوسط فلما بلغ مدينة طبنة أمر بتفريق جيشه والمسير فى طرق أخرى وسار هو فى منطقة جبال أوراس ولكنه ما كاد يقترب منها حتى اعترضه كسيلة بن لمزم مع قبيلة أوربو البرانسية بجموع جيشه الذى يقدره المؤرخون بخمسين ألفاً وقطع على عقبة بن نافع خط الرجعة ثم دارت معركة عند مدينة تهودة سنة 63هـ واستشهد فيها عقبة بن نافع وأبو المهاجر دينار واستشهد معهما عدد كبير من المسلمين وأسر الباقون ولكن صاحب قفصة افتداهم وبعث بهم إلى زهير بن قيس البلوى الذى عاد هو الآخر إلى قصره فى مدينة برقة وأقام فيها حتى أيام عبد الملك بن مروان واستولى كسيلة على مدينة القيروان سنة64هـ وأسفر ذلك عن خروج أفريقية من أيدى المسلمين وضاعت بذلك جهود أربعين عاما قضاها المسلمون فىالجهاد والفتوح، غبأير أن المسلمين لم يفقدوا كل شئ، اذ تركوا كثير من القبائل المغربية كانت قد تحولت إلى الإسلام فوقفوا ضد كسيلة بن لمزم.

ولما تولى موسى بن نصير المغرب خرج فاتحاً من أفريقية إلى طنجة فتتبع بعض القبائل التى لا تزال معادية للفاتحين المسلمين ومنها قبائل هوارة وزناتة وكتامة. وفى عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك عظمت منزلة موسى بن نصير لدى

الخليفة. فأول عمل عسكرى له هو الدخول في مدينة طنجة إذ فتحها وترك فيهـا حامية كبرى على رأسها القائد طارق بن زياد، ثم واصل فتوحاته فاجتـاز نهـر درعة وأرسل حملة تأديبية إلى مدينة سجوما التى خرجت على المسلمين وكـان إلى رأس هذه الحملة أولاد عقبة بن نافع وهم عياض وعثمان أبوعبدة ، وهكـذا استكمل موسى بن نصير فتح الجزائر وبلاد المغرب الأقصى ولم تسـتعص عليـه سوى مدينة سبتة لمناعتها ووصول الإمدادات إليها من أسبانيا القوطية عن طريق البحر وكان يحكمها من قبل القوط فى أسبانيا حاكم إسمه خوليان **Julian** ويسميه العرب يوليان وقد اختلفت المصادر فى شخصيته فبعضها يذكر أنه قوطى والآخـر يزعم أنه بيزنطى وربما كان حاكما على إقلـيم موريطانيـا الطنجيـة الخاضـعة للإمبراطورية البيزنطية فلما عجز البيزنطيون عن حمايته طلـب الإنضـمام إلـى اسبانيا القوطية .

وأغلب الظن، أن انصراف موسى بن نصير عن فتح سبتة وكان بمستطاعه ذلـك بسبب ما أستجد من أفكار لهذا القائد الإسلامى فى فتح بلاد الإندلس ووضع الخطط والإعداد لها بالإستعانة بيوليان ورجاله ومعداته.

الفصل الثالث

عصر الولاة

1-ولاة المغرب فى العصر الأموى

أ-موسى بن نصير

ب- محمد بن يزيد

ج- اسماعيل بن عبدالله بن أبى دينار

د-يزيد بن أبى مسلم

هـ- بشر بن أبى صفوان

و- عبيدة بن عبدالرحمن السلمى

ز- عبيد الله بن الحبحاب

ر-عقبة بن قدامة

ح- كلثوم بن عياض القشيرى

خ-حنظلة بن صفوان

2- سياسة الإنفصال فى المغرب الإسلامى

الفصل الثالث

عصر الولاة

وبعد أن توطد الفتح العربي الإسلامي ورسخ الإسلام في بلاد المغرب وتبددت آمال المقاومة على يد القائد العربي موسى بن نصير وانتهى آخر صوت لها، أصبحت هذه البلاد في عداد الدولة العربية الإسلامية وتولاها عدد من الولاة منذ أن فُصلت عن ولاية مصر وجعلها ولاية تابعة للخلافة العباسية بصورة مباشرة.

ولاة المغرب ابتداءاً من موسى بن نصير:

1-موسى بن نصير:

وبعد أن عُزل حسان بن النعمان من قيادة الجيوش الإسلامية في بلاد المغرب تولى موسى بن نصير على أفريقية بأمر من عبد العزيز بن مروان والي مصر ولاشك في أن موسى بن نصير هو من أقدر رجال الدولة الأموية وأكثرهم كفاءة وأخلصهم لها. وكان الخليفة عبد الملك بن مروان قد عينه عاملاً على العراق ثم ولاه على أفريقية فافتتح ولايته بفتح قلعة زغوان وهي من المواقع التي استعصت على الفاتحين الأوائل. ويصح القول إن فتح بلاد المغرب الإسلامي قد تم أغلبه على يد هذا القائد ولم يبق منه سوى المغرب الأقصى لذلك وضع خطة تقوم على تتبع القبائل التي لاتزال تقف ضد الإسلام وخرج على رأس جيش مؤلف من وجوه العرب فأخضع قبائل هوارة وزناتة وكتامة . ولما توفي الخليفة عبدالملك بن مروان سنة 86هـ وولي الخلافة بعده ولده الوليد عظمت منزلة موسى بن نصير لديه واشتد عجبه به مما أتاح لهذا الأخير المضي في تنفيذ خطته لاستكمال فتح المغرب الأقصى حتى بلغ مدينة طنجة حيث ترك فيها حامية كبرى على رأسها قائده طارق بن زياد، وكان عدد جند هذه الحامية يتجاوز تسع وعشرين ألفا أغلبهم من القبائل المغربية التي أسلمت وحسن إسلامها. ولأول مرة في تاريخ المغرب يجتاز موسى بن نصير بجيشه نهر درعة ويقوم بإرسال حملة تأديبية إلى مدينة سجوما التي تسكنها بعض القبائل المغربية التي اشتركت في المعركة ضد عقبة بن نافع التي أدت إلى مقتله. وكان قادة هذه الحملة أبناء عقبة بن نافع (عياض وعثمان وأبو عبدة) فانتقموا لأبيهم من قتلته شر إنتقام، وهكذا نجح موسى بن نصير في إخضاع بلاد المغرب للإسلام ولم تستعص عليه سوى مدينة

سبتة لمناعتها ووصول الإمدادات إليها من إسبانيا القوطية عن طريق البحر. ولكن بعد أن تطلع موسى بن نصير إلى فتح الأندلس تم إحتواء حاكم سبتة "خوليان" ويسميه العرب يوليان فتكون سبتة حينئذ قد أصبحت ضمن المغرب الإسلامى.

2- محمد بن يزيد

تولى الخليفة الأموى سليمان بن عبدالملك الخلافة بعد وفاة أخيه الوليد فاستشار بعض رجال حاشيته فيمن يصلح لحكم ولاية المغرب وذلك بعد عزله لعبد الله بن موسى بن نصير الذى ولاه أبوه، فقيل له: "محمد بن يزيد" مولى قريش، فاستدعاه إليه وعهد له بالولاية قائلا: "قد وليتك أفريقية والمغرب كله".

وبعد أن استقر محمد بن يزيد بأفريقية قام بالإصلاحات الآتية:

أ- عُرف بسيرته الحسنة فى ولايته حيث ساد السلم و الأمن جميع أنحاء المغرب فنعم السكان خلال حكمه بالإطمئنان والعدل.

ب-كما أتاحت له الظروف إستكمال فتح المناطق الداخلية فى المغرب الأقصى وإرسال البعوث والسرايا إلى الثغور البعيدة والجزر المجاورة لنشر الإسلام أو تثبيته في النفوس، ومن بين من أرسلتهم الخلافة بعض التابعين ومنهم عبد الرحمن بن يزيد المعافرى وسعيد بن مسعود التجيبى واسماعيل بن عبدالله الأنصارى وعبدالرحمن رافع التنوخى [1].

ج- إن السياسة التى ساد عليها محمد بن يزيد، كان لها أكبر الأثر فى نفوس سكان المغرب والجند، فقد استجابوا لإجراءاته الإدارية والسياسية والمالية والعسكرية.

3- اسماعيل بن عبدالله بن أبى دينار:

ولاه الخليفة عمر بن عبدالعزيز سنة 100هـ، ويؤكد المؤرخون علو منزلة هذا الوالى وعدوه أحسن ولاة بنى أمية فى المغرب، فقد ورث جده القائد الإسلامى بن أبى دينار صفات الحزم والشجاعة والحكمة وحسن التدبير، إلى جانب ورعه وتقواه، ونقرأ من اصلاحاته:

---

[1] ابن عذارى، البيان المغرب ج1 ص44، المالكى، رياض النفوس ص64-76.

أ- نشر الإسلام والثقافة العربية بين سكان المغرب حتى إن المؤرخين أجمعوا على أن سكان المغرب وأفريقية أسلموا جميعهم فى أيامه.

ب- استمراره فى سياسة التعريب التى كان ساروا عليها، وقد سارت هذه العملية جنباً إلى جنب مع انتشار الإسلام لذلك امتاز الفتح العربى للمغرب بانه فتح ثقافى، إذ حمل الفاتحون معهم اللغة والدين ممثلين فى القرآن الكريم الذى هو قوام دين ودستور سياسة وبحر أخلاق و قاموس لغة و ديوان ثقافة ، وقد رسخ هذا الإتجاه فى عهد هذا الوالى .

ج- بناء المساجد والجوامع ودور العلم فى مختلف أنحاء المغرب ومنها مسجد تلمسان و أغمات هيلانة و المسجد الرباطى و جامع الزيتونة. وكانت هذه المساجد بمثابة المدارس والمنشآت العلمية والجامعات لنشر العلم والثقافة اللغة العربية إلى جانب الطب وعلم الفلك والعلوم الدينية والشرعية.

4- يزيد بن أبى مسلم:

ولى سنة 102هـ بعد وفاة الخليفة عمر بن عبدالعزيز، وقد عزم على تطبيق سياسة مغايرة لسياسة سلفه الوالى اسماعيل بن عبدالله بن أبى دينار ولكن لم يلبث هذا الوالى إن قُتل بعد شهر واحد من ولايته.

1-محمد بن يزيد (الولاية الثانية):

لم تستمر ولايته سوى عدة أشهر.

2-بشر بن صفوان الكلبى

ولاه الخليفة الأموى يزيد بن عبدالملك، حيث قدم من مصر إلى القيروان واصطنع مع السكان سياسة تقوم على العدل والمساواة وحسن المعاملة، وقد نجح فى تمهيد بلاد المغرب وتسكين أرجائه من الفوضى والإضطرابات بحسن سيرته ولينه فساد فى عهده السلم والهدوء.

3-عبيدة بن عبدالرحمن السلمى:

قام فى ولاية المغرب فى سنة 110هـ ولم يستجب للسياسة التى كان الولاة الآمويون يسيرون عليها فى معاملة السكان بالتعسف والإضطهاد.

4-عبيد الله بن الحبحاب:

أخفق فى سياسته تجاه المغرب وأفريقية، حيث أساء معاملة السكان ونشر الأضطهاد والظلم والتعسف مما أثار حفيظتهم وسخطهم فتسبب فى الإنقسامات

والفوضى المر الذى جعل الخليفة هشام بن عبدالملك يعزله. غير أن المؤرخين يقررون إنه أثبت مهارة كبيرة فى ادارة شئون مصر وهو والياً عليها .

5- عقبة بن قدامة:

تولى سنة 114هـ فجرد حملة عسكرية بحرية لفتح جزيرة صقلية ولكنها أخفقت ولم تمض على ولايته سوى عدة أشهر.

6-كلثوم بن عياض القشيرى:

وصل إلى أفريقية سنة 123هـ فأفتتح ولايته بارسال جيش للقضاء على المنتفعين والخارجين على سلطة الخلافة الأموية وتوجيه بعض الكتائب إلى المدن والمراكز لتعزيز السلطة المركزية فيها ومن هذه المدن القيروان وتلمسان وطنجة وقابس، وكان من نتيجة ذلك أن حصلت بعض الاشتباكات فقتل على أثرها سنة 124هـ.

حنظلة بن صفوان:

وكان عاملا من عمال الخلافة الأموية فى مصر. وقد درج هذا الوالى على سياسة سلفه كلثوم بن عياض فى التصدى للإضطرابات والثورات التى قامت فى بعض مناطق المغرب وأفريقية إذ استطاع ان يخمدها حتى وصلت أخبار انتصاراته على أعداء الخلافة إلى الخليفة هشام بن عبدالملك وهو على فراش الموت سنة125هـ وبعد وفاته عُزل عن الولاية.

والمعروف أن هذا الوالى وضع حدا للإنقسامات والفوضى وبذل ما بوسعه للمحافظة على وحدة الدولة العربية الإسلامية. غير أن تولى عدد من الولاة من بعده وصفهم المؤرخون بأنهم ضعاف لم يرتفعوا إلى المستوى إلى مستوى الأحداث التى وصلت إليها الخلافة الأموية فى بلاد الشام، وفى الوقت الذى كان الأمويون يواصلون فيه سياسة التصفية ضد خصومهم فى المشرق الإسلامى مما جعل الخلافة الأموية تترك بلاد المغرب وأفريقية لمصيرها فانقطعت العلاقة بين دمشق وهذه البلاد التى كانت تشكل إقليما مهما من الناحيتين السياسية والاقتصادية بين أقاليم الخلافة مما أفضى فى نهاية المطاف إلى إنتقال أمر المغرب إلى الخلافة العباسية فى العراق والتى قامت على أنقاض الخلافة الأموية، فوضع العباسيون سياسة جديدة تجاه المغرب و أفريقية تقوم على أسس وقواعد مختلفة عما كان فى عهد الأمويين.

سياسة الإنفصال في المغرب الاسلامي

ليس من شك في ان مصير المغرب الاسلامي قد تحدد بالتحولات السياسية التي تشكلت في المشرق الإسلامي بعد قيام الخلافة العباسية ومركزها في العراق اذ بدأت تعصف رياح التغيير بظهور الحركات الانفصالية ذات الطبيعة المتذبذبة بين التأييد والاستنكار للخلافة من بعض الأقوام والقبائل الذين دخلوا الإسلام وصاروا في عداد رعايا الدولة العربية الإسلامية مثل القبائل الغربية والأفارقة وربما كان هؤلاء يشعرون بخيبة الأمل بسبب خضوعهم للسلطة المركزية ولأنظمتها وقوانينها ورسومها وهي خارج حدود بلادهم مما اعتبروه تجاوزا واجحافا لحقوقهم فأوجد لهم متنفسا في الانجرار لهذه الحركات الانفصالية تحت ستار الإسلام فضلا عن امتداد الإسلام في رقعة شاسعة ومترامية تقع بين الصين والمحيط الأطلسي ودخول الأقاليم ذات الطبيعة المتباينة من حيث البيئة والموقع الجغرافي في حوزته جعل هذه الأقاليم ومنها المغرب الإسلامي تدين للسلطة المركزية ردحا من الزمن لن تلبس بعدها أن تعود وتنتظم في حركات مستقلة وانفصالية نتيجة للتصور الإداري والسياسي والعسكري للدولة العربية الإسلامية وعدم سيطرتها وبسط نفوذها وبسبب تنائي هذه البلدان عن مركز الحكم ولا ريب في أن ظهور المغرب الإسلامي بشكله المنفصل قد تمثل بصورة واضحة بقيام إمارتي الخوارج الأباضية والصفرية في المغربين الأوسط والأقصى وكذلك في إمارة الأدارسة في المغرب الأقصى حيث شغلت هذه الإمارات الامتداد السياسي من البحر المتوسط شمالا حتى أواسط أفريقيا الوسطى جنوبا ومن (تونس) شرقا حتى المحيط الأطلسي غربا مضافا إليها مناطق المغرب الأدنى وبعض المغرب الأوسط الشرقية التي امتد فيها نفوذ إمارة الأغالبة الموالية للخلافة العباسية وكانت السياسة التي اختطها المغرب الإسلامي في بداية القرن الثاني الهجري هي سياسة إقليمية انفصالية تمثل في واقعها المصالح الإقليمية للأقوام التي كانت منضوية تحت لواء الخلافة الأموية

والظاهر أن هذه الأقوام قد حققت أهدافها الاستراتيجية بظهور كياناتها السياسية المتمثلة بالإمارات والدويلات التي تبنت سياسة تخالف تماما سياسة إمارات المشرق الإسلامي التي ظلت موالية للخلافة العباسية أن قيام الإمارات المستقلة في المغرب الإسلامي هو صورة جديدة للأوضاع السياسية وقد أوهنت كثيرا في نفوذ الخلافة العباسية وقلصت من مواردها البشرية والمدية إلي حدود قصوى مما أضعفها ومهد إلي أحداث رهيبة ومفجعة للعالم الإسلامي بأسره وذلك بعد مضي ما يقرب مكن ثلاثة قرون من قيام هذه الإمارات حيث تدفقت علي العالم الإسلامي سيول الصليبيين لتعبث في المشرق الإسلامي وخصوصا في بلاد الشام وفلسطين ثم الارتياح المغولي لحواضره ومدنه وبث الرعب والهلع من المسلمين مما أدي في النهاية إلي إسقاط الخلافة العباسية وتدمير بغداد قلب العالم الإسلامي ومحور تمدنه وحضارته ولكن علي الرغم من ذلك وانشغال هذه الإمارات في الصراع السياسي والعسكري فيما بينهم فقد كانت لها جهود مثمرة في نشر الإسلام وتقديم ما هو جديد للحضارة العربي الإسلامية وخصوصا الأغالبة والأدارسة والرستميين الذين ساهموا في ترسيخ بعض المفاهيم الحضارية وكذلك الفاطميين والمرابطين والموحدين وورثتهم من بني مرين وبني عبد الواد وبني حفص حيث يمكن أن نأكد دورهم في تعزيز مكانة الحضارة العربية الإسلامية في المغرب والأندلس.

وهكذا توزع ولاء العناصر التي كان يتكون منها سكان المغرب وخصوصا القبائل المغربية والاندلسيين والأفارقة بين الخوارج [1] والعلويين [2]

---

[1] للاستزادة عن الخوارج انظر المبرد – أخبار الخوارج(للكتاب الكامل في اللغة والأدب والنحو والتصريف) يوليوس في الهاوزن – الخوارج والشيعة عمر أبو النصر – الخوارج في الإسلام د/ سهير القلماوي– ادب الخوارج في العصر الاموي د/ محمود اسماعيل الخوارج في المغرب الإسلامي د/ نايف محمود– الخوارج في العصر الاموي.

[2] الطبري وتاريخ الرسل والملوك– الاسفهاني– مقاتل الطالبيين– بن الاثير– الكامل في التاريخ– د/ فاروق عمر فوزي– العباسيون الأوائل، طبيعة الدعوة العباسية، د.حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية.

وموالي بني أمية [1] الذين تلقاهم المغرب عن المشرق فظهرت اتجاهاتهم وتبلورت علي شكل حركات ثلاث الأولي حركة العلويين وأنصارهم قد بنت هذه الحركة ادعائتها بحقها الشرعي في الخلافة لانهم أئمة ورثو علم النبوة وتحملوا عبئ الدعوة لإسقاط الحكم الأموي[2] وقد جعلوا من المغرب ميدان لمقاومة السلطة المركزية والانفصال عنها.

أما الحركة الثانية فهي حركة الخوارج الذين تبنوا المبادئ الحرة التي كانت تنزع إليها القبائل العربية حيث كان اغلب الخوارج من العرب ولعل البوادر الأولي لأفكار الخوارج ظهرت في منطقة الجزيرة الفراطية بين دجلا والفراط شمال العراق وجنوب بلاد الشام اذ كانت مضارب للقبائل العربية النازحة من الجزيرة العربية وكان الخوارج يفضلون الالتجاء إلي مناطق التي تتفق روح أهلها مع مبادئ الحرية لأنها الأساس الذي يقوم عليه مبدأ الخوارج في تبرير الانفصال عن الخلافة ومقاومتها حيث يا كدون أن الإمامة(الخلافة) هي حق متاح لكل مسلم والظاهر أن ذلك يتفق مع نزعة القبائل المغربية الذين حرموا من المساواة.

ونتيجة للإتصال الذي حصل بين الخوارج وبعض القائل المغربية في المغرب بدأت تظهر روحية جديدة لهذه القبائل تغلب عليها النزعة الانفصالية عن الدولة الأموية وتعبر عن نفسها بالتمردات والحركات والثورات ضد عمال الدولة وولاتها هناك وقد استمر الحال حتى خلال العهد العباسي حيث عامل بعض الولاة السكان معاملة دفعت البعض منهم إلي تقبل الآراء الانفصالية ولهذا فما دامت حركات القبائل هذه قد اكتسبت الطابع الانفصالي فهي تلتقي مع أفكار الخوارج في وقوفها ضد الأمويين وولاتهم لأن هذه الأفكار تتسم بالوضوح وعدم الميل إلي الفلسفة

---

[1] وهم الأمويون ومناصروهم الذين أموا المغرب اختيارا أو قسرا هروبا من السبطش العباسي وملاحقاتهم.

[2] من الحركات العلوية في العصر العباسي الأول حركة المدنية سنة 144هـ التي قادها محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الملقب بالنفس الذكية وهي من اشهر حركاتهم ولكن الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور قمعها كما اخمد ثورة إبراهيم أخي محمد النفس الذكية في العراق سنة 145هـ(الاصفهاني-مقاتل الطالبيين-الطبري تاريخ الرسل والملوك-بن الاسير-الكامل في التاريخ)

والتأويل[1] وهي تتلاءم مع عقليتهم وطبيعتهم التي أشار إليها صاعد الاندلسي بتمسكهم بالشريعة وأخذهم بأحكام الملة ونصرهم للدين[2] وقد أكد السلاوى أن مبادئ الخوارج تتلاءم مع الطباع الفطرية لبعض القبائل في المغرب وتتمشى مع أهدافهم السياسية و تخدم شعورهم. فقال: " وحسن موقعها- أي مبادئ الخوارج- لديهم بسبب ماكانوا يعانون من وطأت الخلافة القرشية وجور بعض عمالها فلقنهم أهل البدع- أي الخوارج - أن الخلافة لا يشترط فيها القرشية ودسوا إليهم مع بعض تشديدات الخوارج وتعمقاتهم واروهم ما هم عليه إنما هو من اثار الخشية لله والخوف منهم وان ذلك هو عين التقوى المأمور بها شرعا "[3].

ويتبين لنا، أن القيروان كانت مركزا لدعاة الخوارج حيث كانوا يتصلون بالمغاربة فانتشرت آراء الأباضيين[4] والصفريين[5] بينهم فضلاً عن جماعات الأفارقة وجماعات السودان القاطنين جنوبى الصحراء ولم تمضي إلا فترة قصيرة حتى تغلغل الخوارج في سائر أرجاء المغرب الأقصى وبعض نواحي أفريقيا

---

[1] فخر الدين الرازي اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص 40

[2] طبقات الأمم ص 12.

[3] الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ج 1 ص 123 (أن قول الخوارج بالاستعراض ورفض التقية والامر بالمعروف والنهي عن المنكريقابلها لدي قبائل اغلمغرب شدة الميراس وقوة الباس والميل للتطرف) الاسفرائيني التبصر في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرة الهالكين ص 142.

[4] الاباضية فرقة من فرق الخوارج تنسب الى عبد الله بن أباض المري التميمي وكانت لهم في مدينة البصرة في العراق مقرات سرية يجتمع فيها دعاتهم وانصارهم لدراسة المذهب وقد اصبحت لفهم التنظيمات دقيقة مبنية على اسس مدروسة ويعد جابر بن زيد الازدي العماني المؤسس الحقيقي لهذه الفرقة وكان من اعظم علماء عصره بالشريعة والفقة الإسلامي وكان خليفته أبو عبيده مسلم بن أبي كريمة ادرك صعوبة نجاح الاباضية في المشرق فرأي ان ينطلق الدعاة إلى بلاد المغرب انظر للاستزادة: د. سوادي عبد محمد - اباضية البصرة وتأثيراتها الفكرية والسياسية في اباضية المغرب في القرن الثاني الهجري بحثه في مجلة كلية التربية العدد8 - 1982.

[5] تنسب إلي عبد الله بن صفار مؤسسها وان أول من جاء يطلب مذهب الصفرية بقيروان افريقية عكرمة مولي بن عباس حيث قدم من العراق ومعه سلمة بن سعيد يدعو إلي الاباضية (أبو زكريا- السيرة الورقة 12 وإخبار الائمة).

والمغرب الأدنى وقد أكد ذلك بن خلدون بقوله: " أن الصفرية قد فشت مقالاتها في سائر القبائل بإفريقية " [1].

كما ظفرت بلاد المغرب باهتمام الاباضين حيث أصبحت ميدانا لتحركات الخوارج فمنذ أوائل القرن الثاني الهجري اجتهد الاباضيون لنشر أرائهم بين المغاربة فاكتسبوا كثيرا من الأنصار و المؤمنين في إقليم طرابلس و جبل نفوسة حتى أصبحت منطقة هذا الجبل (دار هجرة) للأباضين في المغرب عامة [2] و لعل رسوخ المبدأ الإباضي في جبل نفوسة مهد الطريق لانتشاره بين قبائل، هوارة و لماية و زناتة و سدراتة و زواغة و نواتة و بين كثير من القبائل المغربيين الأدنى والأوسط و هكذا أصبحت بلاد المغرب في أقل من ربع قرن، معقلا لنشاط الخوارج وبدأو أحقبة جديدة في تاريخ هذه البلاد حيث عملوا على انفصالها عن الدولة العباسية و بذلك استطاع الأباضيون و الصفريون إقامة إمارتين قدر لهما أن تلعب دورا مهما في تاريخ العالم الأسلامي.

غير أن حركات الخوارج كانت تعاني من السلبيات المتمثلة بعدم التعاون بين الأباضيين و الصفريين في المجالات السياسية و الدينية فضلاً عن الخلافات فيما بينها وبخاصة فيما يتعلق بالموقف من الخلافة العباسية كما عانت تنظيماتهم وحركات من الانشقاقات بسبب سوء فهمهم لمبادئ بعضهم البعض الأخر و إسرافهم في تطبيق تعاليمهم وعدم وجود أي تنسيق بين حركاتهم في المغرب مع ما يشابهها في المغرب مع يشابهها في المشرق الاسلامي من حركات وثورات أما الحركة الثالثة التي كان من المقدر أن يشهدها المغرب الاسلامي فتتمثل ببعض الجماعات من أمويي الشام الذين نجحوا من مطاردة العباسين مع موالهم و فلولهم إذا التجؤا إلي هذه البلاد ملتمسين إعادة مجد دولتهم في هذا الطرف البعيد عن مركز الدولة العربية العبلسية بكونهم يمتلكون سابقة في الحكم و لهم تراث فني

---

[1] العبر وديوان المبتدا والخبر ج4 ص189.

[2] ابن حوقل صورة الأرض ص 68.

يستندون إليه في قواعد الحكم غير أنهم لم يلبثوا أن اتجهوا بأنظارهم نحو الأندلس بسبب ظروف المغرب غير المواتية لهم في استقطاب القبائل المغربية التي لاقت الأمرين من المؤيدين والأنصار و كان عبد الرحمن بن معاوية الداخل يتزعم هذه الحركة فكان ينتقل في ربوع المغرب مستترا بواسطة قبيلة نفزة الذين هم أخواله[1] لعلة يجد له موطأ قدم و ذلك قبل أن يمهد لنفسه و لأتباعه للعبور إلي الأندلس.

ولا شك في أن عبد الرحمن بن معاوية وأنصاره من الأمويين ومواليهم لم يقتنعوا بدورهم في افريقية ولم يجنوا منها ربحاً، حيث صدموا بواقعها الذي لا يخدم طموحهم و لا يحقق أهدافهم في إقامة دولة الأمويين هناك فكان المغرب بقبائله و فصائل ينظرون إلي الأمويين، نظرة شك فلم يلقوا منهم التأييد حيث كان بعض ولاة الأمويين قد عاملوا السكان معاملة فيها كثير من الازدراء والاضطهاد و زعموا أن قبائل المغرب تمثل فيئاً للمسلمين.

---

[1] علي الرغم مما كان يربط بين قبيلة نفزة و الأمويين من أواخر النسب و القربى فقد كانت أم عبد الرحمن و اسمها راح أو ردان من سبي هذه القبيلة ولكن لم تنفع محاولات أخواله في إقناع أهل المغرب بإقامة امارة مستقلة هناك الأمر الذي جعل الأمويين يتجهون صوب الأندلس على اية حال فإن المعلومات قليلة جدا عن النشاط الذي ابداه الأمويون في المغرب لإقامة دولتهم 0 مجهول أخبار مجموعة ص 55 ابن عذاري البيان المغرب ص 61، 71

الباب الثاني

قيام الإمارات والدول وأحوالها وعلاقاتها السياسية و الإدارية

ثمانية فصول

الفصل الرابع

إمارة بني مدرار في المغرب الأقصى

1- إمارة بني مدرار وتأسيس مدينة سجلماسة

2- العلاقات السياسية:

أ- بنوا مدرار والخلافة العباسية

ب- بنوا مدرار وبنوا رستم

ج- بنوا مدرار والإمارات

الفصل الرابع

إمارة بني مدرار في المغرب الاقصى

(140- 354هـ / 757- 965م)

انتشرت أراء الخوارج الصفرية في بلاد المغرب في بداية القرن الثاني الهجري علي أيدي الدعاة العرب الخوارج الذين لجؤا إلى هذه البلاد وقد اتجهت الدعوة الصفرية إلي القبائل المغربية العنارية في المغرب الاقصى و من زعماء القبائل الذين تيسر لهم الاتصال بهؤلاء الدعاة المشارقة ميسرة المطغري زعيم قبيلة مطغرة الذي كان قد تلقي العلم علي يد عكرمة بن عبد الله المغربي مولي عباس أحد فقهاء مكة وتابيعها وكان عكرمة بن عبد الله من أصل مغربي مما أتاح له نشر ارائه في هذه الربوع بأسلوب منظم قائم علي الدعوة السرية ومن الزعماء الآخرين الذين اتصلوا بعكرمة في القيروان أبو القاسم سمغو بن واسول المعروف بمدرار شيخ قبيلة مكناسة الذي تبحر في دراسة أراء الخوارج الصفرية و أصوله وفروعه حتى وصف بأنة من مشاهير حملة العلم وانتشرت أراء الخوارج في قبيلة برغواطة علي يد طريف بن شمعون الذي إلتقي هو الآخر بعكرمة بن عبد الله في القيروان و في قبيلة زناتة التي ساهمت في الحركة السياسية التي قامت فيما بعد.

ويرد ما يشير إلى أن بعض المشارقة المقيمين بأفريقيا دانوا بآراء الصفريين، وكان هؤلاء قد تسربوا إلي بلاد المغرب بصحبة الجيوش القادمة من المشرق بهدف الفتح ولكن لم يكن لهم علي ما يبدوا أي تأثير فكري أو سياسي يذكر.

ونتيجة لانتشار أفكار الخوارج الصفرية ومبادئهم في المغرب الأقصى لم تحجم جماعات الأفارقة الذين اختلطوا بالروم عن اعتناقهم لها علي يد زعيمهم عبد الأعلى بن جريج الذي تتلمذ علي يد عكرمة بن عبد الله في القيروان وكان هؤلاء الأفارقة أكثر تحضرا من غيرهم من السكان لكنهم أخذوا علي أمرهم مما ترتب علي تحولهم للصفرية نتائج مهمة في الصراع مع الولاة الأمويين الأواخر و الولاة العباسيين كما امتدت تعاليم الصفرية و أفكارها إلى جماعات من بلاد السودان

الذين كانوا يقطنون جنوب السودان و قد ارتضوا مباديء شـيخ قبيلـة مكانسـة سمغو بن واسول التي كانت تدعو إلي المساواة السياسية.

ويلاحظ مما عرضته المصادر، أن آراء الصفرية تغلغلت فـي جميـع أرجـاء المغرب الاقصي وبعض مناطق المغرب الأدنى وافريقية والسودان في مدة قصيرة إذا قورنت بآراء الأباضية في المغرب الأوسط. و قد اتخذت حركـاتهم السياسـية طابعا عمليا إذا اتجهوا الي المناطق الصحراوية النائية فـي المغـربين الأوسـط والأقصي وعولوا علي إقامة إمارتهم في جنوب المغرب الاقصي وفي منطقة إقليم "تافيللت" بأقصى الصحراء من قصبة سجلماسة مركزا لهم سنة 140 هـ/757م.

إمارة بني مدرار و تأسيس مدينة سلجماسة

عوّل الخوارج الصفرية علي تأسيس مركز سياسي وعسكري لهم يكون بمثابة عاصمة ومعسكرا يستجمعون فيه قواهم الموزعة في مناطق مختلفة من المغرب و كان لابد لهذا المركز أن ينأى بعيدا عن سلطة الولاة العباسين وعمالهم فـاتجهوا إلى قصبة سلجماسة علي وادي نهر ملوية الذي يقع في إقليم (تافيللت) بأقاصي الصحراء الكبرى.

وكان أبو القاسم سمغو بن واسول المكناسي المعروف بمدارار، قد حشد قبائـل مكناسة وصنهاجة وزويلة وبعضاً من زنوج السودان والاندلسيين للإلهام في بناء مدينة سلجامة و إقامتها غير انه قبل الشروع في العمل بادر إلي مبايعة عيسي بن يزيد المكناسي الذي كان من اصل سوداني ومن زعماء الصفرية البارزين في هذه المنطقة و حمل قومة علي طاعته لتمكينه في المشروع بتخطيط المدينة و بنائها و القيام بمهمة التجميع السياسي و العسكري المنشود و منذ سنة 138 هـ شـرع في العمل و بعد سنتين اكتمل بناؤها و أتقنت أسوارها و قسمت مياهها من خلجان و غرست بالنخيل و كان سمغو بن مأمول في الأصل صاحب ماشية كثيرة ينتجـع موضع سلجامة و يتردد إليها و لذلك فهو يدرك أهمية موقعهـا مـن النـاحيتين الاستراتيجية و الاقتصادية.

إن مبايعة قبائل الصفرية ليس بن يزيد المكناسي يمثل في حقيقته قوة عناصر السودان في داخل الحركة الصفرية في إقليم تافيللت و قد حدث ذلك في السنة التي اختطت فيها سلجماسة لتكون حاضرة للإمارة و مركزا لقبائل الصفرية سياسـيا و اجتماعيا لقد حرص الصفريون علي انشاء مدينتهم في مكان حصين، اذ أقاموهـا وسط الصحراء جنوب تلمسان و في موضع التقاء فرعي نهر ملوية ثـم أقـاموا حصنا داخل المدنية أطلقوا عليه اسم" العسكر" كما أسسوا المسجد الجـامع و دار الإمارة ثم بني الناس دورهم حول الحصن فاتسع العمران حتى جـاورت المدينـة فرعي نهر ملوية.

ومن الجدير بالإشارة إلى أن معماري الأندلس أسهموا في بنائها. أما سورها فقد ابتنى سنة 205 هـ و له اثنا عشر باباً، أهمها الباب القبلي والباب الغربي وباب غدير وباب الجزارين وباب موقف زناته و قد اصبحت سجلماسة بعد اكتمال بنائها ملجأ لجموع الصفرية و لجميع اللائذين بها والهاربين إليها من أرجاء العالم الاسلامي، سواء من المغرب والمشرق و بذلك حققت أهدافها المرسومة لها سابقا على يد زعيم مكناسة سمغو بن واسول في تجميع القبائل الموالية له و خلق كيان موحد لهم. غير أن أبا القاسم سمغو بن واسول لم يتول الحكم، بل عهد به إلى عيسى بن يزيد المكناس وقد حكم هذا الأخير خمسة عشر عاماً، ليس لدينا معلومات كافية عنها و الموجود منها يتسم بالابهام وأكثره يجمع على انه نتيجة لسياسته فقد سخط عليه أهل سجلماسة وانتفضوا ضده وقتلوه[1] وذلك لمآخذ انكروها عليه لا يتطرق المؤرخون إلى ذكر تفصيلات مهمة عنها ولعل انحرافه وإسرافه والاشتراط في أحكامه كان من الأسباب التي أدت إلى قتله بطريقة قاسية تنم عن التطرف والميل إلى العنف.

ويبدو أن عيسى بن يزيد لا يرقى إلى منزلة سمغو بن واسول من حيث السابقة في اعتناق الآراء أو الأفضلية في العلم، فتولى أمر سجلماسة و عكف طوال مدة حكمة 155-168هـ -772هـ-784م على إرساء قواعد إمارته ورأى انه ليس من الحكمة الوقوف من العباسيين وولاتهم و مالهم في المغرب موقفا يتسم بالعداء، و ذلك و ذلك بغية انصرافه إلى حل المشكلات التي كانت تواجه إمارته و لضمان سلامتها وأمنها وتحقيق استقرارها في المنطقة، مما اضطره على مسالمة الولاة العباسين وربما وعدهم بتبعية اسمية مع الاحتفاظ بالاستقلال السياسي عن السلطة الخلافة وتأثيراتها؛ وأثمرت سياسة سمغو بن واسول و ساد الاستقراء في إمارته غيران ابنه الياس الملقب بالوزير الذي خلفه حاد عن أبيه فثار عليه أهل

[1] و جاء أهل سجلماسة قبضوا علية و شدوا وثاقه إلى اصل شجرة في سفح جبل ثم طلوه بالعسل و تركوه حتى قتله النحل والحشرات (ابن عذاري البيان المغرب ج 1 ص 152).

سجلماسة سنة 173هـ وخلعوه ونصبوا أخاه إليسع الملقب بأبي المنصور 208/173 هـ.

ويمكن القول، أن اليسع بن سمغو المدراري هو المؤسس الحقيقي لإمارة بني مدرار فقد استطاع هذا الأمير أن يرسي دعائم إمارته ويكرس السلطة الكاملة لبني مدرار في سجلماسة التي اصبحت في عهدة مركزا سياسيا مهما حيث أتم بناءها و تشيدها واختلط بها المصانع و القصور[1] و اتبع سياسة شديدة إزاء القبائل المعارضة لحكمة كما أولي اهتمامه إلى الحركة العمرانية في المدينة إلي إحياء لكل قبيلة حيها مما كان له اثر مباشر علي الأمن والاستقرار فيها كما ترتب علية ازدهارها وتقدمها فأصبحت حاضرة و مركزا من مراكز الحكم القوية في بلاد المغرب الاسلامي.

وتولى بعد اليسع ابنه مدرار الذي لقب بالمنتصر وللأسف فان المصادر لا تمدنا بمعلومات عنه سوي ما يتعلق بالصراع الذي نجم عن تولية ابنه ميمون "من زوجته أروى وهي ابنة عبد الرحمن بن رستم أمير الإمارة الرستمية المعاصرة لهم ".

وكان ميمون هذا قد استبد بالأمر وأساء السيرة في رعيته فخلعة أهل سجلماسة ونصبوا أخاه الأخر ميمون " من زوجته تقية " ومكث الأخير يحكم الإمارة حتى سنة 263هـ وفي عهد ابنة محمد بن ميمون تفاقم خطر الفاطميين علي إمارة بني مدرار وبدأ يهددها بالقضاء عليها ولكن في عهد عمة اليسع بن مدرار حال دون قيام الفاطميين بتحقيق أهدافهم حيث استطاع اليسع بن مدرار القبض علي عبيد الله المهدي منظم الدعوة الفاطمية ورأسها وابنة القاسم في مدينة سجلماسة وإيداعها السجن إلي أن زحف أبو عبد الله قائد الجيوش الفاطمية نحو سجلماسة و أسقطها و حررهما من السجن سنة 290هـ.

---

[1] ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ و الخبر ج6،ص 268 .

غير إن السلطة في مدينة سجلماسة عادت مرة أخري إلي بني مدرار حيث ثار أهل سجلماسة علي عامل الفاطميين و قتلوه و قدموا علي أنفسهم الفتح بن ميمون بن مدرار الملقب بالرسول سنة 298هـ ثم خلفه أخوه أبو العباس احمد سنة 300هـ و لكن الفاطميين أطاحوا به سنة 309 هـ ثم استمر الصراع حول السلطة بين أسرة بني مدرار إلي أن تولي محمد بن الفتح بن ميمون بن مدرار سنة 332هـ و تلقب بالشكر لله وقطع العلاقات مع الفاطميين و نبذ أراء الصفرية الخوارج وأخذ بمذهب أهل السنة وتسمي بأمير المؤمنين وكان الشاكر لله عادلا حسن السيرة و لكنة كان يمثل خطرا علي النفوذ الفاطمي في المغرب الاقصي وعلي الرغم من الحملة العسكرية التي جردها الفاطميون بقيادة جوهر الصقلي في خلافة المعز لدين الله و دخولها سجلماسة سنة 347هـ و قتلها الشاكر بالله فان السلطة السياسية في سجلماسة استمرت في بني مدرار حتى سنة 354هـ فقد حكم ولدا الشاكر وهما المنتصر بالله 347-352هـ و المعتز بالله 352-354هـ

العلاقات السياسية

بنو مدرار والخلافة العباسية:

لقد انصرف اهتمام الخلافة العباسية وولاتها في القيروان إلي الاحتفاظ بأفريقية فأسقطوا أقاصي بلاد المغرب التي ينتشر فيها نفوذ بني مدرار من حسابهم بعد أن انسلخت فعلا عن نفوذهم و ذلك بفضل النضال القاسي الذي قام به الخوارج الصفرية مع ولاه بني عباس و الذي استمر روحا من الزمن تعرضوا فيه إلي التنكيل من المطاردة والبطش ما أفضي بهم إلي الانطواء داخل بلادهم النائية ولم يكلفوا أنفسهم مشقة إعداد الجيوش من سجلماسة لخوض حروب مع الجيوش العباسية ربما تكون غير مأمونة العواقب ومن الناحية المبدئية فقد اتخذت العلاقات شكل عداء لم يصل إلي درجة معقدة يتطلب معها قيام الحروب بين المدراريين و العباسين، وذلك لان كلا منهما شغل بمشكلاته الذاتية عن مناجزة خصمه وبمرور الزمن فإن الموقف العباسي اخذ يتسم بالاعتدال إزاء المدراريين.

ويخيل إلينا أن السبب في عزوف بني مدرار عن مناجزة العباسيين، ربما يقوم علي أساس أن الأمراء سجلماسة هم بمثابة عمال للعباسيين وهم يعترفون بالتبعية لهم و يدعون إليهم أو انهم كانوا يدخلون في علاقات التبعية للعباسين رويداً رويداً، أو كانوا يتبعون بغداد اسمياً و لعل المداريين إنما وقفوا هذا الموقف بسبب التهيب المشوب بالخوف من ولاة الخلافة في المغرب الاسلامي من أمثال يزيد بن حاتم [1]أو خلفائه ممن عرفوا بقوه البطش و ملاحقة حركات الخوراج إن قدام سمغو بن ماسول في إقامة الخطبة للخليفة أبي جعفر المنصور و ابنة المهدي من بني العباس في بلادة يدخل في إطار مبدأ (التقية) الذي تجيزه أراء الخوارج و تحاشيا لأخطار محدقة بإمارته و هي ما تزال بعد فتية.

ولكن ما دام العداء تقليديا و مستحكما بين العباسين و الفاطميين فإن أية قوة في العالم الاسلامي تفادي لحدي هاتين القوتين، لابد وأن يفهم إن موقفها من الطرف الأخر ودي وأن المصادر في الأقل توحي إلي هذا الفهم، إن بوضوح أو من طرف خفي، ولما تبين موقف بني مدرار المعادي للفاطميين، أوحى أن علاقاتهم كانت ودية مع العباسين حتى أوصلتها بعض المصادر إلي حد التحالف بين الطرفين.

من المحتمل تقرب الشاكر لله احد أمراء المداريين من العباسين ربما كان لغرض التأليب ضد الفاطميين و بخاصة عندما اخذ هذا الأمير بمبدأ أهل السنة و ضرب العملة باسمة و لقب نفسه بأمير المؤمنين و لكي لا يصح أن نؤكد التعميم حتى ولو أشار القلقشندي إلي أن الشاكر لله " دعا لنفسه مموها بالدعاء لبني العباس"[2]

---

[1] وهو يزيد بن حاتم بن قصيبة بن المهلب بن أبي الصفرة و هو أول وال في بلاد المغرب الاسلامي (انظر ابن عذاري – البيان المغرب ج 1 ص 87 ابن الخطيب أعمال الأعلام ج 3 ص 8-9 .

[2] القلقشندي، صبح الاعشي في صناعة الانشاج -ج5 -ص167 .

أما حادثة وقوع عبيد الله المهدي [1] رأس الدعوة الفاطمية في بلاد المغرب و معه ابنه أبو القاسم [2] في قبضة اليسع بن أبي القاسم بن مدرار و إيداعه السجن في مدينة سجلماسة لا يعرف فيما إذا كان بإيعاز من الخلافة العباسية أو وفقاً لمشيئتهم أو ترضية لهم أو كان الحادث عرضيا كما أنه لا يمكن أن تعتمد بعض الروايات المضطربة كذريعة للقول بأن العلاقات كانت ودية بين بني مدرار و بني العباس، لان أمير سجلماسة اليسع بن أبي القاسم بن مدرار كان على مذهب أهل السنة بما تدين به الخلافة في الوقت الذي كان هو على مبدأ الخوارج[3].

ومهما يكن من أمر، فلا يصح اعتبار حادثة سجن عبيد الله المهدي قرينة على توطد العلاقات العباسية المدارية، فأجراء اليسع بن مدرار لا يستهدف "مرضاة الخليفة" لأنه كان على طاعته و لكن يمكن القول أن عبيدالله المهدي كان يمثل خطرا على سائر كيانات المغرب فضلا عن أن أليسع بن مدرار كان معروفا بالحذر والقوة وكان يستريب من أي داخل إلى حاضرته أو مستجير بها أو لائذ إليها، فلا بد أن يستوقفه فيما يقوم به عبيد الله المهدي من التجوال في بلدان المغرب الاسلامي وإغداقه الأموال والهدايا على حكامها.

وفيما يتعلق بالخطر الذي يمثله الفاطميون على مسرح الأحداث في المغرب يجعل بني مدرار في حذر تام منه و خصوصا في عهود أواخر أمرائهم و لكن بالنسبة للخطر العباسي فقد فات أوانه فهو الآن لا يشكل تهديدا مباشرا لإمارة بني مدرار و للمبدأ الصفري الخارجي كما هو الحال في المشرق الاسلامي حيث عمد العباسيون إلى استئصال شأفة الخوارج الصفرية في مدينة قنسرين و منطقة

---

[1] و هو أبو محمد عبيد الله بن جعفر بن لسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد بن علي بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ابن عذاري، البيان المغرب ج 1 ص 158 – 159 ، ابن الخطيب، أعمال الأعلام ق 3 ص 50 .

[2] و قد أصبح يعرف بالخليفة القائم بأمر الله بعد أن حكم بعد أبيه.

[3] أورد بن خلدون روايتين في هذا الصدد اولاهما أن الخليفة العباسي المعتضد بالله هو الذي أوحى إلى بن مدرار بالقبض على عبيد الله المهدي فيما يذكر في الرواية الثانية أن اليسع استجاب لطلب الخليفة العباسي المكتفي بالله كما أن هاتان الروايتان لا تحددان ما اذا كان الخليفة العباسي أم الأمير الا غلبي هو الذي بعث ليحث اليسع على القبض على عبيد الله المهدي(العبر و ديوان النبأ أو الخبر ج 2 ص 350-351)

الموصل و بلاد الجزيرة الفراتية وأرض السواد في العراق فأبادوا جموعهم وقتلوا زعماءهم وبطشوا بجيوشهم ولكن هل أن علاقات بني مدرار المبنية علي العداء مع الأغالبة الذين كانوا يدينون بالولاء السياسي و التبعية للعباسين ينعكس سلباً مع علاقاتهم مع الخلافة أم إن ذلك ينحصر في السياسية التي كان يتبعها الأغالبة بعيدا عن التأثير العباسي؟ إننا نقرأ عن تعرض فقهاء الصفرية و أتباعها لاضطهاد الأغالبة ووصمهم بالزندقة و المروق عن الدين و تشتيت اجتماعاتهم أثناء الصلاة في المساجد وتبديد حلقاتهم في مدينه القيروان ومنعهم من مزاولة مهنه تعليم الصبيان وتأديبهم وملاحقة المخالفين منهم وتعريضهم لمزيد من البطش والتعنيف.

علاقة بني مدرار مع بني رستم:

كانت العلاقات بين الطرفين قد اتسمت بطابع ودي ربما كان ذلك بسبب مواجهتهم عدواً مشتركاً واحداً هو الخلافة العباسية التي كانت تنظر إلى الخوارج بصوره عامة –صفرية أو اباضية، أعداءاً تقليدين لها كما أن الرستميين ربما في هذا الموقف أوتوا مرونة وبعد نظر سياسي فضلاً عن استيعابهم للظروف التي كانت تلف المنطقة بأسرها فقد غضوا الطرف وتحاشوا الخلافات مع جيرانهم المدراريين بخاصة الذين شعروا بانهم يرتبطون وإياهم بوحدة المصير المشترك فكانا دوماً يظهرون مودتهم لبني مدرار ورغبتهم في السلام والموادعة الأمر الذي جعل بني مدرار يستجيبون لهم وذلك علي الرغم ما كلف الرستمين كثيرا من التغاضي و التضحيات والظاهر إن السبب الذي دفع بني رستم إلي هذه السياسية مع المدراريين ربما يكمن في إن عدة آلاف من الخوارج الاباضية كانوا يقيمون في سجلماسة قد لعبوا دوراً في مناهضة أمرائها وإنهم كانوا موالين لرؤسائهم من مشايخ الاباضية أكثر من ولائهم للإمارة التي كانوا يعيشون في كنفها، وقد درجوا على إرسال زكاة أموالهم إلي مشايخهم في تاهرت ليصرفوها حيث شاؤا[1]. وعندئذ فلابد للرستمين من تولية الظهر لكل شقاق و الإحجام عن إذكاء الفتن التي كانت تبرز من خلال احتكاك أنصار المبدنين أو الأقليات في كلتا الأمارتين كما أن

---

[1] د. محمود اسماعيل –الخوارج في المغرب الاسلامي ص 159.

المصاهرة السياسية التي عقدت أواصرها بين الرستميين والمدراريين [1] خففت كثيرا من غلواء تطرف بعض الفئات التي لم يكن يروق لها أن تري الرستميين يوادعون بني مدرار ويسالمونهم [2] وساهمت علي تحقيق التضامن والوئام بين إمارتي الخوارج وعزوف كل منهما عن التدخل في الشؤون الداخلية للطرف الأخر [3] .

علاقة بني مدرار مع الأدارسة:

كان طابع العداء هو الغالب علي العلاقات السياسية بين المدراريين و الأدارسة و لعل السبب يكمن بالدرجة الأولي في الخلافات المبدئية فالمعروف أن الخوارج عموما و الصفرية بصورة خاصة كانوا يضمرون عداءا تقليديا للعلويين و للأدارسة لزيد بين علي وجه الخصوص كما أن العامل التاريخي في رسم العلاقات بهذا الإطار يمكن استقراؤه بوضوح من خلال عوامل قيام ادارة الأدارسة في المغرب الاقصي سنة 172هـ-789م الذي كان علي حساب الخوارج الصفرية ونفوذهم في هذه المنطقة حيث اكتسح الأدارسة كل وجود للقبائل التي تدين بالمبدأ الصفري و عرضوها للبطش و التنكيل وأصبح لا مناص للطرفين من خوض الصراع ضد بعضهما ومن المرجح أن الأدارسة كانوا وضعوا خطة لتصفية الخوارج الصفرية و لكنهم علي ما يبدوا عزفوا عن تحقيق ذلك بسبب صراعهم الحاد و تفاقمه مع الأغالبة الذين سخرتهم الخلافة العباسية لمناهضة الأدارسة فقد نجحوا في إثارة القلاقل وحبك المؤامرات في وجه أمراء بني مدرار و العمل علي القضاء عليهم و تصفيتهم [4].

---

[1] تم تزويج (اروي)ابنة عبدالرحمن بن رستم من (مدرار)الذي تغلب علي أخيه(ميمون)من امرأة أخري بويع أميرا على سجلماسة.

[2] يقول النفوسي: (و قبل الامام رغم اعتراض المعترضين و المنكرين) الإزهار الرياضين ج2،ص92 .

[3] د. محمود اسماعيل، المصدر نفسه ص 105 .

[4] اغتالوا ادريس بن إدريس (الأول)173-177هـ بايعاز من الخليفة هارون الرشيد اغتاله سليمان بن جرير المعروف بالشماخ .ثم اغتالوا إدريس الثاني 187-213هـ و كذلك مولاهم ارشد الذي كان صحب إدريس الأول من المشرق الاسلامي (البكري-البيان المغرب ج 1 ص 210-211- لسان الدين بن الخطيب - أعمال الأعلام ص 192-194-202 .

وعلى الرغم من أن المدراريين كانوا يسعون في الخفاء للقيام بالدور نفسه الذي كان يقوم به الأدارسة ولكن ظروف المنطقة لم تكن تسعفهم لتحقيق مسعاهم حيث تصاعد الخطر الفاطمي وبات يهدد الجميع فعليهم أن يتدبروا و سائلهم لتنادي هذا الخطر في الوقت الذي لم يكن وصفهم يسمح لهم في الوقوف أمام الزحف الفاطمي المتفاقم في جميع أنحاء المغرب الاسلامي و افريقية.

والظاهر أن الطرفين لم يعدما وسائل المكائد والدسائس ضد بعضهم البعض فقد اتخذ العداء السياسي بينهما مظاهر من الفعل ورد الفعل كان الأدارسة يمسكون فيها بزمام المبادرة فيم كان بنو مدرار يلوذون بالصمت حيناً ويتصدون لمواجهته حين أخر وأوضح صوره لهذا الصراع ما قام به الادراسة من غزو المدراريين الذين كانوا ثلاثة أضعاف جيشهم ولكن رغم ذلك فإن الأدارسة أوقعوا فيهم الهزائم ووصلوا في غزوهم إلي مدينة تلمسان التي تضم قبائل موالية للمدراريين ولم يستطع المدراريون في مدينة سجلماسة من إنجاد إخوانهم في تلمسانة واستنقادهم من ضربات الأدارسة ويعزي ذلك إلى استحالة الاتصال بين سجلماسة وتلمسان إلا عبر أراضي إمارة الأدارسة حيث كان الطريق إليها يمر بدرعة وفاس ومنها إلي تلمسان.

ومن المرجح أن بني مدرار كانوا يحرضون زملائهم من الخوارج الصفرية المقيمين في غاس ضد الأمراء الأدارسة يذكر البكرى معلومات حول قيام عبد الرزاق الصفري و هو من عدوه الاندلسيين داخل مدينة فاس بثورة ضد الأمير علي بن عمر بن إدريس وفشلها، ولكن هذا المؤرخ لم يشر إلي أن هذه الثورة كانت رد فعل من جانب بني مدرار وان عبدالرازق الصفري هو احد صنائعه[1] ولكن من المؤكد أن هذه الثورة أحدثت تصديقاً في إمارة الأدارسة مما جعلت المدراريين يعدون العدة لبسط نفوذهم واكتساح الأدارسة لكن جهودهم في هذا الصدد باءت بالفشل وذلك بسبب تعرض بلادهم للخطر الفاطمي.

---

[1] ويسميه لسان الدين بن الخطيب (عبد الرزاق الفهرى الخارجي)اعمال الأعلام ق 3 ص 208 و يضيف البكرى إلي أن هذا الثائر كان أصله من الإندلس ومن مدينة وشنة الواقعة في اقليم اراكون بأسبانيا(المغرب ص 125).

الفصل الخامس

إمارة بني رستم في المغرب الأوسط

1-إمارة عبد العلي بن السمح المعافرى

2-الإمارة الرستمية وتاسيس مدينة تاهرت

3-العلاقات السياسية

ا-الرستميون والخلافة العباسية

ب-علاقات الرستميون بالأدارسة

ج-العلاقات بين الرستميين وأمويي الأندلس

الفصل الخامس

إمارة بني رستم في المغرب الأوسط

144-336هـ/761-947م

إمارة عبد الاعلي بن السمح المعافري 140-144هـ/757-761م[1] :

وهو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح، عربي من اليمن اختاره أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي البصري الذي كان من أبرز علماء الخوارج الاباضية لينضم إلى ما عرف بتاريخ الإباضيين "حملة العلم الخمسة"[2] لقيادة الثورة الاباضية في المغرب و لرئاسة الإمارة الاباضية المقبلة و ذلك لغزارة علمه وتفهمه العميق في الدين و مهارته في الاستنباط و للتأكيد علي تغليب العنصر العربي في هذه الحركة وإعطائها طابعاً عربياً في بلاد المغرب الاسلامي.

وقد استطاع عبد الاعلي بن السمح إعلان قيام إمارته في موضع غربي طرابلس يعرف باسم (صياد)ولم تمض إلا فترة قصيرة حتى تمكن الإستيلاء على طرابلس واتخذها مركزاً وقاعدة له مما ساعده علي بسط سيطرته علي المنطقة الواقعة من برقة شرقاً حتى القيروان غرباً وإلى فزان جنوباً.

غير إن الحركة التي كان يتزعمها عبد الاعلي بن عبد السمح المعافري فشلت بسبب تخلي القبائل المغربية عنه في وقت عصيب كان قد تعرض له. ربما على اغلب الاحتمال إن سياسته التي اتبعها في تنظيم الجيش باستبعاد بعض العناصر دفعت هذه القبائل لهذا الموقف، حتى إن بعضهم من الإباضيين علي حد قول ابي

---

(1) انظر الفصل الثالث "عصر الولاة" ص 15.

(2) تركزت دعوة الاباضية في المغربيين الادنى و الأوسط و تحمست لها بعض قبائل المغرب ورغبوا في التعمق في دراسة مبادئها ولكن لم يكن لهم ان يحققوا ذلك الا في المشرق فرحل فريق من علمائهم إلى البصرة للأخذ على ابي عبيدة مسلم بن ابي كريمة وكان قد رحل إلى هناك خمسة أطلق عليهم "حملة العلم الخمسة" في مقدمتهم عبد الرحمن بن رستم من القيروان وعاصم السدراتي من غرب الاوراس وأبو داود القبلي النفزاوي من قبيلة نفزة جنوبي افريقية واسماعيل بن ضرار الغدامسي من غدامس جنوبي طرابلس (سليمان الباروني مختصر تاريخ الاباضية ص 35).

زكريا بعد مقتل عبد الاعلي " انتقموا وتشفوا بالجند الموالين لأبي الخطاب وأخذوا يمعنون في البطش فيهم "[1] أما العامل الأخر الذي أودى بالحركة الاباضية السياسية والعسكرية التي كان يقودها عبد الاعلي بن السمح فهو الموقف الذي اتخذه الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور حيث أوعز إلي عامله محمد بن الاشعث الخزاعي بتجريد جيش سنة 142هـ لاجتياح طرابلس و سحق الجيوش الاباضية غير إن الجيش العباسي بقيادة عمرو بن الاحوص القجلي هُزم أمام الجيش الإباضي في منطقة "مغمداس"[2] وربما هي غدامي الحالية، مما جعل الخليفة يهتم بمعالجة توسع الحركة الاباضية و تهديدها للنفوذ العباسي في المغرب و مصر وحتى في بلاد الشام فأوعز إلي والي مصر محمد بن الاشعث مرة أخري بتولي افريقية التي كانت وليت إلي عبد الرحمن بن رستم قاضي طرابلس الذي ولاه إياه رفيقه في العلم عبد الاعلي بن السمح[3] .

لقد أعد العباسيون في هذه المرة جيشاً يقول عنه بن عذاري بأن عدته أربعون ألف مقاتل [4]عهد بقيادته إلي ثمانية وعشرين من القواد في مقدمتهم الأغلب بن سالم التميمي [5]والمحارب بن هلال [6]والمخارق بن غفار الطائي [7]وقد زحف هذا الجيش بعدته نحو مدينة برقة واتخذ من مناطقها القريبة قواعد لعساكره يترقب الفرصة للانقضاض علي الإباضيين وإبادتهم وتخليص النفوذ العباسي وسطوته من

---

[1] السيرة و أخبار الأئمة الورقة 12.

[2] وجاء عند مزاري مقداس علي شاطئ البحر البيان المغرب 1 ص 71.

[3] ومعروف أن اختيار عبد الاعلي لرفيقه عبدالرحمن بن رستم و هو من حملة العلم الخمسة ليكون قاضيا في طرابلس كان له اهمية كبيرة في التاريخ اللاحق للحركة الاباضية و نجاحها في إقامة الإمارة علي اسس صحيحة بعيدة عن الأخطار المحتملة التي كانت تسببها له الجيوش المعادية من حين لأخر.

[4] البيان المغرب ج 1 ص73.

[5] وهو أبو عقال بن خفاجة التميمي اشتهر بالرأي و الشجاعة قدم المغرب مع محمد بن الاشعث الذي ولاه علي طنبة قاوم الخوارج إلي أن أصيب بسهم بالقرب من تونس فقتلة سنه 150هـ و هو والد إبراهيم مؤسس امارة الأغالب (السلاوي-الاستقصا لأخبار المغرب الاقصى ج 1 ص 129-130.

[6] انظر ترجمته في بن خلكان وفيات الأعيان ج 4 ص 101-102

[7] انظر ترجمته في ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج2 ص216.

التهديد، فيما حشد الإباضيون جيشا لا يبالغ المؤرخون كثيرا في تعداده بقولهم في انه يزيد عن مائتي ألف مقاتل وقد عسكروا بهم في منطقة "سرت"[1] ونتيجة للخطة العسكرية الذي وضعها محمد بن الأشعث الخزاعي[2] فقد سحق الإباضيون وهُزموا وقُتل الكثير منهم، حتى أن عبد الرحمن بن رستم لم يستطع أن يقوم بإنجاد رفيقه عبد الأعلى، بل آثر الانسحاب من المغرب الادنى بعيدا عن الضربات المتوقعة التي قد يقوم بها العباسيون في المستقبل والاحتماء في منطقة المغرب الأوسط.

---

[1] سرت مدينه ذات سور صالح كالمنيع من طين و طابية و فيها قبائل لهم مزارع تقصد نواحيها اذا أمطرت و تنتجع مراعيها و هي على سيف البحر -عذبة طيبة و أصلها من احسن خلق الله خلقا (أبو عبيد البكري- المسالك والممالك ج 2 ص 651 -بن حوقل).

[2] تظاهر محمد بن الاشعث بالانسحاب من ملاقاة الاباضيين في ساحة المعركة و في محاوله الالتفاف عليهم كما انه استغل النزاع الذي نشب بين أهم عناصر الجيش الاباضيين من قبيلتي زناتة و هوارة حيث اتهمت زناتة أبا الخطاب عبد الاعلى ميله مع هوارة مفارقة جماعة فهم (ابن عذاري - البيان المغرب ج اص 73).

الإمارة الرستمية وتأسيس مدينة تاهرت

144-283هـ/ 761-896م

استطاع عبد الرحمن بن رستم، أن ينأى بعيد عن متناول الجيوش العباسـية و حلفائها من القبائل و بدأ يعد العدة لوضع الأسس الكفيلة لإقامـة كيـان سياسـي مستقر علي غرار ما كان سائد في المغرب الادني و بعد سنتين من الفشل الـذي مني به الإباضيون بإقامة امارة مستقلة هناك توصل إلى ما يفيد بقيام إمارتــه و إحكام عوامل بقائها و توسيع نفوذها و توطيد أركانها و استقطاب القبائل الأخـرى لمناصرتها واغلب الظن إن الاباضيين والقبائل الموالية لهم لم تعد سهلة الانقيـاد كما كانت في السابق، حيث هدرت دماء رجالها بسخاء أمام الجيوش العباسية و لم تحتفظ بالكيان التي ناضلت من اجله فقد انتزعت قاعدتهم طـرابلس مـنهم لـذلك شرطوا مبايعتهم لعبد الرحمن بن رستم بتأسيس قاعدة يمكن الدفاع عنهـا فـدأب علي اختيار موضع يبني عليه مدينة تاهرت لتكون مقرا لإمارته و علي سفح جبل جزول المرتفع القريب ممن منطقة " تياريت " الحالية في ولاية وهـران غربـي الجزائر شرع بتخطيط المدينة وحفر الأسس لأسوارها سنة 144هـــ، وبعـد أن شيدت وأصبحت معقلا عمرانيا و سياسيا وحضاريا و توطدت أسـس الإمـارة و أركانها و ترسخت دعائمها و قواعدها بايعت القبائل عبـد الـرحمن بـن رسـتم بالإمامة سنة 160هـ مما أتاح للإمارة القدرة للدفــاع عن نفسها و كانت قبيلـة نفوسة في مقدمــة القبائل التي بايعته لذلك انصرف لتنظم تاهرت حاضرة إمارته و قاعدتها فاستقطب كثيرا من القبائل و مثلها في مجلس للشورى وجعـل نفسـه مسئولا أمام الدعاة و الاباضيين عامة عن تنفيذ كل ما ينص علية مبدأ الشـورى، وليس لدية أية صلاحيات باتخاذ قرارات تمس المصلحة العامة بدون التشاور مـع المجلس المستشارين الذي كان يتألف من الخوارج" الشـراة " وشـيوخ المـذهب وزعماء القبائل ووجوهها وفي عهد عبد الـرحمن بـن رسـتم كـان مجلـس المستشارين مؤلف من سبعة من خيرة رجال الإمارة أصحاب الصــلاح والزهـد والعلم وهم مسعود الاندلسي و عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وعمران بن

مروان الاندلسي وأبو الوفق سعدوسي بن عطية وشكر بن صالح الكتامي ومصعب بن سدمان ويزيد بن فندين [1]

لقد عرف عن عبد الرحمن بن رستم إشاعته للعدل بين الرعية وعدم الاستئثار بالحكم كما انه استأصل عوامل الفتنة و الاضطراب فاستتب الأمن وأصبحت تاهرت دار أمان لمن يقصدها من المغرب أو المشرق و قد حرص الاباضيون أن تكون مدينتهم في موقع "جيد الهواء كثير المياه خصب الأرض قابل للعمارة مأمون من العدو" [2] وفي مكان مرتفع وملائم للرعي ليكون منتجعا صيفيا للقبائل الرعوية في شمال الصحراء. وفي غضون سنوات قليلة اصبحت تاهرت مدينة عامرة تقوم فيها تجارة نشطة تعتمد على موانئ عديدة أهمها مرسى فروخ وميناء مرسى تنس وميناء مرسى ستغانم و ميناء مرسى وهران، وهذه الموانئ تربط الإمارة الرستمية بالإمارات و الدول الإسلامية في المغرب والأندلس ومن الجدير بالذكر أن اليعقوبي[3] والمقدسي[4] و ابن حوقل[5] و البكري[6].وصاحب كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار[7] وياقوت[8] ذكروا معلومات مفيدة عن المدينة منذ القرن الثالث الهجري و حتى السابع مفادها أن المدينة تطورت منذ أن اختطها الإباضيون فأصبحت حاضرة للإمارة و قصبة لعديد من المدن الصغيرة والقرى ومركزا من مراكز العلم في العالم الاسلامي .

---

[1] النفوسي، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الاباضية ج 2 ص 101 .

[2] م. ن . ص 6 .

[3] قال عنها "المدينة العظمى و تسمى عراق المغرب، التاريخ ج 1 ص 153.

[4] ذكر لها أوصافا دقيقة ثم قال عنها بأنها بلد كثير الخير رحب رفق طيب رشيق الأسواق غزير الماء جيد الهواء (احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص 228).

[5] وصفها في القرن الرابع الهجري من النواحي العمرانية والاقتصادية والاجتماعية (صورة الأرض ص86).

[6] تحدث عنها في القرن الخامس الهجري تذكر ابوابها الأربعة و موقعها و أشار الى زراعتها و مناخها (المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب ص 66).

[7] مجهول يصفها في القرن السادس الهجري و قال عنها بأنها مدينة مشهورة قديمة كبيرة عليها سور صخر ثم يصف موقعها و أحوالها الاقتصادية وزراعتها (ص 178).

[8] قال عنها في بداية القرن السابع الهجري أنها مدينة جليلة و كانت قديما تسمى عراق المغرب (معجم البلدان ج 2 ص 8).

ويعقد الدكتور الحبيب الجحاني فصلاً مهماً في تطور الحركة العمرانية في تاهرت فيقول أنها في بداية أمرها كانت مدينة متقشفة متواضعة يسيطر عليها مظهران، مظهر المعسكر والمظهر الديني وقد غلبت عليها شخصية عبد الرحمن بن رستم الزاهد الورع الذي كان يدير بنفسه شوون الإمارة و المدينة معا وقد جاء هذا التطور نتيجة لازدهار اقتصادها و لاسيما تجارتها و من المنشآت المعمارية في تاهرت، دار الإمارة ولكن ابرز اثر معماري في خطط المدينة هي القصبة المشرفة على السوق و تعرف "المعصومة" [1].

ونظراً للصلات الروحية و الترابط المبدأي بين إباضي البصرة في العراق وبين إباضي المغرب حيث تخرج حملة العلم الخمسة المغاربة من هناك، فقد إلتزم إباضيو البصرة بدعم الإمارة الرستمية الاباضية مادياً و روحيا فأرسلوا إليها الأموال وأفتوهم في مشكلاتهم السياسية والمذهبية وتدخلوا لتسوية خلافاتهم بإبداء النصح لهم وإرسال البعوث والرسل، وقد عبر إباضيو البصرة عن اعتزازهم بالإمارة الرستمية التى حققت آمالهم فى تطبيق مبادئهم وبعدم ترددهم عن مساعدتها بالأموال، فيشير بن الصغير المالكى إلى أن إباضيي البصرة جمعوا أموالاً عظيمة وبعثوا بها مع نفر من ثقاتهم لتسليمها إلى عبد الرحمن بن رستم[2] وقد قرر المغاربة قبول مساعدة زملائهم لحاجتهم إلى كل ما من شأنه أن يقوى دعائم إمارتهم. وساهمت هذه المساعدة المالية فى توسيع نطاق العمران فشرعوا فى إجراء الأنهر و اتخاذ الأرجاء والمستغلات، ومن المحتمل أن السلاح

---

[1] المغرب الاسلامي ص 107-117.

[2] يذكر وصول الوفد البصري إلى تاهرت حيث دلهم الناس على دار عبد الرحمن بن رستم فوجدوه فى غاية البساطة فقد كان هو نفسه يقوم ببناء داره (سيرة الأئمة الرستميين ص15)ثم انظر تفصيلات مهمة عن ذلك عند البارونى، كتاب الأزهار الرياضية فى أئمة وملوك الاباضية ج2 ص85) د.السيد عبدالعزيز سالم، المغرب الكبير ج 2 ص570-650 .

الذى ابتاعـوه كان بفضل أموال البصريين[1]، وقد ساهم فـي قـوة تسليحهم ومكنهم في بسط سيطرتهم وسيادتهم على أكثر قبائل المغرب داخل حدود إمارتهم وخارجها كما أن هزيمة الجيوش المناوئة لهم سنة 151هـ وفـر لهـم ظروفـا لإرساء إمارتهم وأقنعهم بضرورة تقوية مدينة تاهرت لتكون مركزاً يتمتع بالمنعة والقدرة على الصمود والبقاء.

لقد اصطبغت الأحوال السياسية وحتى أزمات الحكم التي كـان يتعـرض لهـا الإباضيون والمعارضة والثورات والانتفاضات بالطبيعة الدينية، حيث أن الإمـارة قامت علي عصبية قبيلة، ولكن عبد الرحمن بن رستم نجح إلي حد مـا بتأسـيس رابطة مبدئية لقبائل المغرب من البتر التي وحدتها الدعوة الاباضية أما الأزمـات السياسية التي واجهها نظام الحكم، فقد كانت علي الأغلب بسبب تصـدع الـدعوة واختلاف آراء الدعاة في الذود عـن مبـادئهم وحمايتهـا مـن أيـة انحرافـات وانشقاقات.

والظاهر أن العلاقات التي كانت سائدة بين الخوارج المغـرب عمومـا و بـين خوارج المشرق و لاسيما إباضيي البصرة، ذات طابع سياسي أكثـر منـه دينـي نلاحظ من ذلك خصوصاً من التوجيهات التي كانت تصدر عن إمام الاباضـية فـي البصرة ابي عبيد مسلم بن ابي كريمة إلي رفاقه إباضيي تاهرت ويمكن أن نستنتج من رسالة هذا الأخير التي أرسلها إلي دعاته في المغرب في أوائل القرن الثـاني الهجري، أن الإمارة الرستمية الاباضية ظلت متصـلة سياسـياً وفكريـاً ودينيـاً بالتنظيمات السرية في البصرة، ولعل أوضح ما يشير إليه بخصوص هذه العلاقات

---

[1] يعتقد فروخي، أن هذه الأموال كان قد بعث بها خوارج البحرين

Faghy, Dr.Persian, dansby in North Africa, the Rustamides, the Islamic Review,P14.

فيما تؤكد المصادر الإباضية انها من خوارج البصرة وربما ان خوارج البحرين أرسلوا هذه الأموال إلى البصرة ثم بوجد مشايخ الاباضيين فأرسلوها بدورهم إلى المغرب(أبو زكريا، السـيرة واخبـار الأئمـة الورقة 14).

الوطيدة قوله: " فلعمري لقد سرني ما انتهيتم إليه من أمركم وإن كان ذلك لم يخف عنا. غير أنا لم نظن الذي كتبتم به إلي ثم يقول: " أتانا كتابكم بمسائل فمنها ما رأيت أن أجيبكم فيها ومنها ما رأيت إلا نجيبكم فيها من غير هوان ولا تقصير إلا الذي رأيته أصلح لجماعتكم وأقوم بشأنكم وأرفق بضعيفكم وأعطف لقلوبكم وأجمع لأموركم "(1).

لقد انتهج عبد الرحمن بن رستم، سياسة تقوم علي المحافظة علي إمارته الناشئة من أية أخطار محتملة قد تتعرض لها، فعمل علي توطيد حكمه وتدعيم اسس إمارته، و إرساء نظمها في الحكم والإدارة، فكسب الأتباع والأنصار واسترضاءهم واستكمل إعداد جيشه بتعبئة جنده وتوفير الأسلحة والمعدات ليجعله علي أهبة الاستعداد للدفاع عن إمارته، والتزم بسياسة المهادنة مع القوي الخارجية فحرص علي أن تكون علاقاته مع ولاته العباسيين وعمالهم بأفريقية طبيعية ولا يشوبها ما يعكرها، ثم سعي إلي المصاهرات السياسية التي ربما تخدم أهدافه في تعزيز مكانه إمارته بين إمارات المنطقة وقبائلها، فحالف بني مدرار بمصاهرة احد أمرائها وهو اليسع بن ابي القاسم [2].

وفضلا عن ذلك، فقد اهتم عبد الرحمن بن رستم بالأمور الاقتصادية فأولي عنايته بشق القنوات والترع وإنماء العروس والبساتين وإقامة المطاحن وشجع الحركة التجارية فأوجد الفنادق والخانات للتجار وخطط الأسواق ورتبها ونسقها علي غرار أسوق المشرق. ووظف المحتسبين ونظم الاحتساب عليها لمراقبتها والحفاظ علي نظامها، فأختلف التجار إليها من سائر أنحاء العالم الإسلامي وبخاصة من العراق ومصر وبلاد الشام والقيروان سجلماسة والسودان[3].

---

[1] أبو عبيدة مسلم بن ابي كريمة، رسالة في أحكام الزكاة (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 21582، الورقة 114.

[2] النفوسي و الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الاباضية ج 2 ص 101.

[3] بن الصغير المالكي سيرة الأئمة الرستميين ص 13 -16.

ويلقي بن الصغير المالكي ضوءا مفيدا على التطور الاجتماعي والاقتصادي والعمراني الذي أصاب مدينه تاهرت خلال فترة حكم عبد الرحمن بن رستم، فيشير إلى الأسواق المزدحمة والمساجد المتعددة المنارات العالية و الحمامات المتقنة ويحيط بها بساتين متنوعة ومطاحن منتصبة على الأنهار الجارية واتخذ أهلها الفروش والستائر المزخرفة والخيل المسومة وتنوعت الألبسة وتعددت اللغات والأزياء[1]. وهكذا ففي اقل من عشر سنوات خطت الإمارة الرستمية خطوات ملموسة إلي الإمام وأصبحت بمصاف الدولة القوية في منطقة المغرب الأوسط فاكتسبت مهابة جيرانها فطلبوا محالفتها و هاجر إليها الكثير من المشارقة والمغاربة والاندلسيين و نزلوا تاهرت كما قصدها التجار والكتاب والعلماء ورجال الصناعة والفن وأرباب الحرف والمهن من سائر أنحاء العالم الإسلامي فأصبح سكانها خليطاً من العرب والسودانيين والأوروبيين من صقلية وايطاليا وأسبانيا كما نزلها الوافدون من الكوفيين والبصريين والمصريين والخرسانيين إلي جانب الطوائف الإسلامية فقد ضم السكان عدد من اليهود والنصارى الذين كانوا يزاولون الأعمال الاقتصاديون والعلمية والفنية ونقرأ عند المؤرخ بن الصغير المالكي قوله: " واتت تيهارت الوفود والرفاق من كل الأمصار وأقاصي الأقطار وليس احد ينزل بها من الغرباء إلا استوطن معهم وابتني بين أظهرهم حتى لاترى دار الا قيل لفلان الكوفي وهذه لفلان البصري وهذه لفلان القروي "[2].

ومن الجدير بالذكر أن أكثر المعارضين للعباسيين وجدوا في الإمارة الرستمية خير ملاذ لهم تخلصاً مما يلحق بهم في المشرق من الملاحقة الاضطهاد وبخاصة العلويين الذين نزلوا في مدينة الخضراء وسوق إبراهيم ومدينه تمطلاس وجميعها تقع شمال تاهرت على نهر شلف اذ تعد هذه المدن من قواعد الإمارة وأكبر مدنها

[1] سيرة الأئمة الرستميين ص 14.

[2] م. ن. ص 12- 13.

فضلاً عن حسنها وخصوبتها حيثما رسوا هناك مختلف المهن و الحرف فضلاً عن التجارة وما يتصل بها من مظاهر الحركة الاقتصادية [1].

وهناك حقيقة يمكن أن نقررها وهي أن منطقة المغرب الأوسط وأغلب المغرب الأدنى شهدت نوعاً من الاستقرار وسيادة الأمن في عهد عبد الرحمن بن رستم، فيما كان المغرب الاسلامي عامة يضطرم بنار الفتن والإضطرابات والثورات المستديمة فالإمارة الرستمية في عهد هذا الإمام هي اقوى عسكرية واقتصادياً من إمارتي الأدارسة أو الأغالبة مما أتاح لها أن تفرض وجودها كقوة سياسية لها تأثيرها على سلام المنطقة وأمنها.

لقد حكم عبد الرحمن بن رستم من 160-171 هـ وكان قد عهد إلى سبعة من رجاله كانوا يؤلفون مجلساً للمستشارين يدير دفة الحكم وعلية أن ينتخب احد أعضاءه ليكون إمام للإمارة في حالة وفاته، وقد انتخب ابنه عبد الوهاب خلفاً لأبيه و الظاهر أن حكمه كان استمرار لحكم أبيه وحيث استقر الأمر له فساد الهدوء فيما عدا بعض الانشقاقات الفكرية داخل الحركة الإباضية [2].

ولكن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم رأي انه من المناسب لاستتباب الأمن في بلاده محالفة قبيلة لواتة بمصاهرة سياسية، حيث تزوج ابنة رئيس هذه القبيلة فمنع القبيلة من التحالف مع هوارة التي كانت تقف في صف أعداء الإمارة

---

[1] خرج عليه يزيد بن فندين و هو احد أعضاء مجلس المستشارين مستندا الى ان مبدأ الخوارج الاباضية كان يقضي بالشورى دون الوراثة وراح يثير الفتنة و يؤلب على عبد الوهاب و يطالبه بإقامة هيئة استشارية يركن إليها في الفتوى وتكون قراراتها ملزمة للرئيس ثم أنكر على عبد الوهاب امامته بدعوى انه يوجد من هو اعلم منة و أجدر بالإمامة (النفوس-مختصر تاريخ الاباضية ص 39)و بذلك انقسم الإباضيون الى فرقتين نكارية ووهبانية فالاولى تنكر امامة عبد الوهاب والثانية تساندة و هي الأكثر الساحقة من الاباضيين و قد انضم إلى النكارية الواصلية المعتزلة (جماعة واصل بن عطاء) و كان المعتزلة من قبيلة زناتة يؤلفون حزبا قويا شمال تاهرت فقاموا بثورة ضد عبد الوهاب استطاع هذا الأخير القضاء عليها (ياقوت -معجم البلدان ج 2 ص 8 النفوس المصدر السابق ص 116 محمد علي دبور تاريخ المغرب الكبير ج 3 ص 481).

[2] انظر المصدر السابق.

الرستمية، كما انه دعي قبائل دمر الزناتية للانضمام إليه فاستجابوا لدعوته[1] ويبدو أن الظروف التي كانت تواجه قبيلة هوارة جعلتها في وضع حرج مما دفعها للاستغاثة بعبد الوهاب فلم يتردد في نجدتها.

وعلي أية حال، فان عهد عبد الوهاب بن عبد الرحمن علي الرغم مما تخللته انشقاقات و ثورات و حركات سياسية و فكرية، كان مرحلة ترسيخ الإمارة وتدعيم أسسها. ولكن بعد تولي افلح بن عبد الوهاب الإمامة علي اثر وفاة أبيه سنة211 هـ تأكد لدي الاباضيين استقرار مبدأ الوراثة في الإمارة، وهذا يمثل في نظرهم انتهاكا لتعاليم الخوارج الاباضية الذي كان يقوم علي مبدأ الاختيار والشورى في الحكم، ويذهب الدكتور الجنحانى إلي أن الإمامة الاباضية اصبحت تتنقل بالوراثة ولكنها تحاول أن تضفي علي نفسها مظهر الاختيار والشورى تغطية للتناقض الواضح بين مبدأ أساسي من مبادئ الدعوة والوضع الذي حالت إليه في تاهرت[2]. غيران خطرا جديدا بات يهدد كيان الإمارة الرستمية يتمثل في صراع العصبيات العنصرية والقبلية، ظهر إبان حكم افلح بن عبد الوهاب حيث استطاع في حينه بما أوتي من مرونة و حذق سياسيين أن يجنب إمارته منه وأن يتجاوز عواقبه بوسائل شتي، دلت علي براعته في الحكم والسياسة إلي جانب ما اتصف به من شجاعة نادرة. كما انه شرع بالتخلي عن مبدأ المركزية في الحكم وعودته إلي مبدأ الشورى فكان مقتنعا برأي مشايخ القبائل و رؤسائها و يأخذ بهـا عند تعيين الولاة و العمال والجباة ولا يقع تحت تأثيرات المقربين إليه من أسرته واعتراضاتهم وكان يراقب هؤلاء العمال ويجنبهم من التمادي في ظلم الرعية و

---

[1] كانت قبيلة هوارة خاضعة لوالي افريقية العباسي ولكنها استقلت 196هـ و احتمت في مدينة طرابلس فأوعز العباسيون للاغالبة بإخماد ثورتهم وإحباط محاولاتهم في الانفصال عن نفوذ العباسين فدخل الاغالبة طرابلس بيد أن الرستميين حاصروا المدينة لإنجاد القبيلة إلي أن خرج الأغالبة منها و عادوا إلي القيروان حيث كان الامير عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب قد علم بوفاة أبيه فقرر العودة الي القيروان لكي يظفر بحكم الامارة قبل أن يستولي عليها احد من أخوته (النفوس المصدر السابق ص 144 ابن الأثير. الكامل في التاريخ ج 5 ص 156).

[2] المغرب الاسلامي ص 124

إرهاقها في فرض الضرائب والمغارم عليها .في الوقت أتاح لهؤلاء الولاة والعمال و الجباه مزيداً من السلطات ضمن مناطقهم[1] ومن نتائج هذه السياسة، الاستقرار الذي اتسم به عهد افلح بن عبد الوهاب وتأييد الاباضيين له كما لم يبق في أيامه منازع ولا اجمع جهاته إلا طائع[2] في الوقت الذي " ألقي بيده يميناً وشمالا وتمكن في إمامته واطردت له الأمور"[3].

حتى بلغت الإمارة الرستمية في عهده أوج نضجها السياسي وازدهارها و تخطت الأخطار المتمثلة بالفتن و الثورات، ولكن بعد وفاته سنة 258هـ/873م أصبحت الإمارة تواجه مرحلة عصيبة في تطورها السياسي و ظهور النزعات القبلية والعنصرية حيث تفجرت على شكل حروب دامية أضعفت نفوذ الأئمة وقلصت صلاحيتهم وأدت إلي فقدان هيبتهم بين الاباضيين والقبائل المغربية المتحالفة معهم.

وربما يكون من المفيد أن نلقي بعض الضوء على طبيعة العلاقات بين القبائل والعناصر التي تكون النسيج العام لكيان الإمارة الرستمية فمن المعلوم ان هذه الإمارة كانت تضم قبائل متعددة مثل هوارة ونفوسة ونزاتة وسدراتة ولماية إلى جانب مجموعات من أعقاب العرب الفاتحين وبعض الجند المغاربة و كانت نفوسة " تلي عند تقديم القضاة وبيوت الأموال وإنكار المنكر في الأسواق والاحتساب على الفساق "[4] أي أن منها القضاة والإشراف على بيوت الأموال ومنها كذلك المحتسبين الذين يراقبون الأسواق فيمنعون المنكر، وهي وظائف لها أهميتها في الحياة العامة، كما أن بعض القبائل الأخرى ترغب في الانصراف إلي الزراعة أو

---

[1] يشار إلى انه اتبع شتى ضروب الحيل و اخذ يعيداً " فرق تسد "فلوشي بين كل قبيلة و ما جاورها ثم ألقى موجبات التحالف بين كل مقدم و أتباعه وبث الجواسيس بين القبائل (كفاه مؤونة القتال)ابن الصغير المالكي المصدر السابق ص 27 النفوسي، المصدر السابق ص 98-183

[2] الدرجيني، طبقات الاباضية ج 1 (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 12561 ح) الورقة 191.

[3] أبو زكريا، السيرة و أخبار الأئمة (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 9030 ح الورقة 29)الشماخي السير ص 187.

[4] ابن صغير المالكي المصدر السابق ص 27.

التجارة أو اتخاذ المناطق القريبة من تاهرت مقرا لها وبعضها الآخر" اتخذ العين والخيول ونالها من الكبر ما نال أهل المدينة " حيث زاولت الأعمال المالية واقتنت الخيول كما هو حال أهل المدن المتحضرون.

إن مكانة نفوسة وبعض هذه القبائل لدى الحكام الرستميين ومنزلتها في الوظائف العامة لا تقل أهمية عن مكانة العناصر الأخرى التي قيادة الجيش وتسيير الحياة الاقتصادية والسياسية، وكذلك بالنسبة لها عرف" بالرستمية" وهم أجناد من البيت الرستمي الذين تركزوا في بعض الوظائف الإدارية و" السمحية " أتباع عبد الاعلي بن السمح المعافري الموالين للرستمين والمقربين لهم، والظاهر أن هذه العناصر على اختلافها بدأت تناضل من اجل السلطة ابتداء من الرستمية و السمحية والجند المغاربة والقبائل الضاربة حول تاهرت[1] ونتيجة للصراع بين هذه القوة السياسية من جهة و بينها وبين سلطة الرستميين من جهة أخري فقد استطاع أبو اليقظان محمد بن افلح 214-281هـ اخو الإمام الشرعي ابى بكر الذي نصب بعد وفاة أبية افلح بتأييد من قبيلة نفوسة التي كانت تتمتع بنفوذ سياسي كبير استطاع أن يستعيد مدينة تاهرت من الجند المغاربة ويفوز بالسلطة ويستأثر بها لنفسه ثم راح ينتهج سياسة معتدلة وينبذ التعصب لأي من القبائل أو العناصر واتخذ مجلسا للشورى يضم شيوخ القبائل والنبهاء كما اتخذ سياسة

---

[1] على اثر وفاة افلح بن عبد الوهاب نصبت قبيلة نفوسة ابنه الأكبر أبا بكر 211-240هـ غيران هذا الأخير كان زاهدا في الحكم و الإدارة فوطد صلاته بالجند المغاربة و صاهر زعيمهم محمد بن عرفه وسلمه مقاليد الإمارة فاستاءت القبائل من تسلطه و انضم أنصار الرستمية إلي نفوسه و لكن ابا اليقظان محمد بن افلح استطاع التخلص من محمد بن عرفة مما جعل هذه القوي تتحفز للخروج من الفوضى السياسية التي كانت قد عمت تاهرت فاستنكر الجند مقتل زعيمهم فيما وقفت الرستمية و السمحية إلى جانب الإمام أبى بكر و حاولوا الاستيلاء على تاهرت عندئذ تضامن الرستمية مع الجند و الحقوا هزائم عدة فيهم و على الرغم من انضمام الإمام و نفوسه إلي الطرف الأخر لكن الصراع أسفر عن انتصار الجند المغاربة و أرغم أبو بكر على اعتزال الإمامة و لحق بأتباعه من الرستمية و السمحية مثل بني يقظان و لكن بالتبث قبيلة هوارة ان اقصت الجند المغاربة من السلطة و نصبوا أميرا على تاهرت (للاستزادة انظر: د محمود إسماعيل الخوارج في المغرب ص 127).

التسامح إزاء أصحاب المذاهب و الفرق غير الاباضية[1]، وقد أجمعت المصادر الاباضية على المصادر بسياسته وحسن سيرته وصلاحه[2] .

ويمتاز عهد أبي حاتم يوسف بن محمد بن ابي اليقظان 281/294هـ بالهدوء النسبي وذلك على الرغم من قيام حرب أهلية في تاهرت سببها على الأغلب تدخل الأمراء والحاشية في رسم السياسة العامة للإمارة وظهور الطوائف والفرق التي تخالف الاباضية وتغذي هذا الخلاف وتوجهه، ومن المحتمل أن اعتماده على وجود القبائل ورؤسائها للقضاء على مظاهر الفساد والفوضى قد أثمر في جعل الحياة العامة في مدينة تاهرت طبيعية لا يعكرها صدى الخلافات في البلاط الرستمي، و ربما كانت مبايعة مجلس الشورى بالإجماع في بداية حكمه قد مكنته من اتخاذ الإجراءات الكفيلة للقضاء على مناوئيه السياسيين وإعادة الأمن إلى إمارته [3].

ولكن السبب في الهزيمة التي لحقت به و انتهاء عهده سنة 299هـ يمكن على الأغلب بانتهاء دور القبيلة نفوسه واضمحلالها على يد الأغالبة، فقد هزم أهل جبل نفوسه هزيمة ساحقة ولم تعد هذه القبيلة توافي الرستميين بالإمدادات ونتيجة المؤامرات التي دبرتها عناصر من البيت الرستمي قتل أبو حاتم يوسف بن محمد فآلت الإمامة الي اليقظان بن ابي اليقظان محمد، ثم بدأت بوادر نهاية الإمارة الرستمية التي أنهكها الصراع والتناحر القبلي حيث يشير أبو زكريا إلى نهايتها على يد الفاطميين [4]،الذين ظهروا كقوة نشرت سيطرتها على جميع

---

[1] ومن هؤلاء الكوفيين والصفريين والمعتزلة والمالكية (ابن الصغير المالكي المصدر نفسه ص 42).

[2] ابن الصغير المالكي المصدر السابق ص 48- 49 النفوس المصدر السابق ج 2 ص 240 الدرجيني مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 8456 ح)الورقة 192.

[3] في بداية حكمه خرج عليه عمه يعقوب بن افلح و بويع بالامامة و نشبت الحرب بين أنصار الطرفين انتهت بانتصار ابي حاتم و بعد فترة وجيزة الطيب بن خلف الثورة ضد ابي حاتم فحاربه الأخير و انتصر عليه (النفوس، المصدر السابق ص 47-48، الأزهار الرياضية ج 2 ص 271- 277.

[4] ومفاد روايته يتلخص ان بنت أبي حاتم و أخاها حرضا أبا عبد الله قائد الجيوش الفاطميين لدخول تاهرت للانتقام من قتلة أبيها و قد استطاع أبو عبد الله احتلال تاهرت سنة 297هـ و قتل بن أبي اليقظان و من ظفر به من بني رستم و استباح أموالهم ثم اتجه الي المكتبة المعصومة و اخذ منها من كتب الرياضيات والفلسفة والصنائع والفنون واحرقها (السيرة واخبار الائمة الورقة 36)وجاء ايضا ان احد الاباضيين من النكارية قام بمحاولة لاعادة الإمارة الرستمية بعد أن أسقطها الفاطميون و ذلك بعيد عن تاهرت في منطقة جبال اوارس سنة 916هـ ولكن لم يلبث أن سقط بيد الخليفة الفاطمي المنصور فقتله وسلخ جلده وأحشى تبنا واتخذ قفصا ادخل فيه قردين يلاعبانه(المصدر السابق الورقة 37).

المغرب الإسلامي باكتساح القوي التي كانت تتمثل بالإمارات و الدويلات و يبدو أن إسقاط الفاطميين لإمارة الأغالبة سنة 296هـ/908م مهد الطريق أمامهم للدخول إلي المغرب الأوسط و إحكام السيطرة علي الإمارة الرستمية حيث لم يواجه الفاطميون أية صعوبات عسكرية في إسقاطها و إنهاء دورها السياسي و نفوذها في المنطقة.

العلاقات السياسية

الرستميون و الخلافة العباسية:

وقف العباسيون من الخوارج وقفتهم التي نقرأ عنها تفصيلات غير قليلة في المصادر المشرقية أو المغربية، فقد عرفوا بعدائهم المستحكم للخوارج فكرياً وسياسياً وبذلوا جهوداً كبيرة لمكافحتهم واستئصالهم، وفيما يتعلق بالمشرق فقد تمت علي ما يبدو تصفيتهم من الناحية الفكرية و لم يعد أمام القلة من رجالهم إلا الاختفاء و العمل سراً بعيداً عن أعين السلطة، أو الرحيل إلي المغرب ليكون معقلاً لنشاطهم الفكري و السياسي.

وكان الخلاف الفكري والسياسي بين العباسين والخوارج الاباضية عميقاً و متأصلاً وذلك منذ ظهور الحركة الاباضية سواء في المشرق أو في المغرب ولو استعرضنا ما لحق بالاباضين في المغرب الإسلامي من التعسف والاضطهاد علي يد بعض الولاة وملاحقتهم ابتداء من ولاية حبيب بن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري سنة 127هـ وانتهاء بولاية محمد بن الاشعث الخزاعي [1]، لادركنا أبعاد التنكيل بالحركة الاباضية ومن المحتمل إن محاولات هذا الوالي الفاشلة في القضاء علي الاباضيين المغاربة عموماً وعلي عبد الرحمن بن رستم الذي فر إلي احدي المناطق الجبلية من المغرب الأوسط قد

---

[1] ولاه الخليفة أبو جعفر المنصور سنة 144هـ حيث تصدي للاباضين وزعيمهم أبي الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافري في منطقة طرابلس فاوقع فيهم الهزيمة (ابن عذارى المراكشي،البيان المغرب ج 1 ص 72- 73).

زودت هؤلاء الاباضيين بطاقة جديدة لمقاومة أعدائهم و الانتقام لما حل بهم من البطش و الاضطهاد وأقنعهم بضرورة إنشاء إمارة تكون ملاذا حصينا لهم من أية أخطار يتعرضون لها في المستقبل .

وأغلب الظن أن الهدنة التي عقدت بين والي العباسين روح بن حاتم بن مبيعة بن المهلب بن أبي الصفرة 171/ 179 هـ وبين إمارة عبد الرحمن بن رستم [1]والتي تراعي حسن الجوار، كانت تخدم الخطط التي وضعتها الخلافة العباسية في تعزيز نفوذها في المغرب الادني وبعض مناطق المغرب الاقصي.

ومن الملاحظ أن المصادر الاباضية وغيرها قد اختلفت فيمن طلب الهدنة من الأخر فالرقيق القيرواني يذكر أن روح بن حاتم رغب في موادعة الرستميين أصحاب تاهرت [2] فيما يشير لسان الدين بن الخطيب إلي أن الاباضيين هم الذين رغبوا في موادعته [3] ويطلع علينا بن خلدون برواية مفادها أن قوة الإمارة الرستمية في عهد عبد الرحمن بن رستم و منعتها أو جدت الاقتناع لدي الوالي العباسي بضرورة التهاون و حملته علي مواد عته و مهادنته سنة 171 [4] كما استمر بالسياسة نفسها ابنه و خليفته عبد الوهاب من بعده [5] .

ومهما يكن من أمر، فإن عبد الرحمن بن رستم آثر عدم مناجزة ولاة القيروان العباسين عسكرياً، لكي يتفرغ لمواجهة الأعباء التي واكبت قيام إمارته، وقد ظلت هذه السياسة قائمة في عهد عبد الوهاب بن رستم نتيجة للظروف الداخلية التي كانت تواجهها إمارته، ولما اتسم به حكمه من اضطراب وقلاقل بفعل الانشقاقات المبدئية والسياسية بين الاباضيين، وهذا يحتم عليه الإبقاء علي السياسة التي

---

[1] لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام ق 3 ص 9- 10 و يجعلها الرقيق القيرواني بين الوالي روح بن حاتم و بين عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (تاريخ افريقية و المغرب ص 173).

[2] تاريخ افريقية و المغرب ص 173.

[3] أعمال الاعلام ق 3 ص 10 .

[4] العبر و ديوان المبتدا و الخبر ج 6 ص 8.

[5] م. ن ج 4 ص 415.

اختطها إزاء الجيوش العباسية والبقاء بعيدا عن المواجهات العسكرية و لكن العباسيون كانوا يغتنمون الفرص لتوجيه ضرباتهم للرستميين حيث درجوا على إثارة المتاعب لهم واستعداد القوي الأساسية في المغرب عليهم وتهديدهم بالقضاء على حاضرتهم تاهرت وتجريد الجيوش إليها لدكها و تخريبها بل إن العباسيين كانوا يخططون لتصفية ألمتها وأمرائها، لأنهم كانوا يتوجسون خيفة من إتصالاتهم بزملائهم في المشرق الإسلامي لتنظيم الثورات وتحريكها ضدهم، فراحوا يكثرون من مراقبتهم بتجنيد الرقباء والجواسيس وبث العيون لتقصي أخبارهم وبخاصة في مواسم الحج[1].

وتبني العباسيون قيادة جميع الحركات المناوئة لحكم الرستميين وغذوها بالمال والرجال وتعهدوا منظميها وقادتها بالتعاون معهم علي إسقاط هذا الحكم ووصفوا لهم الخطط والتدابير الكفيلة بإنجاح حركاتهم. ففي منطقة جبل نفوسه ثار حليف العباسيين "فرج بن نصير " المعروف بنفاث، وهو عالم وفقيه متبحر في الاباضية ويشير الدرجيني إلي أن خروج فرج بن نصر علي الأمير افلح بن عبد الوهاب كان بسبب الإخلال بشرعية الإمامة والاستهانة برسومها [2]والسياسة في استعمال العمال والسعاة لجباية الحقوق الشرعية ومطالب بيت المال من الرعية [3]

وقد إتخذ فرج بن نصير من قرية قنطرارة منطلقا له ولأعوانه وأنصاره ضد الإمارة الرستمية، غير أن سياسة افلح بن عبد الوهاب تجاه هؤلاء الثائرين قد

---

[1] يذكر أبو زكريا أن فقهاء الاباضيين برروا لعبد الوهاب بن عبد الرحمن إحجامه عن أداء فريضة الحج خشية الوقوع بيد العباسيين [وقالوا أيضا بعدم أمان الطريق و هذا شرعا من الشروط الواجبة في الحج (السيرة و أخبار الائمة الورقة 23 انظر النفوس الأزهار الرياضية ص 140 كما يذكر المؤرخون التفصيلات عن حادثة إلقاء القبض علي الأمير الرستمي أبي اليقظان محمد بن افلح في مكة أثناء ادائه الحج من قبل أعوان الوالي العباسي و إرساله إلي بغداد و إيداعه السجن هناك و هذا يدل على مراقبة العباسيين لوفود المغاربة ورصد تحركاتهم في المشرق (ابن الصغير المالكي، سيرة الائمة 27-29 ، أبو زكريا ، السيرة و أخبار الائمة الورقة 30- 31 الدرجيني،طبقات الاباضية ج 1 ص 37 النفوس ، مختصر تاريخ الاباضية ص 205 .

[2] طبقات الاباضية الورقة 38.

[3] النفوس، المصدر السابق ص195.

أثمرت في تثبيط عزيمتهم حيث انصرف أكثرهم عن هذه الحركة، ولم يكـن أمـام فرج بن نصر إلا اللجوء إلي بغداد [1] ويبدو إن هذا الثائر الذي لم يوفق في النيل من سلطات تاهرت بعد تآمره مع الخلافة العباسية. لكنه نجح في إحداث انقسـام مذهبي و سياسي بين الاباضيين و تكوين فرقة عرفت "بالنفاثية " ظلـت معاديـة للسلطة الحاكمة في تاهرت طوال عهد الإمارة الرستمية وذلك علي الـرغم مـن وجود ما يشير إلى أن أنصاره قد وهنوا و تفرقوا لدي عودته من بغداد فتـاب و رجع عن مسائله التي خالف فيها [2].

ويتضح العداء بين الخلافة العباسية و بني رستم بصوره أكثر جلاءا بتحريض الحلفاء للمشارقة من الكوفيين وشيوخهم ورؤسائهم للعمل ضد الحكم الرسـتمي، فقد نجح هؤلاء في تأليب عامة المدينة ضد الأمير يوسف بن محمـد بـن أبـي اليقظان ووضعوا خطة لاغتياله و قاموا بانتفاضة في المدينة بالاشتراك مع أهلها، اضطروا الأمير إلي التسلل من تاهرت مع خاصته وأهله وكان بعض قادة هـؤلاء الثائرين و محرضيهم في بغداد قبيل وقوع تلك الأحداث ثم عادوا واشـتركوا مـع الثائرين مما يؤكد ضلوع العباسيين بالتآمر ضد الرستميين.

ومن الجدير بالتنويه إلي أن قيام امارة الأغالبة في منطقة المغرب الادني سنة 189هـ يمثل مرحلة جديدة في العلاقات السياسية التي تقوم علـي العـداء بـين العباسيين و الرستميين. وذلك أن الأغالبة أول ما اتجهوا إليه هو نـزاعهم مـع الرستميين في منطقة جبل نفوسـه، اذ يتركـز نفـوذ الرسـتميين وممتلكـاتهم هناك حيث هددوها فاستغاثت بالأمير عبد الوهاب بن عبد الرحمن سنة 196هـ

[1] تذكر المصادر الاباضية أن فرج بن نصر وجد فرصته للإطلاع علي مصادر المذهب الإباضي فدرسها و استوعبها و قيل ان الخليفة أمر بالسماح له بالاطلاع علي المحظور من المصنفات و الكتب في مـذهب الخوارج الاباضية (أبو زكريا، السيرة وأخبار الأئمة الورقة 31،الرجيني،طبقات الاباضية ج 1 ص37

[2] د. محمود إسماعيل، الخوارج في المغرب الإسلامي ص 125، لكنه يدلل علي تشككه بتوبـة نفـاث بوجود كثير ممن اعتنقوا آراءه في أواخر القرن الخامس الهجري.

فزحف إليها بحشوده الهائلة من رجال نفوسه مما اضطر الأغالبة علي قبول الهدنة معه[1].

وعلي الرغم من ذلك فقد استمر الأغالبة يناصبون العداء للرستميين نيابة عن العباسيين بيد إن الأغالبة لما عجزوا عن تحقيق أهدافهم في هذا الجانب عمدوا إلي إنشاء مدينة "العباسية" في جوار مدينه تاهرت و قد استهدفوا من إنشائها تحويل الأنظار عن حاضرة الرستميين التي كانت تجتذب عددا كبيرا من المغاربة و المشارقة من السياسيين و أصحاب الرأي و من العلماء و الفقهاء و التجار و أصحاب المهن و الصنائع و لكن الرستميين وثبوا علي مدينه العباسية فأجلوا سكانها وأحرقوها [2].

---

[1] النفوسي، الأزهار الرياضية في أئمة و ملوك الاباضية ج 2 ص 145.

[2] ابن خلدون، العبر و ديوان المبتدا و الخبر ج 4 ص 429 و الظاهر أن الصراع بين الأغالبة و الرستميين الذي استمر حتى موقعة (قصر مانو) سنة 283 هـ قد استنفد قواهما و مهد لسقوطها علي أيدي الفاطميين سنة 297هـ/ 909 م.

علاقات الرستميين بالأدارسة:

تقوم العلاقة بين الرستميين والأدارسة على العداء المذهبي التقليدي و ذلك على الرغم من موقفهم الموحد إزاء الخلافة العباسية الذي كان يتسم بالعداء كما أن غالبية القبائل التي انضمت إلى الأدارسة وهي زناتة و لماية و لواتة و وسدراتة و نفزة كانت تدين بالمبدأ الإباضي [1] فكان على الرستميين أن يقلقوا بشأن هذه القبائل التي كان من المفروض أن تستظل تحت لواء الإمارة الرستمية الاباضية لا أن تنضوي تحت نفوذ الأدارسة الذين واصلوا سياستهم التوسعية بمحاولة ضم بطون هذه القبائل في منطقة تلمسان وشلف إلى منطقة نفوذهم و العمل على استئصال الأفكار الاباضية المنتشرة هناك.

ومن المرجح أن طبيعة الصراع بين الرستميين والأدارسة كان يحدده موقف القبائل من طرفي النزاع. لذلك اتخذ كلا الطرفين محاولات التوسع في مواطن هذه القبائل وكسب السيطرة عليها. وبمرور الزمن، فان الرستميين لم يقابلوا الأدارسة بالرد على مؤامراتهم ولم يكن بوسعهم مجاراة الأدارسة في تدبير المكائد وإحداث الشقاق. وعزفوا نهائياً عن محاولة التحرش بهم على الرغم مما آلت إليه إمارة الأدارسة من التمزق السياسي والضعف ويبدو أن سياسة الرستميين بعدم مناجزة الأدارسة والرد عليهم بالمثل خلقت ما يمكننا تسميته بالعجز الرستمي أمام تدخلات الأدارسة في الشئون الداخلية لإمارة الرستميين وتحريض الخارجين و الثوار عليها وتزويدهم بما يتطلب لإسقاط نظام الخوارج الاباضية في تاهرت مما أسفر عنه انتهاء الصراع بين الطرفين بتغلب الأدارسة و تقلص نفوذ الرستميين واستكانتهم[2].

---

[1] النفوسي، المصدر السابق ص 145.

[2] د. محمود إسماعيل: المرجع السابق ص 149.

العلاقات بين الرستميين وأمويي الأندلس:

نهج الرستميون في علاقاتهم مع أمويي الأندلس سياسة ودية ربما أوجبتها الضرورات السياسية بهدف توطيد العلاقات بينهما، إذ يتعرض الطرفان لعداء كل من الأغالبة والأدارسة وذلك على الرغم من خلافاتهما المذهبية والتاريخية وقد بلغت العلاقات بين تاهرت وقرطبة إلى درجة التحالف السياسي وتبادل السفارات و الهدايا، كما قامت العلاقات تجارية فكانت السفن تتردد بين وهران والمرية حاملة المتاجر والعلماء والمسافرين، واستقبلت حاضرة الرستميين تاهرت كثيرا من أهل الأندلس حتى إنهم أصبحوا جالية أندلسية كبيرة [1].

ومن الجدير بالذكر، أنه لما كان الأمويون في الأندلس يتطلعون إلى تسقط أخبار المشرق الإسلامي، وخصوصاً بلاد الشام أرض آبائهم وموطن تراثهم ومجدهم والاتصال به ثقافيا وحضارياً واقتصادياً فلابد أن يحافظوا على منفذ المغرب الأوسط، لأن المغربيين الأدنى والأقصى كانت تقوم فيه على التوالي أمارتا الأغالبة والأدارسة المعاديتان مبدئيا ومذهبياً لهم فالأولى موالية للعباسيين والثانية ترفع شعار العلويين، وجميع هؤلاء أعداء تقليديون لبني أمية، والظاهر أن العلاقات بين أمويي قرطبة و أصحاب تاهرت قد توطدت بعد تأسيس مدينة تاهرت وذلك باستعانة عبد الرحمن بن رستم بالمهندسين والمعماريين ومن لهم خبرة بإنشاء المدن وتعميرها من الاندلسيين، إذ تعززت علاقاتهما واكتسبت رسوخاً ومودة حتى أن صاحب تاهرت أمر بتسمية احدي أبواب مدينته باسم " باب الأندلس " [2].

---

[1] ومن العلماء الذين اختلفوا إلى تاهرت،عمران بن مروان الاندلسي ومسعود الاندلسي اللذين أصبحا عضوي مجلس الشورى في عهد عبد الرحمن بن رستم (أبو زكريا، السيرة وأخبار الأئمة،الورقة 104 ثم انظر :

marcais,G . la berberie musulane Et l orient au Mogen age (Paris, 1964)P104

[2] أبو عبيد البكري، المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب ص 66.

أما العلاقات العدائية التي سادت بين الطرفين فلم تكن إلا لفترة قصيرة حيث زالت الجفوة بعد وفاة الحكم المستنصر سنة 206هـ/821 م [1] وعادت العلاقات التقليدية بينهما فوصلت البعوث إلى 'دار المغرب' و هي تاهرت كما اتخذ بعض الأمراء الاندلسيين الوزراء والحجاب والقواد من البيت الرستمي و بظهور الفاطميين على المسرح السياسي في بلاد المغرب تعرضت القوي السياسية جميعها إلى التهديد الفاطمي سواء أكانت في المغرب أو في الأندلس مما استوجب القيام بعمل مشترك بين تاهرت وقرطبة لاتقاء هذا الخطر الذي بات وشيك الوقوع لكن شيئا من ذلك لم يحدث فقد سقطت إمارة الرستميين سنه 297هـ/909 م بيد الفاطميين ولم يقم حكام قرطبة لنجدتهم.

---

[1] بدأ انهيار العلاقات و ترديها منذ نزل الأمير الحكم عبد الرحمن بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالحكم المستنصر إقليم الجزيرة الخضراء بالأندلس حيث كان يعج بالسكان و اغلبهم من الاباضيين فقتل أكثرهم (ابن القوطية القرطبي، تاريخ افتتاح الأندلس ص 71- 72).

الفصل السادس

إمارة الأدارسة في المغرب الاقصي

1- تمهيد

2- قيام إمارة الأدارسة

3- مدينة فاس حاضرة الأدارسة

4- العلاقات السياسية

5- الأدارسة وبنو العباس

الفصل السادس

إمارة الأدارسة في المغرب الاقصي

(172-375هـ / 788-985م)

تمهيد:

الأدارسة، نسبة إلي إدريس بن عبد الله بن الحسن الذي يرجع نسبة إلي علي بن أبي طالب (رض) وكان قد فر من الجيش العباسي علي اثر هزيمته في معركة "فخ" المنطقة الواقعة بين مكة والمدنية سنه 169هـ ونفذ إلي المغرب الإسلامي وهناك أقام مع أعوانه و أنصاره إمارة " الأدارسة" التي لعبت دورا مهما في تاريخ المنطقة أما أخوه يحيي بن عبد الله فقد توجه إلي بلاد الديم وقضي هناك ويشير البكرى إلي أن إدريس بن عبد الله افلت من يد العباسيين بصحبة مولاه راشد فألبسه دراعة وعمامة وصيره كالغلام يخدمه [1] وعن طريق مصر استطاع إدريس بن عبد الله ومولاه راشد الوصول إلي القيروان ثم إلي مدينه تلمسان ثم ارتحل نحو بلاد طنجة ونزلا في مدينة "وليلي"[2] سنة 172، واتخذت هذه المدينة

---

[1] المغرب في ذكر بلاد أفريقيا و المغرب ص 118 (و هنلك روايتان في طريقة وصول إدريس بن عبد الله إلي المغرب الاقصى تتلخص الأولى في أن إدريس و مولاه راشد مرا بمصر بدار مشيده فجلسا على باب الدار فرآهما صاحب الدار و عرف أنهما من الحجاز فقال له راشد: هذا إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب خرج من موضعه فسلم من القتل و قد جئت به أريد بلاد المغرب لعله يأمن فيه و يعجز من يطالبه فادخلهما منزله وسترهما حتى هيأ لهما خروج رفقة إلى افريقية فاشتري لهما جملا وزودهما وكساهما فدخل إدريس ومولاه راشد المغرب فأقاما بين ظهرانيهم (المصدر السابق ص 118 -119) أما الرواية الثانية فيذكرها ابن عذاري على أنهما نزلا و كان متولي بريدها حينذاك " واضح المسكين " و كان يميل للعلويين و ينتصر لهم في الباطن و قد بلغه وصول إدريس إلي مصر فساعده علي الفرار إلى المغرب (البيان المغرب ج 1 ص 63، وربما تكون هذه الرواية صحيحة واقرب إلى الحقيقية بدليل إن الخليفة الهادي بن المهدي العباسي قتل واضحا بما بلغه الدور الذي قام به.

[2] وهي مدينه فولوبيلس colubillis الرومانية و تقع علي سفح جبل زرهون و كانت مركزا و مستقرا لقبيلة اوربة التي ناصرت إدريس بن عبد الله.

قاعدة ومنطلقا لإدريس بن عبد الله لأعوانه من العلويين وأنصاره من قبائل أوربة ومغيلة وصدنية وقبائل زناته وهي زواوة ولواتـة وسـدراتة ونفـزة ومكناسـة وغمارة حيث عبأ منهم جيشا كثيفا أعده لغزو بلاد تامسنا ومناطقها التـي كـان سكانها من النصارى واليهود والمجوس والوثنين فأخضعها ونشر الإسلام فيها. ثم لم يلبث أن غزا في السنة التالية حصون فندلاوة و مديونة و بهلوله و قلاع غاثة التي كانت تتحصن بها هذه القبائل واستولى عليها ثم عاد لمهاجمة مدينة تلمسان وأخضع القبائل الضاربة حولها وهي مغراوة و بني يفرن[1].

ومن المفيد أن نذكر انه لم تعترض إدريس بن عبد الله صعوبات في اقناع قبائل المغرب لدعوته اذ كانوا ينزعون بطبيعتهم إلى الاستقلال والتخلص من حكم الولاة العباسيين ثم أن الخوارج الذين سبقوا العلويين إلى هذه البلاد مهدوا الطريق أمام دعوتهم فكأن المغرب قد حرثها الخوارج للعلويين وحين قدم دعاتهم كان سـلطان الخوارج قد زال فانتفعوا بغرسهم [2]. والظاهر أن العلويين قد زادوا على دعـوة الخوارج ومعارضتهم بقولهم: إنهم أصحاب الحق الشرعي في الخلافة لانهـم آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم من ابنته فاطمة وقد ورثوا علم النبوة فاكتسبوا عطفهم، ومعروف عن هذه القبائل انهم كانوا موقـرين لرجال الـدين ومعظمـين للأولياءالصالحين.

---

[1] ابن خلدون العبر و ديوان المبتدأ والخبر ج 4 ص 25.

[2] د. حسن احمد محمود، العالم الإسلامي في العصر العباسي ص 408.

قيام إمارة الأدارسة:

لقد نجحت حركة إدريس بن عبد الله بإقامة أمارته بفضل اعتماده سياسية الغزو المسلح وتنمية للمبادئ التي كانت قبائل المغرب ترى فيها خير دليل لإقامة كيان مستقل لهم عن النفوذ العباسي. والحق أن الادارسة كانوا يعبرون تعبيراً صحيحاً عن شعور هذه القبائل رغبتهم الحقيقية في الاستقلال ولا غرور إن ينهض الادراسة بأعباء قيام إمارة تكون القبائل المغربية وهم أهل البلاد الأصليين مادتها الأساسية حيث استمرت هذه الإمارة حتى سنة 375 هـ و ذلك على الرغم من التحديات التي كانت تتعرض لها من الفاطميين في المغرب ومن أمويبى الأندلس وقد أهلها ذلك على ما يبدوا لتعمر أطول فترة من باقي إمارات المغرب الإسلامي.

وكان لقيام إمارة الأدارسة صدي عميق الأثر في جميع أنحاء العالم الإسلامي وخاصة بعد إن توطدت وتدعمت أسسها، اذ كان أعدائها يتدبرون الإيقاع بها وينسقون الخطط لإسقاطها، وأدرك العباسيون انه لم يعد بالامكان الاستمرار على سياسة القوة التي اعتمدوها للقضاء على حركة الأدارسة وإماراتهم بسبب تهديدهم لجميع افريقية ومصر و اغاراتهم على أملاك العباسيين الواقعة إلى الشرق من أراضيهم[1] فلم يكن إمام العباسيين إلا اللجوء إلي وضع الخطط الكفيلة بإيقاف زحف الأدارسة إذ عملوا إلي خلق كيان سياسي موالي لهم تمثل بإمارة الأغالبة لتكون حاجز بين أملاكهم وبين إمارة الأدارسة [2].

أما الإجراء الآخر الذي اتخذه العباسيون فيتمثل بمحاولة القضاء علي إدريس بن عبد الله و اغتياله و إخماد الحركة الانفصالية و رأسها إمارة الأدارسة في بلاد

---

[1] ابن الاثير، الكامل في التاريخ ج 6 ص 43-45.

[2] عهد الخليفة هارون الرشيد إبراهيم بن الأغلب بن سالم التميمي بولاية توفي لتكون نواة لإمارة تقيد توسع الأدارسة و تمنع تغلغل نفوذهم في بلاد المغرب و تمنعهم من الاستحواذ علي أملاك العباسيين التي كانت تدر موارد غير قليلة لهم (ابن الأثير، المصدر السابق ص 56).

المغرب الاقصي فدس له هارون الرشيد من قتله بالسم سنة 177هـ [1] غير إن مقتل إدريس بن عبد الله لم يؤثر في مسيرة الحركة الانفصالية ولم يقضي علي إمارة الأدارسة فقد حافظ هؤلاء علي كيان إمارتهم ما يقارب العشر سنوات حتى تسلم إدريس الثاني الذي لم يكن قد ولد بعد [2]، دفة الحكم فبايعته القبائل والتفت حوله .

مدينه فاس حاضرة الأدارسة:

يمكن القول، أن ادريس بن إدريس (الثاني) هو المؤسس الحقيقي لإمارة الأدارسة فقد بايعته قبائل زناته و أوربة و صنهاجة و غمارة، فساعده ذلك علي استكمال قوته العسكرية بتعبئة جيشه و إعداده و كذلك علي توطيد حكمه و الظاهر أن قوه بلاده وصنعتها واستتاب الأمن فيها، اقنع الكثيرين من العناصر والأفراد من المغاربة والمشارقة للنزوح إليه والاستقرار في بلاده و أخذت مدينه وليلي، تستقبل الوافدين من جميع أنحاء المغرب و المشرق و الأندلس فأنشأوا الروابط بينهم وبنوا الأسواق والميادين، وأصبح لهم إحياء تعرف بأسمائهم ولكن

---

[1] استشار هارون الرشيد احد مستشاريه بأمر إدريس فأشار عليه إن يبعث إلي إدريس رجلا تتوفر فيه صفات الذكاء والمكر والدهاء مع البلاغة والجرأة فوقع اختياره علي سليمان بن جرير الذي كان يعرف بالشماخ وأمره بالانطلاق إلي بلاد المغرب فذهب و هو يتظاهر بالطب حتى وصل إلي دليلي فاتصل فأنس إليه و اتخذه صاحبا و نديما فكان ادريس في هذا البلد يحن إلي مجالسة المشارقة و محادثتهم و اخذ الشماخ يترصد لاغتيال إدريس بالسم فلما واتته الفرصة بغياب مولاه راشد أعطاه قارورة طيب يتطيب بها و كانت مسمومة فلما شمها أصابه السم و توفي علي اثر ذلك و هرب الشماخ فطلبه راشد حتى أدركه بوادي ملوية فضربه بسيفه فقطع يده ولكن الشماخ استطاع عبور الوادي ثم واصل سيرة إلى بغداد فولاه الخليفة علي بريد مصر (انظر:السلاوي الاستقصا ج 1 ص 159 البكري المغرب ص 121 ابن عذارى البيان المغرب ج 1 ص 121 ابن عذارى البيان المغرب ج1 ص 299 ابن الأثير الكامل ج 5 ص 90) و قيل سمه بوضع ذر ور سموم في سن له موجوعة و قيل سمه في دلا عه (و هو فاكهة الرقي في العراق).

[2] توفي إدريس بن عبد الله دون ولد و لكنه ترك جارية له اسمها كنزة حاملا فانتظر أعوانه و أنصاره حتى وضعت الجارية غلاما سمي ادريسا فبايعته جميع القبائل من زناته وأوربة وصنهاجة وغمارة (البكري المصدر نفوسة ص 22 الجزنائي زهرة الآسي في بناء مدينة فاس ص 19)

بمرور الزمن أصبحت المدينة تضيق بهم فعزم علي الانتقال إلى مدينة جديدة يؤسسها ويسكنها هو وخاصته من قومه [1]. وفي 192 هـ شرع ببناء مدينة فاس [2]، ولما أتمها أمر الناس بالانتقال إليها وأشار عليهم ببناء الدور والمنازل وغرس الغروس والأشجار ثم أقام سورها وانزل الوافدين القيروان بالعدوة الغربية وسميت" بعدوة القرويين " وقد أصبح لهاتين العدو تين شأن كبير في تاريخ المدينة السياسي الاجتماعي، وتنفتح في سور عدوة الاندلسيين أبواب عدة أهمها باب القبلة وباب الكنيسة أو الخوخة وباب أبي سفين وباب جراوة وباب الشيبوبة وباب المخفية أما أبواب سور عدوه القرويين فمنها باب افريقية وباب القلعة وباب الحديد وباب الفرج أو السلسلة وباب الفصيل أو النيقة [3].

ويقدم المستشرق المتأسبن ليفي بروفنسال نظرية جديدة في نشأة مدينة فاس وتقوم أساسا علي أن إدريس بن عبد الله، أسس المدينة سنة 172 هـ في الموقع التي تقع عليه عدوة الأندلس وان إدريس بن إدريس أسس عدوة القرويين سنه 192 هـ في غرب مدينة أبيه وعلي الضفة اليسرى من وادي فاس و في الموضع المعروف " بدارالقيطون " [4] ومن المرجح أن تكون الآراء التي جاء بها بروفنسال في هذا الجانب صحيحة لأنه ليس من المعقول أن ينتظر الأدارسة 20 سنة لكي يؤسسوا لهم مدينة تكون مقراً ومركزاً لإمارتهم ثم إن قيام الدول والإمارات المستقلة في المغرب الإسلامي خلال القرن الثاني الهجري لابد أن يستتبعه مباشرة

---

[1] يقدر بن خلدون محمد وفد إلي بلاد الادارسة من عرب الجزيرة بخمسمائة فارس من العنسيين و الازد و الخزرج و مدلج و بني يحصب حتى أصبح لهم نفوذ في الإمارة فاستوزر منهم ادريس عمير بن مصعب الازدي الملقب بالملجوم (العبر ج 4 ص 26 29، انظر أيضا الجزنائي المصدر السابق ص 13)

[2] يقال أن ادريس ابتدأ بحفر الأساس بفأس ذهبية فسميت المدينة فاسا و قيل انه وجد في الحفير فاس كبيرمن الذهب، كما قيل أن مدينه أثرية قديمة كانت تقوم في هذا الموضع كان اسمها "ساف" فسميت المدينة علي هذا الاسم مقلوبا (ابن زرع الأنيس المطرب، الجز نائي زهرة الآس، بروفنسال الإسلام في المغرب و الأندلس).

[3] الجزنائي، المصدر السابق ص 19 – 20.

[4] ونجد استعراضا للأدلة المادية و التاريخية التي يسوقها بروفنسال لإثبات نظريته (الإسلام في المغرب والأندلس ص 29 – 30)

قيام مدن جديدة تكون مراكز سياسية وعسكرية وثقافية لها، أي اقتران قيام هذه الكيانات بتأسيس عواصم وحواجز لها، فلاشك في أن إدريس بن عبد الله اسس مدينة فاس إقتداء ببني مدرار في سجلماسة و بالرستميين في تاهرت.

ونقرأ عن الجغرافيين المسلمين تفصيلات مهمة عن مدينه فاس ابتداء من القرن الثالث الهجري حتى الخامس فيقول اليعقوبي عنها: أنها " مدينة جميلة يشقها نهر وهي جانبان يليهما أميران مختلفان "[1] . ويصفها البكري " أنها مدينتان مقترنتان و بينهما نهر مطرد و عدة القرويين غربي عدوة الاندلسيين"[2] أما الإدريسي فيذكر "أنها مدينتين بينهما نهر و المدينة الشمالية تسمى القرويين و تسمي الجنوبية الأندلس"[3]

ومما يلفت الانتباه في عهد إدريس بن إدريس تآمر بعض مشايخ القبائل المغربية المنظمة إليه وضده ومنهم اسحق بن محمود الاوربي كبير قبيلة أوربة الذي اتصل بالأغالبة بغرض الإطاحة به[4]، وبهلول بن عبد الواحد المظفر بالذي كان من معتمدي إدريس و أحد أركان إمارته حيث تآمر هو الآخر مع الأغالبة حتى"انحرف عن دعوة الأدارسة إلى دعوة العباسية"[5] مما اضطر إدريس في نهاية المطاف إلى طلب عقد صلح مع إبراهيم بن الأغلب ليبادر إلى تفويت الفرصة على متآمريه.

لقد أقام إدريس بن إدريس في مدينة فاس ولم يغادرها خشية ما تدبره بعض العناصر من مؤامرات ربما يروح هو ضحيتها في مدينة وليلي، ولكنه توفي سنة 213هـ[6] مخلفا ابنه محمد الذي أشرك معه أخوته في الحكم فولاهم في إمارته

---

[1] كتاب البلدان ص 357.

[2] البكرى. المصدر السابق ص115.

[3] نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ص 75-76.

[4] حيث سعى إلى اغتياله سنة 192هـ(البكرى المصدر السابق ص23).

[5] ابن خلدون العبر ج4 ص27.

[6] جاء في المصادر أن سبب وفاته تناوله لفاكهة العنب فغص بحبة منه فلم يزل مفتوح الفم سائل اللعاب حتى مات، وقيل انه مات مسموما(البكرى المصدر السابق ص123-124، ابن عذارى المصدر السابق ج1 ص211، ابن الخطيب المصدر السابق ص202).

التي قسمها إلى أعمال [1] واختص هو بحاضرته فاس التي أصبحت مركزاً سياسياً احتل شهرة مرموقة بجميع أنحاء العالم الإسلامي.

واتسم عهد محمد بن إدريس بسيادة الأمن والاستقرار السياسي وبتوطد العلاقات مع القوى السياسية في المغرب الإسلامي سوي ما تشير إليها المصادر من الخلافات الداخلية بين الأخوة حول الاستئثار بالحكم والمتمردات التي استطاع القضاء عليها بالقوة [2].

وخلف محمد بن إدريس بعد وفاته سنة 211 هـ خلفاء كان أكثرهم شهرة يحيى بن محمد بن إدريس الذي شهدت فاس في عهده ازدهارا واضحا في العمران حيث" بنيت فيها الحمامات والفنادق للتجار ومهدت الأرباض ورحل ليها الناس من المدن القاصية[3]. أما في عهد علي بن عمر بن إدريس فقد تعرض الأدارسة الى خطر الزوال على يد الخوارج الصفرية الذي كان يقود جيشهم عبد الرازق الفهري ،حيث استطاع هذا الأخير الدخول الى مدينة فاس والاستيلاء على عدوة الأندلسيين فما كان من أهل عدوة القرويين الا أن يولوا على أنفسهم يحي بن القاسم الذي عرف "بالعدام" فقد تمكن من صد هجوم الخوارج وإخراجهم من عدوة الأندلسيين[4].

---

[1] خلف إدريس بن ادريس من الولد اثن عشر وهم: محمد و أحمد و عبيد الله وعيسى وإدريس وجعفر وحمزة ويحيى وعبد الله والقاسم وداود وعمر(البكري المصدر السابق ص 124، ابن عذارى المصدر السابق ص 211، ابن الخطيب المصدر السابق ص202)وقد ولى أخاه القاسم بلاد صنهاجة الهبط و غمارة وولى داوود بلاد هوارة وتسول وتازي و قبائل مكناسة وغياثة وأخاه عبد الله أغمات وبلد نفيس وجبال المصامدة وبلاد لمطة والسوس الأقصى وأخاه يحى ولاه أصيل والعرائش ولاد زواغة وولى أخاه عيسى بلاد شالة وسلا وازمور وتامسنا وبرغواطة، أما احمد فولاه مدينة مكناسة وتادلا و ولى أخاه حمزة مدينة وليلي وأعمالها وأبقى أخوته الاخرين بكفالة جدته كنزة لصغر سنهم.

[2] منها حركة أخيه عيسى في منطقة سالة وامتناع أخيه القاسم عن محاربة أخيه عيسى وإخماد حركته فاضطر محمد بن ادريس إلى توجيه أخيه عمر صاح بمناطق صنهاجة وغمارة للقضاء على عيسى والقاسم حيث أمده بجيش استطاع به عمر أن يهزم أخويه ويتولى ولايتهما(ابن خلدون المصدر السابق ص 28، السلاوي، الاستقصا ج1 ص 173).

[3] ابن خلدون المصدر السابق ص 29.

[4] م.ن. ص 31.

غير أن أعلى بني إدريس ملكاً وأعظمهم سلطاناً على حد قول بن خلدون هو يحي بن إدري بن عمر بن إدريس الذي كان فقيهاً عالما بالحديث " ولم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه في السلطان والدولة " [1]. ولكن في عهد هذا الأمير بدأت إمارة الأدارسة تتعرض للخطر الفاطمي ففي سنة 305هـ، إلتقى جيش الأدارسة مع جيوش الفاطميين التي كان يقودها مصالة بن حبوس الكتامي، حيث هزم الأدارسة وعاد يحيي بن إدريس الى عاصمته فاس مخذولا فحاصره الجيش الفاطمي فلم يكن أمام يحيي بن إدريس إلا طلب الصلح على مال يؤديه للفاطميين ومبايعتهم، فجرد من أعماله وأمواله وتركت له فاس ليكون أميراً عليها.

ولم يشأ الفاطميون أن يتركوا الأدارسة. فقد أقاموا على فاس ريحان الكتامي وهو من كبار قادتهم غير أن عهده لم يدم طويلا فبعد ثلاثة أشهر من ولايته ثار في مدينة فاس الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس المعروف "بالحجام" واستولى عليها وحكمها عامين، ولكن الفاطميين راحوا يدبرون نهاية للأدارسة بتمكين موسى بن أبي العافية المكناسي وتشجيعه على تصفية أسرة الأدارسة وإجلائهم عن فاس ونفيهم إلى مدينة حجر النسر" الحجر" [2] والاستيلاء على عدوة الاندلسيين، وبذلك سقطت إمارة الأدارسة بحلول سنة 375هـ

---

[1] م.ن. ص 32.

[2] وتسمى قلعة النسر وهي الملجأ الذي اعتصم به الأدارسة في شمال المغرب الأقصى بناه إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس و تقع على جبل شامخ الذري ارضه خصبية كثيرة الخيرات وعى مقربة من أحواز سبتة ويجعلها البعض بين تطوان وسفشاون (البكري المغرب ص126) وقال ابن عذاري:"أجلى موسى بن أبي العافية بن إدريس اجمعين عن مواضعهم وصاروا في مدينة حجر النسر مقهورين وحجر النسر حصن مانع بناه إبراهيم بن القاسم بن أدريس وعزم موسى على محاصرتهم في هذا الحصن واستئصالهم فأخذ عليه في ذلك أكابر المغرب فقالوا له:"لقد اجليتهم أتريد ان تقتل بني إدريس أجمعين وانت رجل من البربر!!"فأعرض عن ذلك وولاة عنهم بعسكره"(البيان المغرب ج1 ص 214).

العلاقـــات السياسيـــة

الأدارسة وبنو العباس:

تتسم العلاقات بين الأدارسة والعباسيين بطابع عدائي منذ أن سعى إدريس بن عبد الله إلى تكوين إمارة مستقلة عن نفوذ ولاة العباسيين في المغرب، وإذا أردنا أن نفهم طبيعة هذه العلاقات وجذورها التاريخية فعلينا أن نقرأ علاقات الأدارسة مع الأغالبة وهم خلفاء بني العباس حيث سخر هؤلاء لمقاومة نفوذ الأدارسة والحد من توسعهم وحصر أخطارهم وتهديدهم لممتلكات الدولة العباسية ومواليهم وأنصارهم.

وقد أدرك هارون الرشيد، بعد أن تناهي إليه دخول اغلب قبائل المغرب في طاعة إدريس بن عبد الله و تصميمه علي إقامة إمارة مستقلة عن النفوذ العباسي، انه لا طاقة لجيوش العباسيين علي الوصول إلى منطقة السوسي التي راجت فيها دعوة الأدارسة، فإمارة الأدارسة أصبحت حقيقة واقعة في هذه المنطقة و علي العباسيين أن يعالجوا أمرها بما يتوافر لديهم من إمكانيات سياسية أو عسكرية و علي الرغم من نجاح الخطة التي وضعها هارون الرشيد بتصفية إدريس بن عبد الله لكن العباسيون عجزوا عن الإطاحة بالا دارسة في عهد إدريس بن إدريس، فأوكل العباسيون هذه المهمة إلي الأغالبة ليقوموا بهذا الدور و الظاهر أن الأغالبة كانوا لا يمتلكون المقدرة والقوة علي مجابهة أعداء حلفائهم فطفقوا يستميلون بعض القبائل المغربية و يكثرون من الاتصال بزعمائهم لإبعادهم عن الأدارسة أو استعدائهم عليهم، كما حاولوا التدخل في الشئون الداخلية الأدارسة وذلك بتسخير صنعائهم للثورة ضدهم في مدينه فاس، ولكن علي ما يبدو أن جميع هذه المحاولات قد باءت بالفشل و استمر قيام إمارة الأدارسة التي كان العباسيون ينظرون إليها علي إنها خطر يهدد بالتهام المغرب الإسلامي ومصر.

ثم أن الأغالبة وبمرور الزمن لم يكن في صالحهم أن يتأصل عداؤهم مع الأدارسة وان تتخذ علاقاتهم السياسية طابعا عدائيا يؤدي إلى الصراع بسبب مصالحهم المشتركة لذلك فليس في وسعهم إلا قبول دعوة الأدارسة بعقد الصلح

بين الطرفين [1] وأن يكف كل منهما عن الأخر من ناحيته [2] فيشير ابن الخطيب الى أن ادريس بن عبد الله بن الحسن كتب إلى إبراهيم بن الأغلب بن سالم يستكفيه عن ناحيته و يذكره بقرابته من رسول الله (ص) فأجابه عن كتابه ووادعه ولم تجر بينهما حرب إلا ما ذكر عنه [3].

ومن المرجح، أن الأغالبة كانوا يدركون أن الأدارسة قد أسهموا إسهاما فعالا في خدمة العالم الإسلامي. من حيث أنهم ثبتوا القبائل المغربية علي الإسلام بل هم الرواد والممهدون الحقيقيون لظهور هذه القبائل في المجال الإسلامي ظهورا واضحا [4] فلا غرو أن يستجيب الأدارسة للظروف والأحوال التي يمر بها الغرب الإسلامي فيقتنعوا أن النزاع المسلح وما يخلقه من علاقات عدائية وبخاصة مع الأدارسة لا يخدم مصالحهم وكذلك لا يساعد علي استقرار المنطقة وأمنها لذلك تبدو أهمية الإسلام والموادعة وتحاشي الصدام في نظر الأغالبة تحتل الاولوية في سياساتهم والأغالبة بحكم تحالفهم مع العباسيين من جهة فإنهم يسعون إلى التوفيق بين مصالح الامارات والدول والقوي الاسلامية في المغرب وبين مطالب الخلافة العباسية من جهة أخري كما انهم أحيانا يرون في بعض الإجراءات التي كان يتخذها الخليفة أو توجيهاته اليهم خروجا عن الواقع السياسي التي تعيشه المنطقة لا يسعهم الامتثال له. وقد ظهر ذلك واضحا من كتاب الخليفة العباسي المأمون إلي الأمير زيادة الله بن إبراهيم 223/201 هـ يحثه فيه علي الدعاء إلي عبدالله بن طاهر علي منابر افريقية، فغضب الأمير الاغلبي وهدد الخليفة بخروجه عن طاعة العباسيين و انضمامه إلي الأدارسة [5].

---

[1] ابن خلدون، المصدر السابق ص 27.

[2] ابن الأثير ، الكامل ج 6 ص 56.

[3] أعمال الأعلام ق 3 ص 14- 15.

[4] د. حسن أحمد محمود، العالم الإسلامي في العصر العباسي ص 412.

[5] لما استمر العباسيون يثقلون الأغالبة بمطالبهم، أرسل زيادة الله بن إبراهيم، كيسا يحتوي علي ألف دينار مضروبة بأسماء بني إدريس هذا يشير إلى أن الأدارسة يشكلون إمارة قوية في المنطقة وأن الأمير الاغلبي كان تهديد الخليفة بانضمام إمارته إلي صف أعداء الخلافة الأقوياء (ابن خلدون، المصدر السابق ج 4 ص 422؛ ابن الخطيب، المصدر السابق ص 17).

ومعروف انه بظهور الأدارسة، ترسخت الأفكار الإسلامية بين قبائل المغرب واستطاع الأدارسة بمساعدتهم في المضي بنشر الإسلام في غرب افريقية وفي حوض السنغال. وهذه الظاهرة كانت تستلفت انتباه العباسيين، مما يترتب عليهم اتخاذ تدابير في المجالات السياسية والعسكرية لغرض التعتيم على نشاط الأدارسة في هذا المجال غير أن جميع هذه التدابير والخطط قد فشلت نظرا لتنائي بلاد المغرب عن المشرق الإسلامي وعجز جيوشهم عن الوصول إليها، فضلا عن قوة إمارة الأدارسة وكثرة جيوشها، وقد جاء على لسان الخليفة هارون الرشيد وهو يستشير رجاله في أمر ادريس بن عبدالله الذي اشتهر أمره واسمه فقال: "... وقد هالني أمره "[1] مما يشير إلى أن إمارة الأدارسة أصبحت قوية منيعة.

ومهما يكن من أمر فإن إمارة الأدارسة لم تصمد أمام مكائد الولاة العباسيين وحلفائهم من الأغالبة، فحسب، بل أنها كانت تذب عن نفسها عدوان القوى الأخرى في المنطقة ايضا. وتثبت أقدامها وتتحدى الصعاب التي كانت تواجهها، مما جعلها تحكم أكثر من قرن (172–375هـ) وامتد نفوذها من السوس الأقصى إلى وهران. وقد عول الأدارسة على ذلك بتجنيد القبائل وتعبئتها ضد أعدائهم، وهكذا لم يرضخ الأدارسة إلى التهديدات التي كان يطلقها أعداؤهم.

ونعتقد، أن الأدارسة، لم يكن يتح لهم مثل هذا الموقف لو لم يحظوا بالتأييد من أغلب قبائل المغرب القوية و منها أوربة وقطية و صدنية وقبائل زناتة وهي زواوة ولواته وسدراتة ونفزة ومكناسة وغمارة وكذلك مما زاد في نفوذ الأدارسة أن الحركة الانفصالية عن النفوذ العباسي في بلاد المغرب اقترنت بظهورهم فقد حمل لواءها مؤسسو إماراتهم الأول و لكن من المفيد أن نذكر أن الموادعة التي تمت بين الأدارسة والفاطميين و أن الأدارسة حكموا باسم الفاطميين[2] ووقوع الأدارسة بين خصميه متنازعين الفاطميون في المغرب والأمويون في الأندلس أضعف الأدارسة وأفقد إمارتهم قوتها ونفوذها وسبب لها كثيرا من المتاعب مما أفضى إلى سقوطها وزوالها.

---

[1] ابن أبي زرع، الانيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينه فاس ص 203؛ البكري، المصدر السابق ص 119 ابن عذاري، المصدر السابق ص 83، ابن الخطيب، المصدر السابق ص 192– 193هـ. السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير ج 2 ص 471 نقلا عن
leve- Provencal, Extrandes Historien arabes P 18

[2] السلاوي، الاستقصا ج 1 ص 80 – 86 ابن عذاري، المصدر السابق ج 1 ص 212 – 213.

الفصل السابع

إمـــارة الأغالبـة في المغرب الادنـي

1- فتح جزيرة صقلية

2- القيروان عاصمة بني الأغلب

3- العلاقات السياسية

الأمراء الأغالبة والخلفاء العباسيين

الفصل السابع

إمـــارة الأغالبة في المغرب الادني

(184 – 296هـ/ 800 – 908م)

ينتسب الأغالبة إلي إبراهيم بن الاغلب بن سالم التميمي، مـن قـواد جـيش الخليفة العباسي هارون الرشيد. حيث عهد إليه هذا الأخير بإقامة إمارة يتزعمهـا تتمتع بشبه استقلال ذاتي تستظل بالخلافة وتكـون قاعـدة سياسـية وعسكرية للوقوف ضد القوي والحركات المناوئة للخلافة ولاسـتقطاب القبائـل والعناصـر المستقلة والمعتدلة والمترددة وقد امتنع الخليفة هارون الرشيد بهذا الإجراء نتيجة لاستمرار الحركات المناوئة والمعادية للخلافة، وخشـية مـن انفصـال المغـرب الإسلامي عن النفوذ العباسي الذي كان ينظر إليه الخليفة بأنه بات وشيكاً، بل كان واقعا ملموسا في ظروف هذه البلاد البعيدة بعد قيام امارة الادارسـة التي أصبحت العدو التقليدي للنفوذ العباسي.

وقد تبين، أن اشتراط الخلافة لقيام امارة الأغالبة في ولاية أفريقية المتمثلة في جهات المغرب الادني يقوم علي دعامتين أساسيتين. أولاهما، الضمانات الماليـة واستمرا ر تدفق الإيرادات علي بيت مال الخلافة في بغداد سواء تلـك الإعانـات التي كان يستحصلها ولاة أفريقية من مصر أو تلك التـي فرضـت فيمـا بعـد[1] وثانيهما يتمثل في منع الادارسة من سياسة التوسع أو الحد منها في الأقل وكـذلك دفع الأغالبة إلي التدخل في شئون الادارسة وإفشال دعواتهم بما يـراه العباسـيون، فصل بلاد المغرب عن العالم الإسلامي أو سعيهم في توحيد المغرب والمشرق تحت قيادتهم.

---

[1] كانت ولاية مصر ترسل إلي أفريقية مائة ألف دينار سنويا لقمع حركات المعارضة ضد الخلافة، أمـا الأموال التي فرضها هارون الرشيد كضمان علي الأغالبة و يسمونها " جزية سنوية " فهي أربعون ألف دينار سنويا. (ابن الأثير، الكامل ج، ص 56).

وفي مقابل ذلك، استحصل إبراهيم بن الأغلب عهد الخليفة هارون الرشيد و موافقته بتثبيته في ولاية أفريقية (منطقة تونس) سنه 184 هـ ومن ثم الاعتراف والإقرار له بتأسيس إمارة تدين بالولاء السياسي و التبعية الاسمية للخلافة واتخذ من القيروان عاصمة لولايته على أن يقوم بتنفيذ التزاماته تجاه الخلافة فلا غرو أن يسعى إبراهيم بن الأغلب للتعبير عن إخلاصه و مودته للعباسيين فاتخذت علاقاته مع القوى المعادية للخلافة طابع العداء.

فناهض الرستميين والمدراريين وذلك على الرغم مما عرف عنه من المسالمة والحرص على أسباب تلاشي الصراع غير انه لم يكن ثمة محيض عن الصدام أمام تشابك الحدود وعدم وضوح معالمها و بخاصة مع إمارة بني رستم و كذلك للبطش بالخوارج الصفرية المتيمين بالقيروان الذين كانوا يمالئون المدراريين على أن الأغالبة دأبوا على ترضية الخلافة بإيفاء الضمانات المالية أما موقف الأغالبة من الأدارسة فقد اتسم بالعداء حيث بدأ الأغالبة يترصدون أعداء حلفائهم ويحاولون الإيقاع بهم متى استطاعوا إلى ذلك سبيلا فسخروا من اغتال راشد مولى ادريس بن عبد الله مؤسس إمارة الأدارسة [1]، ووضعوا الخطط للكيد منهم باستمالة العناصر التي تؤيدهم والعمل على بث روح الفرقة والتناحر بينهما سواء باسترضائها بالأموال أو بالتهديد و الوعيد .

ويخيلّ إلينا، إن التحالف بين العباسيين والأغالبة كان له ردود فعل عنيفة من جانب بعض العناصر التي لم يكن يروق لها أن ترى أي أثر للعباسيين أو سياستهم في بلاد المغرب، فنجد في ثورة " حمديس " الذي ثار في مدينة تونس في عهد إبراهيم بن الأغلب وأبطل شعار بني العباس ذي اللون الأسود[2] وثورة أهل

---

[1] ابن خلدون، المصدر السابق ج 4 ص 420 .

[2] استطاع إبراهيم بن الأغلب أن يقمع هذه الثورة و يهزم حمديس من مدينة تونس و أن يقتل معظم أنصاره و مؤيديه الذين يقدر عددهم ابن الاثير بنحو عشرة آلاف ثائر (الكامل ج 5 ص 104) انظر أيضا ابن خلدون العبر و ديوان المبتدأ و الخبر ج 4 ص419.

طرابلس علي الولاة العباسيين أو ولاة الأغالبة سنة 189 هـ[1] وثورة عمران بن مجالد في مدينة القيروان سنة 195 هـ [2] وثورة الجند في مدينة طرابلس سنة 196 هـ[3] وثورة زياد بن سهل المعروف بابن الصقلبية في مدينة باجة سنة 207هـ [4] وثورة عمر بن معاوية القيسي في مدينة القصرين سنة 208 هـ[5]

---

[1] وكان أهل طرابلس قد ثاروا مرات عديدة قبل تولي إبراهيم بن الأغلب على الولاة العباسيين لكن ثوراتهم قمعت وفي عهد إبراهيم ثاروا بعامله سفيان بن المضاء وهزموه واستخلفوه بإبراهيم بن سفيان فجرد إليهم إبراهيم بن الأغلب جيشا وهزمهم وقضى على ثورتهم (ابن الأثير، المصدر السابق ص 121).

[2] وكان هذا من رجال إبراهيم بن الأغلب تمرد عليه وأيده رجل اسمه حريش بن التونسي واجتذبت هذه الثورة كثيرا من الأنصار والمؤيدين واتجه هؤلاء الثوار نحو مدينة العباسية التي كان إبراهيم بن الأغلب قد اعتصم فيها غير أن هذا الأخير استطاع تمزيق صفوف الثوار بعد أن هزم عمران بن مجالد الذي هرب وأقام بالزاب وفي عهد عبد الله بن إبراهيم أعطي لهذا الثائر الأمان ثم قتل (ابن الأثير، المصدر السابق ص 121، ابن خلدون، المصدر السابق ص 421 ابن الأبار، الحلة السيراء ص 105).

[3] قامت على أثر تولية عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب على طرابلس حيث ثار الجند وحاصروه في داره وأرغموه علي الهروب إلي القيروان غير أن عبد الله اجتذب إليه الأنصار من بعض القبائل ببذل الأموال لهم فكثرت حشوده وزحف بهم إلى طرابلس مرة أخري وقمع ثورة الجند ولكن أباه عزله واستعمل سفيان بن المضاء فثارت قبيلة هوارة وهاجمت طرابلس واحتلتها فاضطر إبراهيم بن الأغلب إلي تقليد ولده عبدالله القيادة الجيش فاستطاع هذا الأخير إن يسترد المدينة ويهزم هوارة لكن الرستميين انجدوها و حاصروا طرابلس حتى وفاة ابراهيم بن الأغلب فاضطر ابنه عبد الله إلى مصالحة الرستميين وعقدوا اتفاقية بهذا الشأن وعاد عبد الله بموجبها إلى القيروان(ابن الأثير، المصدر السابق ص 156، ابن خلدون، المصدر السابق ص 420-421).

[4] استطاع زيادة الله بن إبراهيم قمع هذه الثورة وقتل القائمين بها (ابن عذاري البيان المغرب ج1 ص97).

[5] استولي علي مدينة القصرين وكان من قبل عاملا عليها، فجرد زيادة الله بن إبراهيم جيشا حاصره أياما ثم استنزله بالأمان هو وولديه، حباب وسمعان فغدر بهم وقتلهم ويروي ابن عذاري قصة مقتل عمرو بن معاوية وولديه علي يد زيادة الله بالتفصيل (البيان المغرب ج1 ص98،97)

وثورة منصور بن نصير الطنبذي في مدينة طنبذة سنة 209 هـ [1] نقول أن هذه الثورات دليل ينهض علي احتجاج الثائرين ضد سياسة الأغالبة التي كانت تقـوم علي التبعية و الولاء للخلافة العباسية و كذلك ضد الإجراءات التي كـان يتخـذها أمراء الأغالبة أو عمالهم في المغرب الادني من حين لأخر.

ومن المفيد أن نذكر أن عهد أبي العباس عبد الله بن إبراهيم 196-201 هـ قد اتسم بالهدوء والاستقرار نتيجة لجوره وتعسفه فقد وصف بأنه كان " متعسفا جائرا ظلوما مع رعيته أحدث بافريقية وجوها من الظلم شنيعة " [2]، كما قيل عنه انه كان "جماعا للأموال" [3] أما زيادة الله بن إبـراهيم 201-223 هـ فتبـالغ المصادر في القول بأنه كان من أفضل أمراء الأغالبة. فقد كان يمتلـك المقـدرة والكفاية السياسية والعسكرية إلي جانب ما عُرف عنه من حـب للعلـم وتقـدير

---

[1] وهي من اعنف الثورات التي واجهتها الأغالبة ومن أشدها خطرا عليهم حيث انتفضت افريقية علـى زيادة الله بن ابراهيم فلم يبق في يده سوي الساحل و قابس. وكان منصور الطنبذي يحاول الاستيلاء علي تونس فأرسل إليه زيادة الله قائده محمد بن حمزة و امره بمباغتته غير أنه لم يجده فنزل بدار صـناعة السفن في تونس وأرسل إليه وفدا من شيوخ تونس لاسترضائه لكن منصور تظاهر بالإخلاص للاغالبة وعرض عليهم المبيت بغية السير معهم إلي زيادة الله وأرسل إلي محمد بن حمزة بقرا وغنمـا وعلفـا فاطمأن لذلك غير أن منصور سجن الوفد وزحف مع أتباعه و أنصاره إلي تونس و هجموا ليلا علـى الجيش هناك و قتلوا والي المدينة فلم يكن أمام زيادة الله الا توجيه عساكره الي الطنبذي بقيادة و زيره الأغلب بن عبد الله بن الأغلب المعروف بغلبون و لكن هذا الأخير هزم و استولي الثوار علي عدد مـن مدن أفريقية وخلعوا سلطة الأغالبة ثم زحفوا نحو القيروان و حاصروها ثم احتلوهـا لكـن زيـادة الله استطاع أن يهزمهم ويسترد المدينة. وفي 210 هـ عاود الثوار الهجوم على القيروان واستولوا عليها وكتبوا إلي زيادة الله أن يرحل عن أفريقية ولكن أشير علي زيادة الله الاستعانة بقبيلـة نفـزاوة حيـث ساعدته في إيقاع الهزيمة بالثوار وقتل قادتهم و في سنه 215 هـ تجددت الثورة في مدينة تـونس و كان يقودها فضل بن أبي العنبر وأيده أنصار الطنبذي ولكن زيادة الله تمكن من إخمادها (ابن عذاري ، المصدر السابق ص 101 ابن الأثير المصدر السابق ص 158).

[2] ابن عذاري، المصدر السابق ص 95

[3] ابن الخطيب المصدر السابق ص 15

للعلماء فأيتني القصور ومراكز الثقافة في القيروان والعباسية وتونس وسوسة وأسس نواة للأسطول الإسلامي المزود بالسفن الحربية و المعدات العسكرية .

فتح جزيرة صقلية:

لقد كانت سياسة الأغالبة تقتضي في هذه الفترة السعي لتحقيق الأهداف التي رسموها لتوسعهم في حوض بحر الروم (البحر المتوسط) ففي سنة 206هـ توجهت قطعانهم البحرية وأسطولها إلي الجزر القريبة من تونس ومنها جزيرة "سردانيا "[1] سردينيا، ولكن أهم عملية بحرية منظمة في عهد الأمير زيادة الله بن إبراهيم التي استهدفت جزيرة صقلية حيث تم فتحها فأصبحت جزءا من البلاد الإسلامية و توارث المسلمون حكمها أكثر من قرنين من الزمان كانت فيها مصدرا للثقافة و مركزا من مراكز الحضارة العربية الإسلامية.

ولعل من أهم الدوافع لفتح جزيرة صقلية سنة 212هـ هو العامل الديني الذي يتمثل بالجهاد في سبيل الله و في محاولة القضاء علي غارات الروم البيزنطيين علي الثغور الإسلامية وعودة إلي السياسة التي جرى عليها الأمويون في المبادرة لشن الغارات علي حدود البيزنطيين، أما العامل الاقتصادي فإن صقلية بلاد غنية و تمثل أراضي جديدة يمكن استغلالها وقد لعب هذان الدافعان دورهما في التأليف و التحشيد و إعداد الحملة [2]. إن اختيار القاضي أسد بن الفرات (وهو مصنف الاسدية في الفقه علي مذهب مالك بن أنس) قائدا للحلة عن روح الجهاد يضاف إلي أن زيادة الله كان يحرص علي الظهور بمظهر المجاهد المثاغر أمام الرعية كما انه كان يعاني من ثورات الجند فأراد أن يكسر شوكتهم و يتخلص منهم باشراكهم في الحرب هذا من جهة، ومن الجهة الاخرى فإن قائد الأسطول البيزنطي " فيمي euphemiu" أعلن تمرده علي الإمبراطور ميخائيل الثاني الذي أمره بمواجهة الجيش الإسلامي حيث استولي هذا القائد علي مدينة " سرقوصة psiracuse " و نصب نفسه ملكا علي صقلية و لكن أتباعه و جنده خرجوا عليه

---

[1] ابن عذاري م.ن ص 97.

[2] د. السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير ج 2 ص 285.

فتمكن والي مدينة " بلزم palemo" من هزيمة فيمي والاستيلاء علي سرقوصة فلم يسع فيمي إلا اللجوء إلي الأغالبة حيث ساعدهم علي فتح الجزيرة اقلع أسطول الأغالبة و هو مؤلف من مائة مركب فيمي و استولي علي حصون كثيرة وحاصروا سرقوصه برا وبحرا وجاءتهم الإمدادات من أفريقية و بعد مناوشات بين الطرفين فتحوا مدينة بلزم وهي الميناء علي الساحل الشمالي للجزيرة و استمر جيش الأغالبة يحاصر المدن ثم يدخلها حتى سنة 223 هـ حيث توفي زيادة الله فلم يهنوا و قاتلوا الروم و هكذا بقيت جزيرة صقلية طوال عصر الأغالبة مركزا لجهاد البيزنطيين ولم يكتف الأغالبة بهذه الجزيرة بل أغاروا علي جزيرة مالطة و احتلوها " [1]

لقد حكم إمارة الأغالبة بعد وفاة زيادة الله بن إبراهيم سنة 223 هـ عدد من الأمراء تميزت عهودهم بالاستقرار والهدوء، وهو أمر طبيعي لان الأمراء الأول كرسوا قوتهم لكي يذبوا عنها الأخطار ومؤامرات المعرضين والمناوئين والثوار و إرساء دعائمها علي أسس متينة وتوطيدها بانتهاج سياسة داخلية تقوم علي الإصلاح وإرضاء الرعية و تطمين مصالحها. ونستدل علي قوة الأغالبة ومنعت إمارتهم بناءهم لمدينة العباسية سنة 227 هـ بالقرب من مدينة تاهرت وذلك علي الرغم من قيام الرستميين بتخريب هذه المدينة [2]غير أنها ظلت قائمة رمزا للتحالف بين الأغالبة و العباسيين.والظاهر أن اهتمام الأغالبة بإقامة المدن والمنشآت والمساجد و القناطر وحفر المراجل(البرك لخزن المياه)علي شكل صهاريج واسعة مستديرة لمياه الشرب والري، وبناء أسوار المدن والحصون والمحارس علي ساحل البحر [3] إنما يدل هو الأخر علي فترات الانتعاش والهدوء السياسي الذي ساد منطقة الأغالبة ففي 252 هـ قام محمد بن حمدون الأندلسي المعافري وهو أحد وجهاء القيروان ببناء المسجد المنسوب إليه في القيروان [4]

---

[1] ابن عذاري، المصدر السابق ص 102 – 106 ابن الأثير المصدر السابق ص 187 ابن خلدون، المصدر السابق ص 426، د. إحسان عباس، العرب في صقلية ص 32.

[2] ابن الأثير، المصدر السابق ص 293.

[3] ابن خلدون، المصدر السابق ص 431.

[4] ويعرف بمسجد الأبواب الثلاثة فقد بني بالآجر و الجص و الرخام وتعد زخارف واجهته من أروع الزخارف (د. السيد عبد العزيز سالم المغرب الكبير ج2 ص 399.

وذلك في عهد الأمير أبي الغرانيق محمد بن أحمد 261/205 هـ، كما أقام الأمير إبراهيم بن أحمد 289/261 هـ مدينة قادة وبني فيها جامع الفتح سنة264 هـ[1]

أما مظاهر الصراع علي السلطة في إمارة الأغالبة، فيبدو واضحاً فـــي الفتـــرة الواقعة من 231 –290 هـ ولعل أوضح صورة لهذا الصراع ما جري بين الأمير أبي العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم 226 – 242 هـ وأخيه أبي جعفر أحمد بن الأغلب، حيث كان هذا الأخير ساخطا علي أخيه بسبب تسلط وزيره علي أمور الإمارة، وكان من نتيجة خروجه علي أخيه أن استصفي خصومه واستأثر بالسلطة لنفسه ولم يبق لأخيه غير الاسم ولكن أحمد بن الأغلب عمد إلي تـــدبير مـــؤامرة للقبض علي أخيه و أعوانه و نفاهم إلي مصر[2] وكذلك ما حدث بعد تولي الأميـــر أبي العباس عبد الله بن إبراهيم حيث نسج له ابنه زيادة الله مؤامرة لقتلـــه غيـــر أنها كشفت فقبض علي زيادة الله و أودع السجن و لكنه عول علي فتيان الصقالبة فأمرهم بقتل أبيه [3] فتولي زيادة الله بن إبراهيم الإمارة سنه 290– 296 هـ و قرر الانتقام من أعمامه فنفاهم ثم قتلهم وقتل الفتيان الصقالبة الذين قتلوا أخاه أبا عبد الله الملقب بالأحول[4] .

ومن المحتمل أن تكون سلسلة الثورات بوجه الأمراء والأغالبة قد أوهنت فـــي قواهم و جعلتهم لا يقوون علي مواجهة أي خطر خارجي قـــد يتعرضـــون لـــه و بخاصة بعد أن استكملت حلقات هذا الوهن بالصراع علي السلطة الـــذي أضـــعفهم كثيراً أمام تدفق الخطر الفاطمي الذي راح يهدد بلاد المغـــرب برمتهـــا والتهـــام إماراته ودوله والقضاء علي قواه السياسية والعسكرية خلال هذه الفترة.

---

[1] ابن الأثير، المصدر السابق ص 5 ن ابن خلدون، المصدر السابق ص 431.

[2] ابن عذاري، المصدر السابق ص 108، ابن الأثير، المصدر السابق ج 5 ص270، ابـــن الخطيـــب، المصدر السابق ص 21.

[3] ابن الأثير، المصدر نفسه ص 103.

[4] ابن عذاري المصدر نفسه ص 135 – 136.

ونعتقد أن الخاتمة التي وضعها الفاطميون لإمارة الأغالبة كانت خطة محكمة تنطوي على الإعداد المسبق لها وقد تم اتخاذها من قبل قائدهم أبي عبد الله الملقب بالمحتسب حيث زحف بجيشيه بطريقه أرهبت أعدائه وأدخلت في قلوبهم الهلع والخوف، فلم تصمد جيوش الأغالبة أمام زحف الجيوش الفاطمية لثلاث مرات [1] حيث تقدم لإسقاط المدن واحتلالها مبتدئا في مدينة طنبة وبلزمة وباغاية وتيجسي وقصفة وبلاد قسطيلية والأربس وكذلك مدن مجانه وتيفاش وسبيبه وقموده وسكيانه وتبسه ثم القصرين[2] وأمام هذا التقدم الظافر للجيوش الفاطمية لم يقو زيادة الله على الصمود وقرر الهرب الى مصر فخرج متخفيا ليلا مع وجوه قومه وفتيانه وألف من عبيده الصقالبة وأفرغ ما في خزائن الإمارة من ذهب وجوهر ورحل من رقادة[3] تاركا إمارته أمام رحمة العساكر الفاطميين حيث أسدلت عليها الستار وسقطت سنة 296 هـ.

القيروان عاصمة بني الأغلب:

اختط عقبة بن نافع الفهري، مدينة القيروان وأسسها لأغراض عسكرية ودينية سنة 50 هـ/670 م في منطقة تونس وبنى في وسطها مسجدها الجامع وقد بقيت هذه المدينة ردحاً من الزمن مركزاً لجميع بلاد المغرب الإسلامي وعاصمة لافريقية[4] ويقدم لنا أبي عبيد البكرى، معلومات مفيدة عن القيروان تلقي ضوءا عن أحوالها الاجتماعية و العمرانية و تساعدنا على القول أنها كانت نموذجا للمدينة الإسلامية في خططها ومنشآتها ودروبها وفنادقها وحماماتها وأبوابها و أسوارها[5] لذلك فقد اتخذها الأغالبة حاضرة لهم و عاصمة لدولتهم سنة 184 هـ

---

(1) ابن الأثير، المصدر السابق ص 130.

(2) ابن عذاري، المصدر السابق ص 141، ابن الخطيب ص 42، ابن خلدون ص440.

(3) تذكر المصادر انه لما اتصل الخبر برقادة إلى زيادة الله علم أن الأمر خطير و أن الامارة قد انقرضت فاستعد للهروب و اخذ في رفع الأموال و أصبح الناس غداة تلك الليلة إلى قصور زيادة الله فانتهبوها و اخذوا الأموال منها) ابن عذاري، ص147، ابن الطيب ص 42 ، ابن خلدون ص 441.

(4) ابن الخطيب، أعمال الاعلام ق 3 ص 9 هامش رقم (1).

(5) المغرب في ذكر بلاد أفريقية و المغرب ص 25.

فاكتسبت أهمية بين أمصار المغرب و قواعده ومدنه حتى وصفت بأنها " أم أمصار وقاعدة أقطار و كانت أعظم مدن المغرب قطراً و أكثرها بشراً ".[1]

ويكمن القول أن التطور العمراني والاجتماعي التي شهدته القيروان في عهـد الأغالبة إنما كان بسبب مركزها السياسي والـديني وموقعهـا الجغرافـي حيث تشخص علي الطرق التي تودي إلي الأندلس والمغربين الأوسط والاقصي من جهة و المشرق الإسلامي وموانئ الطرق التجارية الواقعة علي شاطئ أفريقية من جهة أخري ويذهب الدكتور الحبيب الجنحاني الي القول أن خطط القيـروان ومنشـاتها ومسالكها تعطي فكرة واضحة عن أهمية التقدم المعماري فقد بلغ طـول الشـارع التجاري الرئيسي فيها المسمي" سماط القيروان " ميلين وثلثاً أي بما يزيـد عـن الثلاثة كيلو مترات ونصف، ولا شك في أن هـذا يـدلل علـي سـعة المدينـة و ضخامتها وتعدد مرافقتها و تشابك المصالح فيها [2]

ويبدو أن الأغالبة قرروا أن يقتفوا أثر المدراريين والرستميين والأدارسة فـي تأسيس مدن تمثل وجودهم السياسي والاجتماعي مثل سجلماسة وتاهرت وفـاس فشرعوا في إقامة مدينة العباسية جنوبي القيروان ليتخذوها مقراً ومركزاً لهـم[3] وللأسف لا توجد لدينا معلومات كثيرة ومفصلة عن هذه المدينة سوي النتف التي يذكرها ابن عذاري التي جاء فيها أن إبراهيم بن الأغلب شرع سنة 185 هـــ أي بعد سنه واحدة من قيام إمارته في القيروان في بناء مدينة " القصر القديم " الذي هو نفسه مدينة العباسية علي الأرجح، وربما كان هذا القصر في بدايته داراً غير رسمية للأمير إبراهيم بن الأغلب ثم صار بعد ذلك " دار أمراء بني الأغلب " حيث

---

[1] الادريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ص 110.

[2] المغرب الإسلامي ص 53.

[3] ربما كان الاغالب يتشبهون بخلفائهم العباسيين أو بالأمويين في الأندلس كـانوا ينشـئون لـدولهم عواصم ملكية غير العواصم التقليدية التي كانت تضم طبقات و فئات اجتماعية قد لا يتوفر فيها الإخلاص لهم كما هو الحال بالنسبة للعباسيين عندما تركوا الكوفة و اتخذوا لهم الهاشمية مقرا ثم كيـف أنشـأوا بغداد في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور ثم سامراء في عهد الخليفة المعتصم بـالله و كيـف تركـوا الفسطاط و انشأوا مدينة العسكر في مصر و كيف بنى عبد الرحمن الناصر مدينة الزهراء و محمد ابـن ابي عامر الزاهرة في الأندلس.

نقلوا إليه السلاح والعدد سراً وأقاموا فيه وأسكنوا عبيدهم وأهل الثقة من خدميهم[1] وأن إبراهيم بن الأغلب هو الذي أطلق عليه اسم "العباسية" [2]تعبيراً عن ولائه لحلفائه العباسيين ولكن المؤرخ النفوسي يشير إلى أن الأغالبة في عهد أبي العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم أقاموا مدينة العباسية سنة 239 هـ في بلاد الجريد[3] لتكون قاعدة عسكرية ينطلقون منها ضد الرستميين و عاصمتهم تاهرت ولمنع الأخطار المحتملة منهم فضلا عن منافستها للعاصمة الرستمية في تجارة مرور القوافل غير أن الرستميين أفلحوا في تدميرها وحرقها لاتقاء خطر الأغالبة في المنطقة [4].

وأغلب الظن أن مدينة أبي العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم هذا تمثل المحاولة الثانية لإقامة مدينة بالاسم نفسه بعد عباسية إبراهيم بن الأغلب، أو إن الأول أقام المدينة نفسها بعد تخريبها من قبل الرستميين وأقام الأمير إبراهيم بن محمد 261 – 289 هـ" المدينة رقادة سنة 263 واتخذها داراً ووطناً انتقل إليها من مدينة القصر القديم" العباسية "وبنى بها قصورا عجيبة وجامعاً وعمرت بالأسواق والحمامات والفنادق وغدت دار ملك لبني الأغلب " [5] ثم أصبحت هذه المدينة مركزا مهما من مراكز التجارة والعلم والحضارة بيد أن مدينة القيروان التي اعتمدها الأغالبة قاعدة لهم لم تبق محتفظة بدورها كمركز سياسي واقتصادي وحضاري فحسب بل أنها وصلت إلى أوج تطورها العمراني والاجتماعي والثقافي فهي" لم تزل دار ملك لبني الأغلب إلى أن هرب زيادة الله منها وهو آخر أمرائهم[6]

---

[1] البيان المغرب ص 92 – 93.

[2] ابن الأثير، الكامل ج 5 ص 154 ح ابن خلدون، العبر ج 4 ص 419.

[3] الأزهار الرياضية ج 2 ص 189، انظر د. محمود إسماعيل، الخوارج في المغرب الإسلامي ص 143

[4] البلاذري، فتوح البلدان ص 227 ابن خلدون، المصدر السابق ص 200 – 201.

[5] ابن عذاري، البيان المغرب ص 94.

[6] البكري، المغرب في ذكر أفريقية و المغرب ص 27.

العلاقـــــات السياسيـــة

الأمراء الأغالبة و الخلفاء العباسيين:

اتخذت علاقات بني الأغلب منذ قيام إماراتهم بإيعاز من الخليفة هارون الرشيد، مع الخلفاء العباسيين طابعا وديا اتسم باستمرار صلات التحـــالف، وكـــان تـــولي الأمراء الأغالبة لولاياتهم قد استلزم عهدا بالولاية "التقليد" من الخلافة في مقابـــل التبعية الاسمية لها، وقد جري الأمر بهذا الشكل منذ تولي إبراهيم بن الأغلب سنة 184 هـــ وحرصت الخلافة أن تكون علاقاتها مع الأغالبة تسير علي نمط واحـــد في جميع العهود، ويبدو أن الأغالبة حرصوا من جانبهم كذلك علي ديمومتها بهذا الإطار ما استطاعوا إلي ذلك سبيلا، ولكن من المحتمل جدا أنهم كـــانوا يراعـــون الظروف السياسية التي كانت تمر فيها إماراتهم وهي بين حشد من الأعداء ففـــي حين تحتم عليهم الاستجابة للعباسيين وتلقي " أوامرهم وإجراءاتهم التي في كتبهم "[1] فإنهم كانوا في أحيان أخري يفضلون الابتعاد عن مناجزة أية قوة سياسية أو مناهضتها والإحجام عن إذكاء أو تشجيع ما يؤدي إلي الخصومة والعداء معها فهم في ذلك يؤثرون حياة الهدوء والموادعة ولكنهم في ظروف أخري لم يعدموا إزاء الضغوط العباسية وسياسة التبعية، العمل علي مناهضة الكيانات القائمة وإرسالهم للعملاء والصنائع لغرض التطوح بها كما فعلوا مع الرستميين والأدارســـة وبنـــي مدرار وأمويي الأندلس.

ومن الواضح، أن الأغالبة بكونهم أداة الخلافة العباسية وعمالها فـــي أفريقيـــة ورمزا لنفوذها الوحيد في جميع بلاد المغرب الإسلامي، فإنهم يعجزون في كثيـــر من الأحيان عن تقديم صورة بلون آخر لمواقفتهم وعلاقاتهم مع القوي والفئـــات والعناصر، وذلك لان هذه القوي قد تأصل عداؤها للعباسيين ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تستبدل نظرتها تجاه الخلافة، فإذا شاء الأغالبة اتخاذ مواقف وعلاقات جديدة معها، فعليهم أن يعيدوا النظر في علاقاتهم مع العباسيين وأن يعلنوا شجبهم

---

[1] ابن خلدون، العبر ج 4 ص 422، ابن الخطيب، أعمال الأعلام ق 3 ص 17.

لسياسة العداء التقليدي التي تنتهجها الخلافة و نبذ الأحقاد القديمة و تطبيق سياسة تقوم على التقارب و الموادعة و تحاشي التدخل و الشقاق.

ومن الجدير بالذكر أن كلا الطرفين العباسيين والأغالبة إذا كان حقا يغفلان العداء السياسي و إسقاطه من سجل العلاقات مع بعض العناصر في المغرب الإسلامي فإن هذه العناصر لا يسعها نسيان الخلافات المذهبية و العقائدية، مما يجعل أي مسعى من جانب الأغالبة للتوفيق معها غير مثمر لذلك ينكب الأغالبة على تدبير المكائد و إحداث الشقاق بين هذه القوي و مناهضة حكامها [1]

وتفيض المصادر المتوفرة بمزيد من التفصيلات حول إمعان بعض أمراء الأغالبة في السير بهذا الطريق جريا على سنة الخلافة وتنفيذا لمشيئتها غير إنهم في ظروف معينة لا يسمعون فيها صوت الخلافة، ينتج توتر في العلاقات معها تضطرهم في نهاية الأمر، إما إلى الاستلام لمشيئتها و إما إلى التهديد و الوعيد بالخروج عن طاعتها [2].

وغني عن البيان، أن قيام إمارة الأغالبة لا يمثل في الواقع إلا استغلالا محدود الأفق، استقلال في السياسة الداخلية، أما تقرير سياستهم الخارجية وعلاقاتهم في المنطقة فتحكمه توجيهات الخلافة و أوامرها كما أنهم لا يملكون حتى التصرف بممتلكات العباسيين و شؤون أفريقية مما يجعلهم عاجزين في بعض الأحيان حتى عن الدفاع عن أنفسهم فالعباسيون لم يقدروا أن ينجدوا حلفائهم الأغالبة ويحولوا دون سقوط إماراتهم بيد الفاطميين الأمر الذي حدا بزيادة الله إلى تأكيد تحالفه مع الخلافة وطلب النجدة منها فأرسل كتابه إلى الخليفة المكتفي بالله ومعه هدية[3]

---

[1] ابن عذارى، البيان ج 1 ص 107، 119، 122، 123، 131، 137؛ لسان الدين بن الخطيب، أعمال ص 26. ابن الأثير، الكامل ج 5 ص 253 259 ، 300 . ابن خلدون ، العبر ج 4 ص 428 ، 431 .

[2] ابن خلدون، المصدر نفسه ص 422. ابن الخطيب، المصدر نفسه ص 17 (انظر أيضا الفصل السادس من هذا الكتاب ص 13).

[3] وكانت الهدية تشتمل على مائة مثقال من الذهب و كتب في كل مثقال هذين البيتين من الشعر

يا سائرا نحو الخليفة قل له   أن قد كفاك الله أمرك كله

بزيادة الله بن عبد الله   سيف الله من دون الخليفة سله

(ابن عذارى، المصدر السابق ج 2 ص 137)

لإشعاره باستمرار العلاقات الرسمية بين الطرفين و انه على أهبة الاستعداد لصد الهجوم الفاطمي الذي كان يستهدف بنظر زيادة الله الوجود العباسي ونفوذه في المغرب و لكن لم تنفع محاولات الخليفة في حث أهل أفريقية على نصرة زيادة الله ومحاربة الفاطميين بكتاب أرسله وقرأه على الناس هناك[1] فقد واصل الفاطميون تقدمهم في أملاك الأغالبة واحتلوا مدنهم، فلما اتصل الخبر بزيادة الله و هو في رقاده أيقن أن إسناد العباسيين المعنوي و الروحي و العسكري له لا يقوى على الصمود أمام الفاطميين، فضلا عن أن أوضاع الخلافة هي ليست أحسن حالا مما آلت إليه إمارة الأغالبة من الضعف والوهن.

---

[1] وجاء فيه: ضرورة الوقوف صفا واحدا وراء الأمير المجاهد المطيع لأمير المؤمنين لقتال " عدو الله الخارجي الناجم بأطراف نواحي المغرب وأنصاره، أشياع الظلال وأوباش الجهال والباغين في الفتن وأن من كان مذهبه مذهب زيادة الله كانت وسيلته الوكيدة و قربته عند أمير المؤمنين و كان حقيقيا بالاجتباء له و الإحسان إليه و السكون إلى ناحيته وأمير المؤمنين مرتضي لأمره حامد لطريقته واثق من صحته معتمد عليه في الصقع الذي هو به " د. موسى لقبال، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية ص 289 نقلا عن مخطوطة النعمان بن محمد التميمي افتتاح الدعوة وابتداء الدولة مكتبة جامعة القاهرة رقم 24055) ابن عذاري، المصدر السابق ص 140.

الفصل الثامن

الدولة الفاطمية في بلاد المغرب

1- تمهيد

الفاطميــون

2- المهدية و استكمال قيام الدولة الفاطمية

- علاقات الدولة الفاطمية السياسية

"في نطاق المغرب الإسلامي"

أ- الفاطميون ودولة بني العباس

ب- جزيرة صقلية بين المواطنين والعباسيين

ج- تطلع الفاطميين نحو مصر

د- الفاطميون وأمويو الأندلس

الفصل الثامن

الدولة الفاطمية في بلاد المغرب

(197 – 365هـ / 909 – 975م)

تمهيد:

الفاطميون:

عرفوا بالإسماعيلية [1] أو السبعية أو التعليمية أو الباطنية [2] و لكنهم حرصوا أشد الحرص علي أن يعرفوا بالعلويين أو الفاطميين[3] بيد أن اسم العبيديين هو الشائع في الكتابات التاريخية و ذلك نسبة إلي عبد الله المهدي بن سعيد بن محمد الحبيب الذي ولد سنة 259 هـ في مدينة الكوفة و قيل في سلمية [4] و هو آخر الأئمة المستورين للإسماعيلية *.

يبدأ إهتمام الفاطميين ببلاد المغرب الإسلامي، بإرسال داعين من مقرهم في مدينة سلمية من بلاد الشام الواقعة بين حمص وحماه، إلي هناك، و هما عبد الله

---

[1] نسبة إلي إسماعيل بن جعفر الصادق، سادس الأئمة الاثنى عشرية.

[2] الباطنية، من يعتقدون أن لكل نص باطنا يدركه الخاصة من الناس بطريق التأويل، و قد لقبوا بالسبعية لقولهم أن ادوار الإمامة سبعة و الانتهاء إلي السابع هو آخر الدور و كذلك لان تدبير العالم السفلي منوط بالكواكب السبعة و أعلاها زحل، أما التعليمية فإن مذهبهم دعوة الخلق إلي التعليم من الإمام المعصوم و استخدام العقل (انظر: أبو حامد الغزالي فضائح الباطنية ص 11 – 7، (د. موسى لقبال: دور كتامه ص 203 هامش 41)

[3] لان أولاد عبيد الله المهدي هم أولاد فاطمة بنت النبي (ص) منهم علويين و لكن نسب هذه الأسرة كان و لا يزال موضوعا كثرت فيه آراء الكتاب و المؤرخين الاقدمين و المحدثين (انظر: د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية ص 57 – 79)

[4] ابن خلكان، وفيات الأعيان ج 1 ص 272.

* يرون أن الأئمة أو يمكن أن يكون ظاهرين جميعا بل ينبغي أن يستتر قسم منهم بتأثير الظروف و يلقب الأئمة المستورين بلقب " المستورون في ذات الله " وقد ترتب على ذلك قيام عدد من الأئمة المستورين بين محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق وبين ظهور الفاطميين (انظر: الشهر ستاني، الملل و النحل ج 2 ص 5، ابن أيبك الداوداري، الدرة المضية فى اخبار الدولة الفاطمية ج 6 ص 4)

بن علي بن أحمد المعروف بالحلواني وأبو سعيد الحسن بن القاسم، حيث زودوا بالوصايا في استمالة القبائل المغربية لدعوتهم و مراعاة الحذر والتستر.

وقد استطاع هذان الداعيان أن يكسبان أنصار في مدن تاله ومرماجنه والأربس ونقطة ومسكيانه ومجانه وسبيبة وباغاية، مما أوجد للحركة الفاطمية ركائز سياسية في نضالها في التاريخ اللاحق في هذه المنطقة ومعروف أن أكثر حركات المعرضة العلوية بوجه الأمويين أو العباسيين[1]، كان نصيبها الإخفاق ولكن نجاح الادارسة الذين يمثلون العلويين من الفرع الحسيني شكل إرهاصاً بنجاح فرع الحسنيين الفاطميين في إقامة اكبر دولة علوية في بلاد المغرب الإسلامي هي الدولة الفاطمية[2] ولكن قبل أن يتوج نضال الفاطميين بقيام دولتهم استطاعت معارضة العباسيين أن تزرع بذور الحركة الانفصالية التي أينعت بظهور مجموعة من إمارات المدن و المراكز في المغربين الأوسط والأقصى، التي لم يتح لها التوسع، وبقيت داخل حدودها، ويلاحظ أن أغلبها كان علوي الاتجاه[3]، ومن المعتقد أنها كانت إرهاصاً مكملاً لما سبقه من أجل النهوض الفاطمي العلوي.

---

[1] المسعودي، مروج الذهب ج 2 ص 199 ابن الطقطقي الفخري في الآداب السلطانية ص 201

[2] د. موسى لقبال، المصدر السابق ص 198 (أي أن الادارسة يرجع نسبهم ألى الحسن بن على بن أبي طالب، والفاطميون إلى الحسين بن علي بن أبي طالب.

[3] ومن هذه الإمارات: إمارة هاز ، قرب المسيلة يسيطر عليها الحسن بن سليمان بن سليمان بن الحسن بن علي ، و منطقة متيجة (قرونة) وهي مركز لمحمد بن جعفر الحسني وحوض الشلف الذي يشقه نهر الشلف أكبر انهار الجزائر حيث توجد فيه مدن ومراكز عدة ومدينة سوق إبراهيم التي كانت يسيطر عليها فرع علوي من بني الحسن أولهم إبراهيم محمد بن سليمان بن عبد الله و إمارة تمطلاس في مضارب قبيلة مطماطة وإمارة ايزرج وحاكمها إبراهيم بن محمد المعتزلي والمدينة الحسنه وتليها مدينة تلمسان وهي دار مملكة زناتة " ومدينة العلويين وكانت مركزا لمحمد بن سليمان ومدينة فالوس وإمارة تكور لبني سعيد بن صالح و ارشقول لبني محمد بن سليمان و جزيرة اشنول وهي مركز حصين لجأ غليه العلو يون و منهم الحسن بن عيسي بن أبي العيش و مدينة ترناتة قرب الساحل تلمسان و مدينة حمزة (البويرة) نسبت إلى حمزة بن الحسن بن سليمان و مدينة تنس بقرب البحر مركز لبني محمد بن محمد بن سليمان ثم اختص بها إبراهيم بن محمد اليعقوبي الذي كتب عنها (انظر البكري ، المغرب ص 63 – 88 ، د . موسي لقبال، المصدر نفسه ص 209 –213).

ويبدو أن انتهاء الداعيين عبدالله بن علي بن أحمد الحلواني وأبي سفيان بن الحسن بن قاسم اللذين أرسلهما الفاطميين بوفاتهما أدي إلي اختيار ما عرفته المصادر باسم " الداعي " وهو الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الذي يكني بأبي عبدالله وكانت له ألقاب عدة منها، الصنعاني والمحتسب والمعلم والصوفي والاحوازي[1] لكي يحل بأرض المغرب و يقود الدعوة الفاطمية بقوة السلاح، يذكر أن ابن عذاري أن أبا عبد الله التقي بعشرة من زعماء قبيلة كتامة في الحجاز و استمالتهم لدعوته واتفق معهم علي الرحيل إلي بلاد المغرب ليعبئ كتامة و بقية القبائل المغربية الاخري مثل عجيسة و زواوة ويكون قوة تستطيع أن تثبت أقدامها في هذه البلاد النائية من نفوذ الخلافة العباسية[2] .

وتبدأ بحلول أبي عبد الله لبلاد، مرحلة مهمة من مراحل اتصالاته و تقصيه للأوضاع والظروف في المنطقة حيث استطاع إن يوحد صفوف قبيلة كتامة للنهوض بأعباء الدعوة الفاطمية من الناحية العسكرية و كان يقول لهم: " إنا لا ادعوكم لنفسي وإنما ادعوكم لطاعة الإمام المعصوم من أهل البيت " ويبدو أن أول قوة يجابهها أبو عبد الله ويعلن تحديه لها هم الأغالبة و قد وجاء ما يشير إليه احد رجاله ليستطلع جلية الأمر لهذا الداعي بعد إن ظهر في مدينة" ايكجان " ولما عاد رسول الأمر كانت ردود أبي عبد الله علي رسالته تبعث علي الخوف وعدم الاطمئنان[3] حتى انه عُرف " أنه صاحب قطع دعوته " [4] وعلي الرغم من أن الأمراء الذين خلفوا إبراهيم بن أحمد قاوموا الحركة الفاطمية بجهود موفقة في

---

[1] يذكر المورخون انه لما اتصل بقائد العودة الفاطمية عبيد الله المهدي ووجد فيه الذكاء و النشاط ضمه إلي سلك دعاته ثم أرسله الي مركز تكوين الدعاة الماهرين في بلاد اليمن حيث يوجد كبير دعاتها منصور اليمني الذي رحب به ووضح " أن ارضي كتامة موطأة ممهدة لك " ثم أرسله إلى ارض كتامة (النعمان ، افتتاح الدعوة ، الورقة 27 ؛ النويري ، نهاية الأرب ج 26 الورقة 25).

[2] د. مرسي لقبال، المصدر السابق 128.

[3] النعمان،افتتاح الدعوة الورقة 79-80.

[4] ابن الخطيب، المصدر السابق ص 38-39.

مدن تازروت وميلة وايكجان غير أن الكارثة حلت بأسرة الأغالبة في مدينة الأربس/ حيث فر آخر أمرائهم زيادة الله إلي مصر ولكن كان من الممكن أن تشل الحركة الفاطمية ويبدد رجالها علي يد الأغالبة، لو لم يرتكب زيادة الله هذا بدافع الخوف علي نفسه و مركزه جرما كبيرا بقتله لأخيه أبي عبد الله محمد الملقب بالأحوال الذي أبانت الأحداث عن أهميته لاستمرار نظام الأغالبة وإمارتهم وقد وضح أن اختفاءه كان بداية النهاية لأسرة الأغالبة [1]

هذه هي الخطوة الأولي التي خطاها أبو عبد الله لغرض الدعوة الفاطمية في ربوع المغرب إما الخطوة التالية التي بدأ ينفذ خيوطها فهي التحركات العسكرية لإسقاط المدن والمناطق ومن ثم الإجهاز علي الإمارات و الدول الاخري ففي 289 هـ بدأت الأعمال العسكرية المنظمة فاتجهت صوب مدن الأغالبة لاجتاحها و كانت موقعة كينونه التي لصالح الجيوش الفاطمية، قد وضعت نهاية لمقاومة جدية من الأغالبة و سهلت تقدم الفاطميين مدن سطيف وبلزمة وباغاية وقرطا جنة و تبسه والقصرين في إقليم قمودة ثم الاستيلاء علي قسطنطينة وتيجي وقنصة ومن ثم دخلت جيوشهم مدينة الاربس مما أتاح لهم احتلال مدينة رقاد حيث تمت تصفية إمارة الأغالبة بالزحف النهائي علي القيروان فتراءي لأبي عبد الله انه لم يتبق أمامه سوي النهايات لاستحكام حلقات سيطرته التامة علي أهم بلد من بلدان المغرب فكتب إلي سيده عبيد الله المهدي يحثه علي القدوم إلي هذه البلاد فحل هذا الأخير متخفيا إلي مدينة سلجماسة عاصمة بني مدرار حيث أكرمه أميرها اليسع بن مدرار[2] ولعل اختياره للإقامة في سلجماسة كان بسبب إنها إمارة مستقلة سياسياً ومذهبياً عن العباسيين وحلفائهم الأغالبة غير أن وصول الجيوش الفاطمية إلي مشارف سلجماسة لإرغام أميرها علي الخضوع جعل هذا الأمير يأمر بالتضييق علي عبيد الله المهدي ووضعه في سجن انفرادي " سجن المطبق "

---

[1] د. نقبال ، المصدر السابق ص 263 .

[2] ابن الأثير، الكامل ج 8 ص 14، ابن خلدون، العبر ج 4 ص 70.

وتعريض أتباعه ومرافقيه للتعذيب مما ترتب عليه أحكام الفاطميين السيطرة على سلجماسة وهروب الأمير ورجاله ليلا في مجاهل الصحراء وعندئذ تم تحرير عبيد الله المهدي وأصبحت سلجماسة في إطار النفوذ الفاطمي.

وتوجه رأس الدعاة الفاطميين عبيدالله المهدي إلى رقادة عن طريق ايكجان[1] وبذلك يمكن القول أن قيام الدولة الفاطمية يبدأ بدخول هذا الأخير مدينة رقادة سنة 296 هـ كما يمثل ذلك بداية لظهوره بعد استتاره في قيادة الحركة السياسية الفاطمية علنياً بمساعدة قائد جيوشه وداعيته أبي عبد الله والظاهر أن الفاطميين كانوا يعولون على اتخاذ رقادة قاعدة لدولتهم ومنطلقا لجيوشهم بعد سقوط إمارة الأغالبة وذلك للوثوب على القبائل المناوئة لهم وتصفية القوي السياسية التي ما تزال تتشبث بالبقاء في المنطقة وقد اتخذ عبيد الله المهدي جملة من الإجراءات بعد نزوله في قصر الصحن ومقابلته لوفود الفقهاء ووجوه أهل القيروان الذين دعوا له وهنئوه وأظهروا له السرور بأيامه وسألوه تجديد الأمان لهم [2]، ولعل من أهم الإجراءات التي اتخذها لقب " المهدي أمير المؤمنين " واصطناع وجوه جديدة من رجاله بإسناد ومناصب مهمة لهم في الدولة مثل الإشراف على بيت المال و قضاء رقادة و ديوان الكتابة وديوان الخراج و الحجابة والتعيين على منطقة قابس وإثبات الموالي وأبناء العبيد في ديوان العطاء وضرب السكة [3].

غير أن قرار عبيد الله المهدي بتصفية قائد جيوشه ومؤسس دولته أبي عبد الله يمثل مرحلة جديدة للدولة الفاطمية الفتية حيث عمد إلى تجريده من سلطاته وإبعاد رجاله عنه ثم القضاء عليهم تدريجيا والإجهاز عليه واغتياله بخطة أعدها مع

---

[1] النعمان ، المصدر السابق الورقة 179.

[2] ابن عذارى ، المصدر السابق 158.

[3] م . ن .ص 158 -160.

رجاله وحاشيته والمقربين من أنصار أبي عبد الله [1] ويبدو أن من بين الأسباب التي دفعت عبدالله المهدي للتخلص من أقدر رجاله وأخلصهم له ما يزعم باتفاق أبي عبدالله وأخيه أحمد أبي العباس علي تحريض قبيلة كتامة وقبائل المغرب ضده والطعن في خلافته سرا وهو ما أشار إليه ابن خلدون حيث " دعا الناس إلي خلعه والقول أنه ليس الإمام المعصوم، فقال فيه المهدي أنه مفسد للهيبة " [2]

وقد أثار مقتل أبي عبد الله وأخيه [3] مشكلات بوجه الدولة الفاطمية، ربما هي في غني عنها في هذه الفترة الحرجة التي كانت تجتازها، حيث أظهرت بعض

---

[1] ذكر بن عذارى:" أن عبيد الله المهدي أمر عروبة بن يوسف الملوسي وجبر بن نحاسب الميلي ، أن يكمنا خلف قصر الصحن ، فإذا مر أبو عبد الله و أخوه أبو العباس طعنوهما بالرماح حتى يموتا فكمنا هناك مع جماعة من كتامه و بعث عبيد الله المهدي في أبي عبد الله و أبي العباس ليحضرا طعامه على جاري عادتهما معه . فلما مرا بالموضع الذي فيه الكمين فخرج عروبة عليهما فصاح أبو عبد الله بعروبة " لا تفعل يا ولدي " فقال له عروبة " أمرني بقتلك من أمرت الناس بطاعته و انخلعت له من الملك بعد توطئته " ثم طعنه بيد طعنه واحدة خر منها صريعا ووقعت في أبي العباس تسع عشرة طعنه و مكثا صريعين على صف الحفير المعروف بالبحر إلي ما بعد الظهر ثم أمر عبيد الله بدفنهما فدفنا في الجنان و قال عبيد الله : رحمك الله أبا عبد الله و جزاك في الآخرة بقديم سعيك و لا رحمك الله أبا العباس فإنك صددته عن السبيل و أوردته موارد الهلاك ". (البيان المغرب ج 1 ص 164)

[2] جاء أن أبا عبد الله حث رؤساء كتامه على امتحانه، و ذكروا أن شيخا منهم جاء إليه و قال له " جئنا بآية على أمرك فقد شككنا فيك " فقتله المهدي على الفور(العبر ج 4 ص 76).

[3] وكتب عبيد الله المهدي إلي أنصاره في المشرق " أما بعد فقد علمتم محل أبي عبد الله و أبي العباس من الإسلام فاستزلهما الشيطان فطهرتهما بالسيف و السلام " ابن عذارى المصدر السابق ص 165) و يروي هذا المؤرخ ما يدل على استمالة المقربين من أبي عبد الله لاغتياله قائلا:"إن أبا عبد الله نام يوما بحضرة أصحابه و عنده جماعة من دعاة كتامة فتحرك في نومه فانكشفت سوئته فنظر بعضهم إلى بعض ولم يقدموا أن يستروه فمد عروبة بن يوسف يده إلي الملحفة التي كانت عليه فستره بها و انتبه أبو عبد الله فقال:" من سترني إذا انكشفت ؟ فقالوا له عروبة فقال:" هو و الله قاتلي " فجعل عروبة يبكي بين يديه و يقول له:" يا سيدي: مر بقتلي فقال له:" لا سبيل إلي ذلك.. لكنك والله قاتلي " فكان الأمر كما ذكر.

بطون كتامة الخلاف علي عبيد الله المهدي [1] وقيام مجموعة من كبراء أهل القيروان بمعارضة سياسته ودبروا له مؤامرة لاغتياله [2] وثورة أهل طرابلس علي عامل الفاطميين[3].

وعلي الرغم من أن الفاطميين استطاعوا إخماد الثورات والفتن هذه ولكن كان عليهم أن يواجهوا احتمالات المستقبل المشحون بالأخطار و نزر الشر و مصاعب الحرب الحقيقية سواء في ميادين القتال ضد الإمارات و القبائل المعارضة أو في الحواضر و المدن المغربية الكبرى حيث كانت تضم فئات و عناصر معادية و مخالفة لهم مذهبياً، ويذهب الدكتور موسي لقبال إلي أن التحول الذي شهدته الحركة الفاطمية من دعاية سرية تمتلك أنصار متطوعين و حشد من الدعاة التاريخية إلي نظام دولة تقليدية مستقرة لها رئيس وموظفون رسميون وتقاليد ورسوم جديدة، أن هذا التحول فرض وضعا جديدا لأنصار الدولة من القبائل المغربية و بخاصة قبيلة كتامة، وأدى ي إلي حدوث انشقاق خطير بين بناة الدولة وأخص رجالها وإلي تصدع في صلب عقيدتهم [4].

---

[1] ابن عذارى، المصدر نفسه ص 165- 66.

[2] ومن هؤلاء المتآمرين: محمد بن أبي سعيد الميلي صاحب السوق، و عبد الله بن محمد المعروف بابن القديم و محمد بن أبي رجال الباغاني و أبي الوهب عمرو بن زرارة العبدري (م. ن ص167)

[3] يذكر ابن عذارى، إن أهل طرابلس أغلقوا أبواب المدينة و قتلوا من كان داخلها من كتامة و قدموا على أنفسهم محمد بن اسحق المعروف بابن القرلين، فأخرج إليهم عبيد الله المهدي جيشا و حاربهم شهورا، و ذكر أيضا خروج أبي القاسم بن عبيد الله لمحاربة طرابلس فوجه إليها خمسة عشر ركبا حربية فلما وصلت إلي طرابلس لخرجوا إليها مراكبهم فحرقوا الأسطول و قتلوا من فيه و سار أبو القاسم في البر نحو طرابلس فأوقع بأهل هوارة ثم نزل طرابلس فحاربها و حاصرها حتى أطلقوا الميتة فرغبوا الي أبي القاسم في الأمانة فأمنهم الا ثلاثة أنفس اشترط التحكم فيهم و هم : محمد بن إسحاق القرشي و محمد بن نصر و رجل يعرف بالحوححة فدخل طرابلس و تحكم فيها سنة 300 هـ) م . ن ص 167 -169.

[4] دور كتامة في تاريخ الدولة الفاطمية ص 332.

المهدية و استكمال قيام الدولة الفاطمية:

بعد الإطاحة بأبي عبد الله شرع عبيد الله المهدي بارتيـــاد موضـــع لتأســـيس عاصمة له لابد من القيروان، ليتخذها " عدة للشدة "[1] ولكي " تعتصم بها الفواطم ساعة من نهار "[2] فكان عبيد الله المهدي قد بدأ النظر فيها واستكمل فيها ســـنة 300 هـــ و استكمل سورها سنة 305 هـــ و تم الانتقال إليها سنة 308 هـــ[3] عندئذ قال : " أمنت اليوم على الفواطم "[4] ويوضح ابن عذارى " أنه فـــي ســـنة 300 هـــ خرج عبيد الله من مدينة رقادة مارا بتونس وقرطاجة ونـــواحي البحـــر فوقع اختياره على جزيرة جمة فابتدأ بنيانها واتخذها دار مملكته وهي التي تسمى المهدية "[5].

ومهما تكن البواعث لبناء الفاطميين مدينة المهدية وجيهة إلى حد ما يبقى مـــا أشار إليه البكري يستأثر بالاهتمام حول النوايا التي كان يضمرها أبو عبـــد الله و أنصاره من قبيلة كتامة للإيقاع بعبيد الله المهدي و خلعه[6] علـــى حـــذرهم هـــذا الأخير، يدل عليه ثورة الكتاميين في مدينة القيروان[7] أما مدينة رقادة التي ولدت فيها الدولة الفاطمية و سلطتها و مؤسساتها فإنها على ما يبدو لا تصلح لتطلعات المستقبل الذي ربما يحمل بين ثناياه الحاجة إلى قاعدة عسكرية يمكـــن الاعتمـــاد عليها في التوسع صوب مصر أو الأندلس حيث: " استكثر بها من العدة والخـــزين "[8]أو الاحتماء بها من الغزاة و الطامعين و جعلها موقـــع مواجهـــات

---

[1] ابن الخطيب، المصدر السابق ص 50.

[2] ابن خلدون، المصدر السابق ص 79.

[3] البكري، المصدر السابق ص 25 -30.

[4] ابن خلون، المصدر نفسه ص 80.

[5] البيان المغرب ص 169.

[6] م. ن. ص 30.

[7] وكذلك ما أشار إليه عذارى عن ثورة الكتاميين في القيروان حيث قدموا على أنفسهم حـــدثا اسمه كانوا بن معارك ويعرف بالمالطي وزعموا أنه المهدي المنتظر (م. ن ص 166).

[8] ابن الخطيب، المصدر السابق ص 50.

قوية و صامدة أمامهم أو لجعلها مركز انطلاق لإخماد أعـداؤه أو أنصـاره فـي الأمس من الكتاميين.

حرص الفاطميون بجعل عاصمتهم الجديدة المهدية ميناءاً بحرياً وعسكريا ومن ثم تجاريا لذلك اختاروا موضعها في جزيرة متصلة بالبر " كصورة كـف اتصـلت بزند "[1] والبحر قد أحاط بها من ثلاث جهات ويمكن الدخول إليها مـن الجانـب الغربي،[2] وكان لها "بابان من الحديد لا خشب فيهما وقد نُقش عليهما تخطيطـات لرسوم الحيوانات"[3] حيث تغلق هاتان البوابتان فيحكم تحصينها و يصعب الدخول إليها أماناً وعنوة.

أما مرسي السفن في المدينة فهو منقور في صخر صلد يسع ثلاثين مركبا من المراكب القادمة من الإسكندرية أو الشام أو صقلية أو الاندلس وقد حصـن هـذا المرسى بسلسلة من الحديد لتمنع أساطيل البيزنطيين من الاقتراب إليها وجعل في المدخل الوحيد علي المدينة ستة عشر برجاً للرصد والمراقبة. كمـا أقيمـت دار صناعة السفن علي غرار مدينة تونس وهي رصيف ترسوا فيه السفن يسع أكثـر من مائتي مركب، و فيها قبوان كبيران طويلان يغطي المراكب الراسية أو الجائمة بعد تصنيعها و آلاتها فيقيها من الشمس و المطر[4].

ويذكر ابن عذاري الاستحكامات الحربية في المهدية بقوله:" و بها دار صنعة الإنشاء العجيبة، و يخرج الجفن معموراً من خلف السور فلا يعلم به حتى يفاجـأ القاصد فيحيط به فلا يقربها العدو لأجل ذلك "[5]

إن تطلع الفاطميين إلي مصر والاستحواذ عليها بات يشغلهم فعدوا للأمر عدته باتخاذ عاصمتهم في شبه جزيرة قريبا من تونس ووسوسه وصفاقص وقفصـه، وهي مراكز بحرية مهمة ترتبط بخطوط التجارة البحرية مع الإسكندرية. لكي يتاح

---

[1] ابن خلدون، المصدر السابق ص 79.

[2] البكري، المصدر السابق ص 25.

[3] م. ن ص 29.

[4] البكري، المصدر السابق ص 30.

[5] ابن عذاري، المصدر السابق ص 207.

لهم تحقيق أهدافهم التوسعية في مصر علي المدى البعيد من جهة والاعتماد علي أسطولهم في حماية عاصمتهم وتموينها عن طريق البحر إبان الأزمات من جهة أخري فضلا عما يترتب عليه من مكاسب سياسية و عسكرية في بلاد المغرب الإسلامي عامة.

ويخيل إلينا، أنه باكتمال بناء المهدية حسبما خطط لها عبيد الله المهدي بهذا الإطار برزت الدولة الفاطمية، دولة مقتدرة استطاعت بأمد ليس بالقصير أن تنفذ أهدافها البعيدة التي رسمتها أو في التوسع أو إخضاع الإمارات والدول في المنطقة وفيما يتعلق بالأندلس التي كان للفاطميين فيها مطامع توسعية فلم يكن من المستطاع تحقيقها حيث برز لهم حكام الأندلس وهم يذبون عن بلادهم تدخلات الفاطميين وتحرشاتهم في شئونهم الداخلية ومنعوهم من التقرب إلي سواحلهم بل درج هؤلاء الحكام علي الاجتراء علي مناطق الفاطميين في بلاد المغرب وأخذوا يناجزونهم في عقر دارهم مما أقنع عبيد الله المهدي باستحالة إسقاط الحكم الأموي هناك كما يتعذر القيام بالعمليات العسكرية ضدهم فألجأهم إلي تكرار محاولاتهم إلي مصر للمرة الثالثة حيث تكلل بالنجاح في عهد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله سنة 358 هـ [1]

---

[1] م. ن. ص 228.

علاقات الدولة الفاطمية السياسية

(في نطاق المغرب الإسلامي)

الفاطميون و دولة بني العباسي:

يمثّل قيام الدولة الفاطمية في المغرب الإسلامي وسيطرتها علي مصر فيما بعد منعطفا في التاريخ الإسلامي حيث شيدت حكما يقوم نظام الخلافة بغية تحدي القوي والعناصر السياسية و تقليص نفوذهما ومن ثم الإجهاز عليها أن لم يكن في جميع أنحاء العالم الإسلامي ففي بلاد المغرب في الأقل.

وكان العباسيون ينظرون إلي محاولات الفاطميين بزرع نفوذهم في بلاد المغرب وإقامة دولتهم هناك علي أنها تحد سافر لنفوذ الدولة العباسية الروحي والسياسي يجب بالأنظمة التي تدين لهم بالتبعية وفي مقدمتها إمارة الأغالبة وحث رعاياهم علي الوقوف صفا واحدا وراء هؤلاء المطيعين لأمير المؤمنين لقتال:" عدو الله الخارجي النجم بأطراف نواحي المغرب وأنصاره من كتامه أشياع الضلال و أوباش الجهال والباغين في الفتن لتطرفهم وقسوتهم علي غيرهم من المسلمين و إشاعتهم الفرقة والانفصال في المنطقة "[1]

لقد شعر العباسيون بخطر الفاطميين الحقيقي ليس بالاستحواذ علي بلاد المغرب فحسب و إنما علي جميع البلاد الإسلامية فراحوا يعملون علي تحشيد جميع المؤمنين بقدسية الخلافة العباسية و رسومها الدينية والسياسية و العسكرية و لكنهم في حقيقة الأمر كانوا بذلك يعبئون مشاعر فاترة تجاه الخلافة التي ساءت ظروفها في المشرق بسبب نشاط الحركات المضادة و تسلط العنصر التركي و هيمنته علي مقدرتها و حتى أننا لم نسمع عن اهتمام الخلافة العباسية بالتصدي للخطر الفاطمي بعدما أصيب الأغالبة بالهزيمة و السقوط.

---

[1] انظر موضوع " الأغالبة ودولة بني العباس " من هذا الكتاب ص هامش رقم .

جزيرة صقلية بين الفاطميين و العباسيين:

كان من المفروض أن تؤول صقلية إلي النفوذ الفاطمي بعد سقوط الأغالبة لكننا نقرأ أن تحركا عباسيا ضد إجراءات الفاطميين بإرسال واليهم الحسن بن أحمد بن علي بن أبي المنهال، وهو تحريك عملائهم في الجزيرة وتحريضهم ضد السلطة الجديدة التي لم تواجه بأدنى مقاومة في بداية الأمر، مما اضطر الفاطميين إلى تعيين وال أخر هو بن عمر البلوي سنة 299 هـ الذي نشط في الوقوف ضد حركة المقاومة التي أثمرت بانتفاضة ضد الفاطميين و لم تمض إلا فترة قصيرة حتى ظهرت بوادر و اتجاهات للثورة التي كان يغذيها العباسيون بموافقة الخليفة المقتدر بالله و بقايا أسرة بني الأغلب في الجزيرة.

حيث آلت بالإطاحة بالوالي الفاطمي وأعيدت الخطبة و الدعوة للعباسيين ويذكر بن عذارى إن أهل صقلية قدموا علي أنفسهم أحمد بن زيادة الله بن قرهب سنة 300 هـ وكتب الخليفة المقتدر بالله ببغداد بأن يكون 11 داعيا لهم وقائما بأمر هلا بجزيرة صقلية فأنفذ المقتدر ذلك لهم وبعث لهم بألوية سود وخلع سود وطوق ذهب[1] مما جعله يستمر في الثورة ضد الفاطميين.

وظلت المناوشات بين الفاطميين و العباسيين من اجل السيادة في جزيرة صقلية حتى سنة 336 هـ، إذا ولي الفاطميون بعد فرض سيطرتهم التامة عليها وإبعاد أي أثر للنفوذ العباسي عنها، الوالي الحسن بن علي بن أبي الحسن الكلبي الذي أصبح رأس أسرة عربية جديدة في صقلية هي أسرة الكلبيين التي استمرت حتى الاجتياح النورماني للجزيرة في نهاية القرن الخامس الهجري.

ويبدو لنا، أن التنافس بين القوي والمجموعات الإسلامية الكبرى وبخاصة بين الدولتين الفاطمية والعباسية حول توسيع مناطق النفوذ والسيطرة المباشرة وتغييب المصالح و طغيان الطموح كان علي حساب المجموعات الصغيرة في صقلية مما جعلها فريسة للفوضى وفقدان الأمن الأمر الذي أودى بضياعها

---

[1] البيان المغرب ج 1 ص 168.

وإنفصالها نهائياً عن البلاد الإسلامية ومن المبالغة القول أن سياسة الفاطميين وحدها هي المسئولة عن ذلك، بل يمكن تحميل العباسيين أيضا قسطاً كبيراً من عدم الشعور بالمسئولية عن تفريق القوي الإسلامية وبعثرتها والحفاظ علي البلدان التي أصبحت جزءا لا يتجزأ من العالم الإسلامي وخاصة جزيرة صقلية حيث كانت مركزا للحضارة والعلم ومصدرا لإشعاعات الثقافة الإسلامية، وقد احتلت شهرة واسعة في جميع أنحاء العالم الإسلامي طوال الحكم العربي فيها وبعده بقرون عدة فأنجبت العديد من العلماء والفقهاء والشعراء ذاع صيتهم وانتشر أثرهم.

تطلع الفاطميون نحو مصر:

أن سعي الفاطميين لبسط نفوذهم على مصر ومناطق بلاد الشام والحجاز لا يشكل لديهم تكنيكا سياسيا وعسكريا آنيا فحسب بل هدفا من أهدافهم الاستراتيجية في تعبيد طريق المشرق أمامهم وذلك على الرغم من أن الخلافة العباسية وقتها كانت تمتلك شيئا من القوة والنفوذ. حيث كانت لهل السيطرة علي ولايتي الشام والحجاز.

لقد توضح التخطيط الفاطمي بالتقدم نحو طرابلس وبرقة ومشاغلة ولاة مصر العباسيين لتمهيد الطريق نحو مصر. لذلك عول الفاطميون على قاعدتي طرابلس وبرقة اللتان كان لهما أهمية كبيرة في الوصول إلى الإسكندرية لأنهما من المراكز الأمامية القريبة من مصر كما وصفتا بأنهما "باب مصر" وينبغي علي الفاطميين ولوجها ولكن قبل ذلك أرسل الخليفة القائم بأمر الله الفاطمي كتاباً لاستمالة محمد بن طغج الأخشيدي الذي كان يحكم مصر ليهون عليه مسألة الانفصال عن العباسيين[1] وكاد هذا الأخير أن يستجيب لمضمونه لولا تأثير مستشاريه وأعوانه الذين عدلوه عن الخطبة للفاطميين مما حدا بالخليفة المعز لدين الله الفاطمي تبني سياسة أباءه وأجداده فيما يتعلق بالتعرض إلي البلاد المصرية ونتيجة لذلك لم يشأ الفاطميون إلا أن يرغموا العباسيين علي التراجع حيث أسقط بأيديهم إذ رأوا تقدم

---

[1] ابن سعيد المغربي، المغرب في حلا المغرب ج 1 ص 175.

الجيوش الفاطمية نحو مصر يقودها أبو الحسن جوهر بن عبد الله الصقلي[1] حيث دخلت مدينة الإسكندرية دون مقاومة ثم تقدمت نحو مدينة الفسطاط وفرضت سيطرتها على المدينة بالرغم من المقاومة التي أبداها الإخشيديون[2] وقطع الفاطميون بذلك الخطبة للخليفة العباسي المطيع لله والدعوة للمعز لدين الله الفاطمي ولآبائه في المسجد العتيق و إزالة شعار العباسيين، و استهلت دار الضرب نشاطها بسك دنانير جيدة العيار[3] نقش عليها تاريخ الفتح واسم المعز لدين الله وشعار الفاطميين[4] وزاد الفاطميون باتخاذ مصر مقرا لدولتهم بتأسيس مدينة القاهرة سنة 360 هـ و جعلوها

عاصمة لهم [5]، أما القيروان أو المهدية فلم تكونا لتصلحا حاضرتين لدولة الفاطميين الكبرى لما يستدعيه اتخاذ الحاضرة في موضع يسهل معه التواصل مع

---

[1] وهو من مسلمي صقلية و قد عرف بالرومي ولكن الغالب الصقلي لان صقلية أصبحت بلد إسلامية ينتسب إليها (انظر ترجمته في أبي الفدا المختصر في أخبار البشر ج2ص115،ياقوت،معجم البلدان ج5ص372، وما كتبه عن جوهر الصقلي الدكتور موسى لقبال،دور كتامة ص483) .

[2] ابن عذاري، م.ن ص228،ابن الخطيب م.نص58-59 المقريزي اتعاظ الحنفا بذكر الائمة الحنفا ، ص147).

[3] تزيد فيها نسبة معدن الذهب عن المعادن الأخرى المسبوكة.

[4] وشعارهم ينطبق (علي أفضل الوصيين وزير خير المرسلين) المقريزي المصدر السابق ج1 ص115-116، النويري، نهاية الأرب ج26 ص41.

[5] اختطها القائد جوهر الصقلي سنة 358 هـ، وتقع في السهل الرملي الممتد في شمال شرق الفسطاط، يحدها من الشرق جبل المقطم و من الغرب ترعة الخليج المتفرعة من النيل. وكان لها سور سميك يمر فوقه فارسان جنبا إلى جنب وفي الوسط اختط قصر المعز والجامع الأزهر وأطلق عليها اسم " المنصورة " تيمنا بمدينة المنصورية (صبره) التي بناها المنصور والد المعز لدين الله بجوار القيروان و بقيت هذه التسمية حتى جاء المعز إلى مصر سنة 362 هـ فأسماها القاهرة تفاؤلا بأنها ستقهر الخلافة العباسية وكانت القاهرة أشبه في بدايتها مدينة بالقاعدة العسكرية فلم يسمح بسكنها أوالدخول إليها بدون إذن خاص. وظلت كذلك حتى أواخر عهد الخليفة المستنصر الفاطمي(القرن الخامس الهجري)عندما أحرقت مدينة الفسطاط فانتقل أهلها إلى القاهرة. أما اصطلاح (القاهرة المحروسة) ربما يأتي من عزلتها و حراستها القوية فضلا عن أسوارها المنيعة (ابن الخطيب، المصدر السابق ص 48 – 49 هامش رقم 4).

الولايات الخاضعة لسلطتها [1].

ومن ثم بدأ الفاطميون يقلصون النفوذ العباسي فتقدموا لاحتلال بلاد الشام واعتبروها قاعدة لحراسة بلاد المغرب ورأس جسر نحو بغداد حاضرة العباسيين وكذلك نحو بلاد الحجاز حيث أرسل المعز لدين الله الفاطمي إلي الحسن بن جعفر الحسني " بتقليد الحرم وأعماله " [2]. ولكن مع ذلك فقد أصبحت الخلافة العباسية هي القوة الوحيدة التي كانت تهيمن روحياً و سياسياً علي العالم الإسلامي وذلك علي الرغم من أن قوة جديدة تمثله بالخلافة الفاطمية التي بسطت سيطرتها علي أجزاء كبيرة من العالم الإسلامي.

الفاطميون وأمويو الأندلس:

اتخذت العلاقات بين الفاطميين وأمويي الأندلس طابعاً عدوانياً فقد اتجه الفاطميون منذ قيام دولتهم في المغرب إلي تحقيق أهدافهم التوسعية نحو بلاد الأندلس التي تتوافر فيها الخيرات وتنعم بالاستقرار، فنشروا دعاتهم وعيونهم لاستطلاع أحوال البلاد السياسية والعسكرية والتعرف علي دخلوا الأندلس قبل قيام الدولة الفاطمية زودوا عبيد الله المهدي بكثير من المعلومات عن أحوال الأندلس السياسية والإدارية ويبدو إن الفاطمين لم يكتفوا لك بل اتخذوها الخطوات العملية في تحدي أمويي الأندلس والتحرش بهم فضلا عن إظهار قوتهم في أقصي بلاد العدوة فحاصروا سبتة، القاعدة الحصينة للأمويين ومركزهم المهم في الاتصال بزعماء المغرب إدارة الريف و الانطلاق نحو مراكز النفوذ الأموي في هذه البلاد.

أما إجراءات الأمويين في علاقاتهم مع الفاطميين، فيغلب عليها طابع الدفاع عن كيانهم السياسي ضد تعديات الفاطميين الذي اتخذ موقفهم طابع الهجوم ومن وسائل الأمويين في النضال ضد خصومهم الفاطميين اتخاذ لقب الخلافة وانتحال إمارة المؤمنين لتوجيه عواطف المسلمين في المغرب والأندلس وذلك لعزلهم وتحديد نفوذهم الديني والسياسي فضلا عن جهود الأمويين في جذب أنصار الفاطميين وولائهم بمختلف الإغراءات ودعم حركات المعارضة والثورات وتبني

---

[1] د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية ص 112 – 113.

[2] ابن عذاري م. ن ص 231 ابن الخطيب م. ن ص 58؛ المقريزي م. ن ص 120. ابن الأثير، م. ن ص 112.

العملاء و الصنائع والخارجين عليهم وتزويدهم بالأموال والسلاح، كما بعثوا عيونا ورقباء ووسطاء في جهات كثيرة من المغرب لبث الافكار المضادة للنفوذ الفاطمي وأغلبهم كان يستتر بالتجارة أو بالزيادة فتمكنوا من تزويد الأمويين بمعلومات عن نوايا أهل الأندلس الذين كانوا قد توطنوا المغرب منذ القرن الثلث الهجري، وكذلك التجأ الأمويون الي التشهير بالفاطميين وطرد العناصر المشبوهة من الأندلس والتضييق عليهم وقتل من تظاهر بالدعوة للفاطميين. لما لم يتورع الأمويون من استعمال سلاح القرصنة للقضاء علي القوة البحرية لأعدائهم الفاطميين، حيث اهتموا بدور صناعة السفن و المراكب في مدن طركونه والمرية والجزيرة الخضراء ومالته وميورقة ولقنت وشلب. فأنشأوا أسطولا قويا ينازع سلطة الفاطميين في البحر المتوسط، استطاع هذا الأسطول الاستيلاء علي طنجة و مليلة سنة 314 هـ في حركة الوليد بن هشام الذي أدعي الانتماء و لبني أمية و استبد بشئون برقة و جعل هدفه مصر و كان أعوانه من قبائل لواتة و زناتة كما أن أنصاره في مصر، عربا من بني قرة و في التاريخ اللاحق للفاطميين أي بعد عبيد الله المهدي اعتمدوا وسائلهم الجديدة في الصراع مع الأمويين و أجداها هو التشهير والطعن بماضي الأمويين و موقفهم من القوى الإسلامية فكان الخليفة المعز لدين الله الفاطمي يصف أعدائه الأمويين بالمتغلبين[1]. والظاهر أن هذه الحملة من التشهير ضد الأمويين قد أظهرت حركة معادية استهدفت الإطاحة بحكمهم وقد انتشرت هذه الحركة التي كان يقودها شخص قرطبي يسمى أبا الخير الداعي في مدن الأندلس، قرطبة والزهراء وسائر الكور، غير أن الأمويين استطاعوا تحجيم الحركة ومن ثم القضاء عليها.

ولعل من المفيد أن نذكر أن كلا الطرفين استخدما قوي سياسية لاستعدائها ضد الطرف الآخر، و كان الأدارسة قد لعبوا هذا الدور بكونهم صنائع وأعوان تارة للفاطميين وطورا للأمويين ولكن تسخيرهم بهذا الاتجاه لم يخدم وجودهم بل عجل بنهايتهم وسقوط إماراتهم سياسيا وعسكريا[2].

---

[1] كان المعز لدين الله الفاطمي يصف الأمويين امام من يحضر مجلسه بأوصاف كثيرة لكي يحط من شأنهم (انظر للاستزادة د. موسى لقبال، المصدر السابق ص 382.

[2] السلاوي، الاستقصا لاخبار دول المغرب الأقصى ج 1 ص 89.

الفصل التاسع

دولـة المرابـطـين

1- أصل المرابطين
2- مراكش عاصمة المرابطين
3- المرابطون و الخلافة العباسية

الفصل التاسع

دولة المرابطين

(448 – 541هـ/ 1056 – 1147م)

أصل المرابطين:

يجمع المؤرخون علي أن أصل المرابطين من قبائل صنهاجة اللثام الجنوبية الضاربة في الصحراء الموريتانية، و بطونها، لمتونه وجداله ومسوفه، وقد تحالفت هذه البطون لتواجه ظروف المغرب الإسلامي، وكانت لمتونه قد تولي رئاسة هذه القبائل وسيطرت عليها، فبرز من بين رجالها محمد بن تيفات اللمطي [1] ليقود قبائل صنهاجة غير أنه قتل، فتولت جدالة الرئاسة ممثلة بيحيي بن إبراهيم الجدالي[2] الذي سعي إلي طلب العلم الدينية في مدارس القيروان و فاس فتعرف هناك علي شخصية " وجاج بن زللوا اللمطي الذي ندب أحد تلامذته وهو عبد الله بن ياسين الجزولي "[3] لتفقيه قبائل صنهاجة، و هناك في مضارب لمتونه شرع هذا الأخير في التثقيف و الإرشاد إلي أصول الدين و فروعه و لكن وفاة يحيي بن إبراهيم الجدالي دفعت هذه القبائل إلي الانصراف عن الأحكام و الحدود التي كان قد وضعها لهم عبد الله بن ياسين حيث ثقلت عليهم وطأته فبرموا بدعوته الإصلاحية الأخلاقية التي كانت تدعوا إلي رفع المنكرات وإجتناب المحذورات [4].

اتجه عبد الله بن ياسين إلي بلاد السودان، عله يجد أنصاراً له هناك و قد صحبه سبعة من رجال صنهاجة انتبذوا لهم موضعا في ربوة من الأرض تحيط بها المياه من جهاتها الأربع، ولم يلبث أن أسس رباطاً " والرباط من المرابطة أي

---

[1] ابن الخطيب، المصدر السابق ص 226.

[2] م. ن ص 227.

[3] ابن أبي زرع، الأنيس المطرب ص 76، ابن الخطيب م . ن ص 226.

[4] ابن الخطيب م . ن ص 227.

ملازمة الثغور للجهات حيث ترابط خيل المجاهدين " اجتمع له فيها نحو ألف رجل سماهم المرابطون [1] اخلصوا له وأطاعوه واستطاع أن يحولهم من مجرد رعاة جناة إلي طبقة من المحاربين المؤمنين برسالتهم في الإسلام وكون منهم ومن غيرهم الذين التحقوا به جيشا جعل علي قيادته صاحبه " يحيي بن عمر "[2] وهو من قبيلة اللمتونيين الصناهجة وانطلقت قوات المرابطين نحو المغرب الاقصى وسرعان ما خضعت لهم قبائل لمتونه ومسوفة وجدالة ولمطة وغيرها من قبائل صنهاجة الضاربة في الشمال حتى درعت التي يقول عنها ابن الخطيب أنها تقرب من سبعين قبيلة [3] ثم اتجهوا نحو درعة سنة 445 هـ في إعداد ضخمة وهزموا جيوش مغراوة وصاحب سجلماسة ودرعة ودخلوا مدينة سلجماسة كما نشطوا في محاربة قبيلة زناتة وهي من كبريات القبائل في مناطق تافيلت فانضمت إليهم قبيلتا جزوله ولمطة واستطاعوا الاستيلاء علي بلاد السوسي سنة 448 هـ، واسترداد واحات درعة والتوغل في احوازها واجتيازهم الأطلس الغربي واحتلال بلاد جدميوه.

واصل المرابطون تقدمهم فدخلت جيوشهم الكثيفة مدينة أغمات وما حولها سنة 445 ثم تدفقوا علي بلاد المصاعدة وحاربوا قبيلة برغواطة في إقليم تامسنا والريف الغربي و كان من نتيجة هذه المعارك أن قتل عبد الله بن ياسين سنة 450هـ وذكر ابن الخطيب أن قائد المرابطين هذا جمع أصحابه وحثهم علي الوحدة والتماسك قبل أن يموت [4] وقد تولي يوسف بن تاشفين اللمتوني أمر

---

[1] وعرفوا أيضا " الملثمين " لانهم كانوا يصنعون لثاما يقيهم هاجرة الصحراء و بردها و يورد ابن الأثير رواية عن اتخاذ اللمتونيين. اللثام " سنة " و غدوا لا يزيلونه ليلا و نهارا حتى لا يعرف الشيخ من الشاب (الكامل ج 9 ص 223) ثم انظر: د. حسن ابراهيم حسن، تاريخ الإسلام و السياسي و الديني و الثقافي ج 4 ص 115 هامش (3).

[2] وهو ابن عم عبد الله بن ياسين الذي قتل في هذه المعارك و خلفه أخوه ابو بكر بن عمر الذي اتخذ يوسف بن تاشفين قائدا من قواده.

[3] ابن الخطيب، المصدر السابق ص 225.

[4] أعمال الإعلام ص 230.

جيوش المرابطين[1] وبدأ يزحف به نحو المغرب الاقصي فاحتل مدينة فاس سنة 454 هـ وراح يتجول بأطراف المغرب ثم عمد إلي تأسيس مدينة مراكش لتكون عاصمة للمرابطين ومنطلقاً لهم ومركزاً لقواتهم في جنوب المغرب بدلاً من مدينة أغمات.

وسعي يوسف بن تاشفين إلي تمويه الأوضاع لصالحه وتفرده بحكم المرابطين فيروي ابن الخطيب أن زوجة يوسف بن تاشفين، أشارت عليه أن يستبد بأمر عمه أبي بكر بن عمر الذي كان قد اختاره قائدا في جيوشه، فيلاطفه بالأموال والطعام والكساء ويرده إلي الصحراء التي خرج منها نفعل ذلك ومضي أبو بكر بن عمر إلي الصحراء سنة 465 هـ حيث قتل هناك في احدي معاركة في بلاد السودان سنة 480 هـ [2] وبذلك برز يوسف بن تاشفين أميرا أو أحد لدولة المرابطين.

مراكش عاصمة المرابطين [1]:

يمكن القول أن تأسيس مدينة مراكش[3] كان بمثابة حلول مرحلة جديدة في بلاد المغرب خاصة وفي العالم الإسلامي حيث أصبحت من مراكز الثقافة والعلم

---

[1] علي أثر الشقاق الذي حدث بين قبيلتي لمتونة و مسوفة ببلاد الصحراء، رأي ابو بكر ابن عمر، ضرورة وجوده إلي جانبهم في الصحراء ليصلح بينهما، فعهد إلي ابن أخيه يوسف بن تاشفين قيادة الجيوش و قتاله قبيلة زناتة المعارضة (ابن الخطيب المصدر السابق ص 232).

[2] ابن الخطيب، المصدر السابق ص 233.

[3] مراكش اسم مشتق من اوراكش وتعني ابن كوش وكوش بالبربرية معناها الأسود وإنما سميت نسبة إلي عبد أسود كان يقيم في موضعها ويخيف المارة اسمه مراكش كما تعني مراكش عبارة امشي مسرعا في لغة المصامدة لان موضعها كان مأوي اللصوص وقطاع الطرق وكان المسافرون يقولون لرفقائهم هذه العبارة عند مرورهم بهذا الموضع (عبد الواحد المراكشي، المعجم في تلخيص أخبار المغرب ص 100، ابن خلكان، وفيات الأعيان ج 5 ص 90) و مراكش مدينة عظيمة في المغرب الاقصي علي سفح جبل الأطلسي الكبير ويمر في شمالها نهر تانسيت و تمتاز بخصوبة تربتها الحمراء وجودة مناخها ومناظرها الخلابة حيث توجد فيها غابات النخيل الخضراء وبجوارها الثلوج البيضاء علي قمم جبال الأطلسي وقد تحققت عظمتها أثناء الموحدين الذين اتخذوها هم أيضا عاصمة لإمبراطوريتهم الواسعة وتركوا فيها مآثرهم و أهمها مسجد الكتبية وصومعته المشهورة (ابن الخطيب، المصدر السابق ص 234 مع هامش رقم 1).

والسياسة وحاضرة لدولة المرابطين الكبرى ولعبت دوراً كبيراً في توجيه الأحداث السياسية والعسكرية فضلاً عن نفوذها الديني والفكري حيث كانت دولة المرابطين تستند قوة دينية سلفية وعلي الرغم من اختلاف المؤرخين في تعيين إختطاط المدينة فإن الإجماع علي بناءها كان في سنة 454 هـ إذ تم الانتهاء منها سنة 459 هـ [1] وكان تأسيسها علي يد يوسف بن تاشفين.

" فاستوطنها الناس بعد أن تملك أرضها بالشراء " [2] ويوضح المؤرخ ابن أبي زرع ذلك، أن يوسف بن تاشفين، اشترى موضع مراكش من جماعة المصامدة فسكن الموضع بخيام من الشعر وأسس مسجدها الجامع وقصبة صغيرة لخزن أمواله وسلاحه " [3] وذكر أمير المرابطين نفسه كان يعمل في الطين والبناء مع الخدم والفعلة لتشيد المسجد والظاهر أنه لم يؤسس سوراً حول المدينة ولكنه نشط بحفر الآبار وجلب المياه إليها غير أن ابنه علي بن يوسف ابتني سور المدينة سنة 526 هـ و جعل لهذا السور أبواب عدة منها باب أغمات و باب دكالة وباب الدباغين وباب الصالحة و باب الشريعة.

ومن المفيد القول، أن مراكش بقيت تحافظ علي سمعتها العامة كقاعدة عسكرية لقوات المرابطين حتى دخلتها جيوش الموحدين، فأقاموا فيها الدور و اتخذت القصور وجلبت إليها المياه من أغمات لسقاية بساتينها و يشير صاحب كتاب الإستبصار في عجائب الأمصار إلي أن مراكش " ارتقت أيام الموحدين فأقيمت فيها المنشآت العظيمة و أمهرت بمختلف أنواع المباني ومنها البيمارستان (المستشفى) الذي وصف بأنه أعظم ما أقيم في العالم الإسلامي و قد سمي بـــ (دار الفرج) ويقع في شرق الجامع " يدخله العليل فيعاين ما أعده فيه من المنازة والمياه

---

[1] لم يشر البكري الذي كان معاصرا إلي تاريخ بناءها سنة 454 هـ لذلك يذهب بعض المؤرخين أن تأسيسها كان سنة 462 هـ و إلا ما فات أن يشير إلى ذلك.

[2] ابن الخطيب، المصدر السابق ص 234.

[3] الأنيس المطرب في بعض القرطاس ص 89.

والرياحين والأطعمة الشهية والأشربة المفوهة ويستطعمهما ويستنفيهما فتنعشه من حينه بقدرة الله تعالى ".[1]

لقد ساهم وجود مراكش إلى حد كبير في تدعيم مركز المرابطين و نفوذهم في المغرب الإسلامي وأوجد لهم مركز انطلاق لإخضاع بعض القبائل مثل غمارة وغياثة وبني مكود و مغراوة، كما تم لهم الاستيلاء على مليلة ووجدة و بلاد بني سناس وعلى تلمسان و تنس و وهران و جبل والشريشي [2] وبعد أن أتم يوسف بن تاشفين احتواء الأندلس في معركة الزلاقة الشهيرة ضد جيوش الممالك الأسبانية الشمالية [3] ، أصبحت مراكش عاصمة لقطرين هما المغرب و الأندلس

على أن دولة المرابطين، بعد وفاة يوسف بن تاشفين سنة **500** هـ و تولى ابنه علي، كانت في أوج قوتها، إذ أصبحت إمبراطورية كبري تمتد من بجاية شرقاً إلى السوسي غرباً ومن السودان جنوباً إلى سرقسطة والثغر الأعلى في الأندلس شمالاً وكانت مراكش مركزا للحكم و انطلاق الجيوش. غير أن حكام المرابطين بدأوا يفقدون قوتهم بعد انغماسهم في الترف و الرفاهية و الرقة بسبب فقدانهم لخشونتهم كرجال حرب، فضلا عن سيادة الثقافة الأندلسية في مراكش التي تسربت إليها من الأندلس حيث خففت كثيرا من جفونهم فتدهورت جيوشهم وأصبحت لا تقوى على قمع الثورات و الاضطرابات والتمردات المستمرة في بلاد المغرب والأندلس، إضافة إلى ما تعرضوا إليه من الضربات العنيفة التي كانت تسددها لهم الممالك الأسبانية الشمالية، مما أدى إلى استنزاف قواهم و قضى على مواردهم هناك و قد خذلهم أهل الأندلس لما طلب المرابطون معونتهم المادية و البشرية فتحولوا عنهم و طردوا و لاتهم فبدأت علائم الضعف تدب في جسم دولتهم و بخاصة بعد وفاة علي بن يوسف بن تاشفين و تولي ابنه تاشفين، حيث

---

[1] مجهول، ص 210.

[2] ابن خلدون، المصدر السابق ج 6 ص 381.

[3] د. السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير ج 2 ص 723؛ د. حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام ج 4 ص 119؛ د. أحمد مختار العبادي ، في تاريخ المغرب و الأندلس ص 305.

توالت علي هذا الأخير الهزائم في المغرب علي أيدي قوة جديدة هم الموحـــدون، وبعد وفاة تاشفين بن علي بن يوسف سنة539 هـ انطلقت ثـورات الأندلســيين بوجه المرابطين[1].

ولعل من أسباب ضعف دولة المرابطين وانهيارها، هو العامل الديني المـرتبط الفقهاء المرابطين الذين لم يولوا دراسة الحديث، الاهتمــام مــا يسـتحقه فهـم لايرجعون إلي الأصول لاستنباط الأحكام، وإنما بالأحاديث المجموعــة فـي كتـب الفروع، الأمر الذي جعلهم يبتعدون عن علم أصول الفقه الذي تستنبط بمقتضـاه الأحكام الشرعية؛ كما اتخذ المرابطون " فلسفة التجسيم " وهي الالتـزام بالآيـات القرآنية الكريمة التي يرد فيها ذكر صفات الله، النص الحرفي لها، مما يفضي إلي تجسيم للذات الإلهية وإلي إثباتات نظرية لصفات جسمانية لله تعالي، فضلا عمـا أثارته قراءة كتاب "إحياء علوم الدين " لأبي حامد الغزالي في بلاد المغرب مـن موجة من الغضب لدي فقهاء المرابطين، حيث أن الغزالي كان قـد فضـح فيـه نزعات هؤلاء الفقهاء في دراساتهم الفقهية وحصولهم علي المناصب الدينوية مما اضطر الأمير علي بن يوسف علي حرق كتب الغزالي علي باب مدينـة مـراكش نتيجة لضغط الفقهاء عليه، حيث أثار هذا الإجراء أهل المغرب فدفعهم إلي تأييـد ثورة المهدي بن تومرت زعيم الموحدين .

---

[1] مجهول، كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ص 63.

المرابطون و الخلافة العباسية:

تشير المعلومات المتوفرة لدينا، إلي أن العلاقات بين المرابطين و خلفاء بني العباس قد اتخذت طابعا وديا، حيث لم يشأ يوسف تاشفين أن يتلقب بألقاب الخلافة احتراما لمنزلتهم الروحية، و قد علل أمير المرابطين عدم تلقبه بأمير المؤمنين و هو ما اختص به الخلفاء العباسيون عندما طالبه بعض أصحابه بذلك قال: " حاشا لله أن نتسمي بهذا الاسم إنما خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة و لأنهم ملوك الحرمين و المدينة و أنا راجلهم و القائم بدعوتهم "[1]

لقد استخدم المرابطون، السواء، وهو شعار العباسيين، شعارا لهم في ملابسهم و أعلامهم، و تلقب يوسف بن تاشفين، بلقب " أمير المسلمين " و " ناصر الدين " منذ سنة **468** هـ، حتى إن ابن عذاري يذكر صراحة، أن يوسف بن تاشفين " كان يخطب لبني العباس، وهو أول من تسمي بأمير المسلمين "[2] أو بخاصة بعد انتصاره في معركة " الذلاقة " التي حاولت الممالك الأسبانية الشمالية أن تقوض الحكم العربي الإسلامي في الأندلس، وبعد إسقاطه ملوك الطوائف الذين تفردوا بالحكم هناك وكتب إلي الخليفة العباسي يطلب منه الخلع والإعلام السود والتقليد فلم يعترض الخلفية علي ذلك و لعل من مظاهر توطد العلاقات مع الخلافة العباسية، أن المرابطين نقشوا أسهمهم علي السكة وذلك منذ سنة **450** هـ إلي جانب اسم " عبد الله " الذي ورد في الرسالة التي بعث بها الخليفة المستظهر بالله إلي علي بن يوسف بن تاشفين، علي إن اسم هذا الخليفة هو أحمد [3].

---

[1] كتاب الحلل الموشية ص 65.

[2] قامت حول هذا اللقب شكلة شرعية و هي: هل يجوز لخطباء المساجد أن يدعوا ليوسف بن تاشفين باعتباره أميرا للمسلمين ؟ علي أن هذا الأخير لم يصرح للخطباء بإقامة الدعاة إلا بعد أن أرسل بعثة من الفقهاء إلي الخليفة العباسي المستظهر بالله ، يستفتيه في جواز حمل هذا اللقب فلم ير الخليفة بدا من عرض هذا الأمر علي فقهاء بغداد الذين اجتمعوا برئاسة الإمام أبي حامد الغزالي سنة 484 و أفتوا باستحقاق يوسف بن تاشفين لهذا اللقب (ابن عذاري المصدر السابق ج 4 ص 124 ، د . حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام ج 4 ص 313.

[3] ابن الأثير، الكامل ج 10 ص 51.

ويزيدنا ابن الأثير توضيحاً، من أن العلماء خاطبوا يوسف بن تاشفين لدى عودته من بلاد الأندلس منتصرا ودخوله مراكش حاضرة ملكه، بأن طاعته ليست واجبة حتى يذكر اسم الخليفة في الخطبة و يأتيه عنه تقليد بإقراره فأرسل رسله إلى بغداد فأتاه التقليد مع الخلع والأعلام ولقب بلقب " أمير المسلمين وناصر الدين " ويمضي هذا المؤرخ قائلاً، أن يوسف بن تاشفين لما استولى على بلاد الأندلس جميع الفقهاء وأحسن إليهم، فقالوا له:" ينبغي أن تكون ولايتك من الخليفة لتجب طاعتك على الكافة، فأرسل إلى الخليفة رسولا يحمل هداياه و معه كتاب يذكر فيه ما فتح الله عليه من بلاد الفرنجة ويطلب منه تقليدا بولاية الأندلسي التي دانت له، فبعث إليه الخليفة، التقليد بالحكم و لقبه " أمير المسلمين وأرسل إليه الخلع "[1] وهكذا تقدم لنا هذه المعلومات، الصلات الوطيدة التي كانت تربط الخلافة العباسية بالمرابطين طوال مدة حكمهم للمغرب الإسلامي والأندلس التي استغرقت قرناً من الزمن تقريباً.

---

[1] م. ن، ص 57.

الفصل العاشر

دولة الموحدين

1- تـــمهيد
2- علاقات الموحدين بالخلافة العباسية

الفصل العاشر

دولـة الموحدّين

(541 - 646هـ / 1143 - 1248م)

تمهيد:

أورث أبو عبد الله محمد بن تومرت الهرغي (485 /524هـ) وهو مؤسس الدعوة فقيهاً في جماعة، أفكاره وآراءه في التوحيد الذي هو رأس أركان الإيمان في الإسلام وسرّ العقائد الإيمانية الذي هو علم الاعتقاد وحتى عرف مريدوه وأنصاره وجميع من آمن بدعوته بالموحدين، لأنهم أول من تحدث بهذه الآراء في بلاد المغرب، وقد أصبحوا، بعد وقت وجيز من سريان الدعوة، القوة التي أعلنت الثورة على المرابطين إذ بدأوها منذ سنة 514 هـ وسرعان ما تحولت حركتهم الدينية[1] إلى حركة سياسية لإسقاط دولة المرابطين وإقامة دولتهم على أنقاضها.

خاض محمد بن تومرت معارك عدة ضد المرابطين، تكبد هؤلاء فيها هزائم متتالية وتوالت انتصارات الموحدين، فكان من نتيجتها أن وجّه محمد بن تومرت رسالة إلى المرابطين يدعوهم فيها إلى طاعته وينذرهم بسحقهم إذا لم يستجيبوا، وقد أورد صاحب الحلل الموشية نص هذه الرسالة بقوله "...وكفا بنا هذا إليكم أعذار وأنذار، وقد أعذر من أنذر"[2] ويعدد لنا أبو بكر الصنهاجي المعروف بالبيذق، المواقع بين المرابطين والموحدين، ويقول إنها بلغت ثمان غزوات متوالية[3]، الأمر الذي أتاح للموحدين أن يبسطوا سيطرتهم المطلقة على منطقة

---

[1] قامت فكرة الموحدين على أساس " الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر " ووجوب الاعتقاد في استقاء الأحكام على القرآن والسنّة دون غيرهما، وموافقة مذهب أبي الحسن الأشعري سوى مسألة الصفات ، فإنهم وافقوا المعتزلة في نفيها

[2] مجهول ص 81

[3] كتاب أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين ص 74 – 78

السوس. وفي سنة 518هـ سار محمد بن تومرت بقواته نحو منطقة " تينملل "[1] الصغيرة التي تقع فوق ربوة عالية في سفح جبل درن وهو أحد شعاب جبال الأطلس، المشرفة على مراكش بمسافة لا تزيد عن المائة كيلومتراً واتخذها داراً ومعسكراً وقاعدة للانطلاق، وبدأ يرقب عن كثب، المرابطين وتحركاتهم حتى سنة 520 هـ، حيث بادر إلى تنفيذ خطة الهجوم على نطاق واسع فأرسل جيشاً ضخماً من الموحدين بقيادة أبي محمد البشير، وقد التقى هذا الجيش بجيوش المرابطين التي هزمت وجدّ الموحدون في مطاردتهم، غير أن أكبر المعارك التي خاضها الموحدون ضد أعدائهم، هي التي وضع خطتها محمد بن تومرت سنة 524 هـ، حيث أفضت إلى الدخول في مراكش، ولكن المرابطين استعادوها منهم في السنة التالية.

لقد تأهب محمد بن تومرت للمعركة الفاصلة وجمع أنصاره وعساكره ووجّه إليهم رسالة يحثّهم فيها بإنهاء المرابطين الذين سمّاهم باسم " الملثمين " أو " المجسمين " أو " الزراجنة "[2] وجعل قائديه المعتمدين أبا محمد البشير وعبد المؤمن بن علي في مقدمة جيوشه، وعلى الرغم من الهزيمة التي لحقت بالمرابطين في البداية، لكن الموحدين لم يستطيعوا أن يدخلوا مراكش مما جعلهم يعبئون لمعركة أخرى زادوا فيها ضغوطهم وهزموا المرابطين ثم زحفوا نحو مراكش ورابطوا أمام أسوارها وأبوابها واستمروا في حصارها وبدأت المناوشات بين الطرفين، كان المرابطون يُهزمون فيها في كل مرة، ومع ذلك فان الموحدين لم يستطيعوا أن يصنعوا نهاية للمرابطين الذين استنفروا سائر أمراء القبائل

---

[1] يكتبها ياقوت " تين مثل " ويقول أنها جبال بالمغرب بها قرى ومزارع يسكنها البربر بين أو لهما ومراكش سرير ملك بني عبد المؤمن بن علي بها كان اول خروج محمد بن تومرت (معجم البلدان ج 2 ص 445).

[2] تشبيها لهم بطائر الزرجان وهو أسود البطن أبيض الريش. فالمرابطون باعتقاده بيض الثياب سود القلوب (الحلل الموشيه ص 86. انظر محمد عبد الله عنان. عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس / القسم الثاني ص185

المغربية الموالية لهم وولاتها وقادتها، فوافقهم بالعساكر والحشود وكان من نتيجة ذلك إن وقعت بين الطرفين اكبر معركة هي معركة البحيرة هُزم فيها الموحـــدون وتكبدوا خسائر فادحة، إذ قتل منهم عدد كبير ولم ينج من عساكرهم إلا أربعمائـــة بين فارس وراجل وسقط بين القتلى أبو محمد البشير اكبر قادتهم وقتل معه معظم الرؤساء والقادة ومنهم الأصحاب العشرة لمحمد بن تومرت[1].

وفي 524 هـ توفى محمد بن تومرت على اثر هزيمة جيوشه أمام المرابطين فخلفه عبد المؤمن بن علي، الرياسة ولعل توليه أمر الموحدين يمثل مرحلة جديدة من مراحل الصراع بين المرابطين والموحدين وبداية تحوّل في تاريخ الموحدين.

ينتمي عبد المؤمن بن علي إلى قبيلة (كومية) وهي بطن من بطون قبيلة زناتة وقد استطاع أن يضع الأساس المتين لدولة الموحدين، فقد قضى عامـــاً ونصـــف العام بعد توليه خلافة محمد بن تـــومرت، يـــنظّم شـــئون الموحـــدين ويحشـــدهم ويستنفرهم لجهاد المرابطين، وقد عبأ سنة 526 هـ جيوشاً جـــراراً وســـار بـــه لمنازلة المرابطين فأخضع أغلب أقاليم دولة المـــرابطين لســـلطته، وذلـــك خـــلال السنوات من 526 – 540 هـ حيث جرت معارك محلية بينهما، كان النصر فيهـــا دائماً للموحدين، وفي نهاية عام 540 هـ لم يكن ثمة شك فـــي غنهيـــار دولـــة المرابطين وسلطانهم في المغربين الأوسط والشمالي حيث بسط الموحدون نفوذهم على سائر القواعد الجنوبية للمرابطين، فيما عدا مراكش وبعض الثغور الشـــمالية ولكن بدا واضحاً إن دولة المرابطين راحت تتلقى الضربات المتتاليـــة فتضـــعفها وتبدد قواها خلال تلك المعارك، وفي الوقت الذي بدأ الموحدون يقتربون من مدينة فاس للاستيلاء عليها، شعرا المرابطون بحراجة الموقف، وبعد استكمال الموحدين الانتشار في مدينة فاس سنة 540 هـ استعدوا للدخول إلى مراكش والظاهر أنـــه لا يمكن تحقيق ذلك إلا بإخضاع قبيلة مكنتسة التي تحصنت في مدينة مكناسة التي أبقى الموحدون الحصار مضروباً حولها، ثم اتجهوا إلى مناطق آزمور وهي ربوع قبيلة صناهجة فاستولوا عليها ثم انضمت قبيلة دكالة إليهم واحتلوا جبل إبحليـــز

---

[1] الحلل الموشيه ص 80، ابن ابي زرع، الأنيس المطرب ص 114، ابن الأثير الكامل ج 10 ص 205

الذي يشرف على مراكش وبذلك احكموا الحصار حولها وعند أول لقاء بين الطرفين هُزم جيش المرابطين وتمكن جند الموحدين من تسلق أسوار مراكش واقتحموها وعندها سقط آخر معقل للمرابطين وزالت دولتهم سنة 541 هـ[1] كما انتهى حكم أسرتهم بمقتل إسحق بن علي بن تاشفين آخر أمرائهم على يد الموحدين[2] .

وبدأ الموحدون عهداً جديداً في مدينة مراكش إذ اتخذوها حاضرة لهم فأدخلوا عليها إصلاحات كثيرة وبنوا فيها مسجدهم الجامع وأتموا جلب المياه إليها وصنعوا أسقيات لها بقرب دار الحجر[3]. وفي 542 قدم على عبد المؤمن بن علي وفد من أهل اشبيلية رفعوا إليه البيعة ، مكتوبة بخطوطهم فأستحسن خليفة الموحدين موقفهم وقبل طاعتهم وكان لذلك أثره في نفوس الموحدين وإيثارهم لأشبيلية باتخاذها حاضرة للأندلس في عهدهم .

والظاهر أن الموحدين بعد ربع قرن تقريباً من احتوائهم للأندلس لم يسعهم السيطرة على مقاليد حكمهم في الإقليمين المغرب والأندلس وبخاصة بعد تحالف الممالك الأسبانية الشمالية ضدهم ونقض القشتاليين للهدنة القائمة بينهم التي عقدت سنة 607 هـ إبان عبور الموحدين إلى الأندلس ومحاصرتهم للمدن والحصون في بلاد قشتاله، لذلك تراخت هممهم في المحافظة على كيان دولتهم، فاندلعت ضدهم ثورات خطيرة هددت نفوذهم وزعزعت سلطتهم الدينية والسياسية وسقطت بأيدي الثوار بلاد تامسنا وبلاد المصامدة وهاجت قبائل حاحة ورجراجة وهزميرة وهكسورة ودكالة، وعلى الرغم من أن الموحدين استطاعوا في مرحلتهم الأخيرة أن يخمدوا هذه الثورات وينقذوا حكمهم من السقوط ولكن معركة " العقاب " بينهم وبين جيوش الممالك الأسبانية الشمالية جاءت لتضع حداً لدولة الموحدين ليس فقط في الأندلس وإنما في المغرب الإسلامي، حيث توجهت كتائب الموحدين

---

[1] ابن عذارى، المصدر السابق ج 4 ص 108، ابن خلدون، المصدر السابق ج 6 ص232

[2] البيذق، أخبار المهدي بن تومرت ص 104

[3] أحد ضواحي مراكش أنظر الادريسي، نزهة المشتاق ص 68 ، 69 .

وعساكرهم إلى طليطلة عاصمة بلاد قشتالة لمواجهة حشود هـؤلاء الصـليبيين هناك سنة 609 هـ / 1212م حيث اشتبكوا بمعركة أسمتها المصادر القشـتالية "لاس نافاس تولوسا " التي أطلق عليها المؤرخون المسلمون " العقاب " فهزمـت جيوش الموحدين على أثرها وتقدمت الجيوش الأسبانية الشمالية المتحالفة إلـى المدن الأندلسية المجاورة لحصن العقاب فاستولوا على باتيوس وكاسـترد فـرات وتولوسا وبياسة وبسطة ثم عادت بعض فلول الموحدين إلـى اشـبيلية وعبـرت مضيق جبل طارق إلى مراكش مما وضع نهاية انهيار دولة الموحدين بعـد هـذه المعركة.

وبوفاة آخر أمرائهم محمد الناصر انتهى دورهم في بلاد الأنـدلس بعـد سـقوط أشبيلية بأيدي الأسبان غير أن دولتهم استمرت في المغرب حتى سنة 668 هـــ وهي السنة التي قتل فيها آخر حاكم موحدي نُصب من قبل المرينيين، أمام أسوار مراكش حيث استولى الخراب والدمار على معظم ديارهم ودخل ورثتهم بنو مرين إلى مراكش وبدأت مرحلة جديدة بولادة الدولة المرينية في بلاد المغرب الإسلامي.

علاقات الموحدين بالخلافة العباسية:

يرى الموحدون أحقيتهم في لقب الخلافة الإسلامية لأنهم على حد زعمهـم أكثـر المسلمين إيماناً وأصحهم مذهباً، ولما استولى هؤلاء على بلاد الأنـدلس وامتـد نفوذهم من طرابلس شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً وحاولوا الاستيلاء على مصر وما يليها من بلاد المشرق الإسلامي، ظهروا وكأنهم يتحدون الخلافة العباسـية، وقد زاد ذلك التحدي وضوحاً عندما أقرّ محمد ن تومرت عبد المؤمن بن علي قائداً على جيش الموحدين وقال لأتباعه: " أنتم المؤمنون وهذا أميركم"[1] وبهذا لم يجد أتباع محمد بن تومرت حرجاً في آن يلقبوا عبد المؤمن بن علـي بلقـب " أميـر المؤمنين"[2] وهذا اللقب هو من ألقاب الخلافة العباسية وحدها. ولا شـك فـي أن

---

[1] المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص 188

[2] اعتبار الموحدين هم خلفاء المسلمين في الأرض واكتسابهم النفوذ الروحي والمعنـوي فـي العـالم الاسلامي بدلاً من العباسيين

اتخاذ عبد المؤمن بن علي لقب خليفة وتسميته بأمير المؤمنين وإعــلان رســوم الخلافة ببلاد المغرب في الوقت الذي أشرفت فيه الخلافة الفاطمية على الزوال في مصر، يقدم صورة عن تردي العلاقات بين العباسيين والموحدين.

ويذكر أن تغرى بردى، أن الخطبة للعباسيين ظلت مستمرة في المغرب حتى ســنة 524 هـ / 1129 م وهي السنة التي تولى فيها عبد المــؤمن بــن علــي أمــر الموحدين فقطع الخطبة للخليفة العباسي المعتضــد بــالله وتلقــب بلقــب أميــر المؤمنين[1] وما دام المرابطون في حينها قد حرصوا علــى توطيــد علاقــاتهم بالخلافة العباسية بصور شتى ومنها عدم التلقب بألقابهم وضرب السكة بأسمائهم، فإن الموحدين سلكوا طريقاً مغايرا لنهج المرابطين في علاقــاتهم بالخلافــة فلــم يعترفوا بالتقليد والأعلام السود والشارات التي كان العباسيون يرسلوها للمرابطين سابقاً وقطعوا كل صلة كانت تربطهم بالخلافة العباسية روحياً وسياسياً حتى سقوط دولتهم ولعل من المفيد أن نذكر، أنه على الرغم من سعي صلاح الدين الأيــوبي خليفة الفاطميين في مصر لتوطيد العلاقات مع الموحدين بنية الحصول على قطــع من الأسطول البحري الموحدي للاستعانة بها في دفع خطر الصليبيين الذين كانوا يغيرون على بلاد الشام والأراضي المقدسة في فلسطين، فإنه أدرك تردي العلاقات التي كانت تربط الموحدين بالخلفاء العباسيين وحيث كان هو مرتبط بهــم روحيــاً ومصيرياً، عندئذ خاطب أبا يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بــن علــي بلقب " أمير المسلمين " ولم يلقبه بأمير المؤمنين احتراماً للعباســيين لــذلك لــم يستجب خليفة الموحدين لصلاح الدين الأيوبي ولم يحقق له غرضاً إذ لم يعجبه أن يخاطبه هذا الأخير بهذا اللقب[2].

---

[1] النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج5 ص 50 – 51

[2] السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج 2 ص 63

الفصل الحادي عشر

إمارة بني مَرين والإمارات المحلية في المغرب الإسلامي

1- إمارة بني مَرين

2- سقوط إمارة بني مَرين.

3- الإمارات المحلية في المغرب الإسلامي

أ - إمارة بني عبد الواد في المغرب الأوسط (بلاد الجزائر).

ب - إمارة بني حفص في المغرب الأدنى (بلاد ليبيا وتونس).

ج - دور المغرب الإسلامي في احتضان العرب المسلمين بعد سقوط غرناطة.

الفصل الحادي عشر

إمارة بني مَرين والإمارات المحليّة في المغرب الإسلامي

(1)إمارة بني مَرين:

(592- 957هـ/ 1195- 1550هـ)

كان بنو مرين قادة جيوش الموحدين وولاتهم وعمالهم في البلاد التي تخضع لسيادتهم ابتداءا من المغرب الأدنى حتى الحافات النهائية الغربية للمغرب الأقصى وبعد أكثر من مائة عام من حكم الموحدين، بدأ بنو مرين يتحينون الفرصة للانقضاض على حكم الخلفاء الضعفاء الأواخر الذين فقدوا السيطرة على مقدّرات دولتهم المترامية الأطراف حيث ظهرت بوادر الانهيار على مؤسساتها الإدارية والسياسية والعسكرية وقد أعلن المرينيين استقلالهم على منطقة طنجة وسبتة واعترف أهلها بأبي زكريا الحفصي بالسيادة عليهم كما أقرت بعض مدن الأندلس التي كانت تحت هيمنتهم بالحكم المريني، وبذلك أصبحت هناك قوتان تتقاسمان إرث الموحدين وهم المرينيون وبني عبد الواد وبخاصة في منطقة المغرب الأقصى، وبمرور الزمن تركّز بنو مرين في حدود المغرب الأقصى والأوسط واستقلالها بحكم هاتين الأسرتين قد تم بسهولة لأنهما كانا يحكمان هذه البلدان سابقاً باسم الموحدين.

ويمكن القول أن قيام دولة بني مرين الحقيقي بدأ منذ أن دخلوا مدينة مراكش حيث تمكن أحد أمرائهم وهو أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق من اجتياحها سنة 668 هـ وقد اتخذوها فيما بعد مركزاً لهم بعد أن كانت عاصمة الموحدين وحاضرتهم. وفي عهد هذا الأمير أطلق لأول مرة على دولتهم اسم " الدولة المرينية " نسبة إلى مرين الذي ينتسب إلى فرع من فروع قبيلة زناتة، كما أطلق عليها " الدولة الوطاسية " نسبة إلى وطاس بن فجوس بن جرماط بن مرين، وهو الفرع نفسه الذي حكم هذه الدولة.

وليس من شك في أن بروز اسم المرينيين غنما كان بسبب مساهمتهم الفعّالة في "معركة الأرك " التي وقعت سنة 591 هـ/ 1195 م بين الموحدين والأندلسيين

من جهةٍ وبين الأسبان القشتاليين من جهة ثانية[1] حيث أبلوا فيها بلاءاً حسناً ولكن أصيب خلالها أميرهم محمد بن أبي بكر ومات متأثراً بجراحه فخلفه على رئاسة الدولة ابنه عبد الحق وكان عهد الأمير عبد الحق يمثل عهد القوة والتوسع، فقد دخل المرينيون جميع بلاد المغرب الأقصى وانتشروا في منطقة الريف سنة 610 هـ مستغلين ضعف خلفاء الموحدين واضطراب الأوضاع السياسية وتراجع الموحدين عن الثغور المتاخمة للفرنج والأسبان، وعدم الدفاع عنها، وعلى الرغم من وقوف الخليفة الموحدي يوسف المنتصر بوجه المرينيين وحشده لجيش يناهز العشرين ألف فارس، لكن بني مرين استطاعوا أن يهزموا جيش الموحدين في وادي نكور سنة 613 هـ / 1216م ثم زحفوا نحو مدينة رباط تازي وانتزعوها من الموحدين.

وفي غمرة الانتصارات التي كان يحرزها المرينيون على مواقع الموحدين وجيوشهم حدث انشقاق بين صفوف قوات بني مرين فخرج جيش منهم بقيادة عسكر بن محمد والتحق في صفوف الموحدين وتحالف معهم بعض عرب المشرق في رياح[2]، وفي معركة وادي سبو على مقربة من مدينة شافر كانت سنة 614 هـ تفرق بنو مرين وقتل أكثر جيشهم، غير أن بني مرين أقسموا على الثأر وما لبثوا إن التقوا في معارك عدة مع أعدائهم واستردوا نفوذهم وسلطتهم وخاصة في عهد أبي سعيد عثمان بن عبد الحق الذي راح يستغل ضعف الموحدين وإنخذال جيوشهم في أكثر مناطق المغرب الإسلامي وأخذ يدعوا القبائل إلى الدخول في طاعته فأعلنت أكثر القبائل[3] استسلامها والانحياز إلى جانبه.

---

[1] وكان الجيش القشتالي بقيادة الملك الفونس الثامن، حيث أقام في محلة الأراك حصناً عرف بحصن الأرك وقد جرت المعركة غرب المدينة الملكية وإلى شرق السهل الذي جرت فيه معركة الزلاقة الشهيرة سنة 479 هـ (ابن عذارى البيان ج 3 ص 191، محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين ج 2 ص 200).

[2] ويسمون (عرب رياح) وهم أقوى القبائل العربية في المغرب الإسلامي

[3] ومن القبائل التي انضمت الى المرينيين، هوارة وزركارة وتسول ومكناسة وبطوية وقشتالة وسدراتة وبهلولة ومديونة وفرضوا عليهم الخراج والضرائب ووجه إليهم الجباة والعمال، كما ألزم أهل فاس وتازي وقصر كتامة بتأدية ضريبة سنوية مقابل حمايتها فاستجابوا اتقاءاً من غاراته التي كان يشنها عليهم (ابن خلدون، العبر ج 3 ص 195).

وعلى الرغم من إغتيال أبي سعيد بن عثمان بن عبد الحق سنة 618 هـ فإن المرينيون واصلوا تصديهم للموحدين ومقاتلتهم وتحقيق هدفهم في بسط نفوذهم وسيطرتهم على جميع المغرب الإسلامي، ففي عهد معرف بن عبد الحق، اشتبك المرينيون مع جيش الموحدين الذي كان يقوده " أجر محمد بن والدين " وانتصروا عليهم بالقرب من مدينة مكناسة غير أن الموحدين بذلوا جهودهم ونشاطهم في محاربة بني مرين فأعدوا لذلك جيشاً ضخماً مؤلفاً من فرسان عرب المشرق والمصامدة وبعض العاصر الرومية والتقى معهم على مقربة من منطقة " أحوازفاس " حيث أوقعوا الهزيمة في صفوف المرينيين وتفرق جيشهم إلى فلول منهزمة في منطقة جبال " غياثة "[1].

ويمكن القول، أن الدولة المرينية لم تشرف على نهايتها حتى بسطت سيطرتها من برقة وطرابلس شرقاً إلى منطقة السوس الأقصى غرباً حيث بدأت تذر الضعف والانهيار تدب في كيانها المتسع الأرجاء. ولكن قبل أفول نجمها يمكن الاعتراف المرينيين بالفضل في وقوفهم مع والأندلسيين والغرناطيين ضد تعديات الأسبان القشتاليين واعتداتهم المستمرة على المدن الأندلسية، لذلك وطدوا أنفسهم على مساعدة إخوانهم فعبروا أربع مرات لنجدتهم مع جيوشهم ومعداتهم وأحرزوا النصر على الجيوش المتحالفة من الأسبان القشتاليين:

أ – في سنة 591 هـ /1195 العبور الأول في معركة الأرك [2].

ب- في سنة677 هـ/1278م العبور الثاني محاصرة اشبيلية في أراضي قشتالة[3]

ج- في سنة 681 هـ/1282م العبور الثالث[4].

د-في سنة 684هـ / 1285 م العبور الرابع[5].

---

(1) المصدر نفسه ج4 ص 455 – 457.

(2) ابن عذارى، المصدر السابق ص 191

(3) ابن ابي زرع، الذخيرة السنية ص 160

(4) المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض ج 1 ص 61

(5) ابن خلدون، المصدر السابق ص 393، ابن الخطيب، الاحاطة في أخبار غرناطة ج 1 ص 563.

جرى اشتباك جيوش المرينيين مع المتحالفين في البر والبحر مما أرغم القشتاليين على طلب الصلح وعقد هدنة بين الطرفين فوضع المرينيون شروطهم ومنها عدم الاعتداء على الأندلسيين ومسالمة العرب المسلمين من الغرناطيين [1].

واستمرت نجدات بني مرين لإخوانهم والأندلسيين ففي سنة 690 هـ/ 1291م وجه الأمير أبو يعقوب المريني أسطولاً لمقاتلة القشتاليين انتصاراً لعرب الأندلس، فتوغل الجيش المغربي إلى شريش ثم اجتاز أحوازا اشبيلية ثم عاد إلى الجزيرة الخضراء فكان لهذا العمل العسكري أثره لدى القشتاليين، فقد ترك في نفوسهم التوجس والخوف من تكرار مثل هذا الهجوم في المستقبل فخفّضوا من ضغوطهم على مملكة غرناطة بل وسعوا إلى محالفة أمراء بني الأحمر فيها.

وهكذا وضع بنو مرين أساساً متيناً للتعاون ونصرة العرب المسلمين الأندلسيين وإبعاد الأخطار المحتملة على مملكة غرناطة طوال مدة حكمهم للمغرب وقدموا صورة واضحة للتضامن وتقديم العون من أجل المحافظة على السيادة العربية الإسلامية في بلاد الأندلس حتى نهايات القرن التاسع الهجري بسقوط مملكة غرناطة.

سقوط إمارة بني مرين:

يلاحظ بعد وفاة الأمير أبي الحسن علي بن عثمان المريني، سريان الضعف والانحلال في أجهزة الدولة المرينية ومرافقها ومواسسها وذلك نتيجة لتولي بعض الأمراء الذين وصفتهم المصادر بالضعف وعدم الاقتدار وضيق النظرة ومسايرة الشهوات وكثرة النزاعات[2] ، فلم تلبث أن فقدت دولتهم المغرب الأدنى ثم المغرب الأوسط وعادت إلى إطارها وحدودها القديمة ، وقد توج استيلاء البرتغاليين على مدينة سبتة سنة 818 هـ/ 1415م سقوط المرينيين بل وكان نذيراً ليس فقط لانهيار دولة بني مرين بل وقوع جميع بلاد المغرب الإسلامي تحت السيطرة

---

[1] توفي أبو يوسف يعقوب المنصور المريني سنة 685 هـ وكان يقود جيش العبور قبل ان يعود الى المغرب (انظر ابن عذارى، المصدر نفسه ص 196).

[2] ابن الخطيب، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب ص 119.

البرتغالية[1] حيث كان هؤلاء يفتشون عن مناطـق نفوذهم فـي شـمال أفريقيـة بصورة خاصة وهكذا اختتمت الدولة المرينية عهدها بالإقتصار على مدينة فاس[2] حتى سنة 956 هـ/154م حيث سقطت دولتهم بسقوط هذه المدينة على أيدي قوة من " الأشراف السعديين " .

---

[1] استولى البرتغاليون وحلفاؤهم من الفرنج على جزء كبير من ساحل المغرب فاحتلوا " أصيلا " سـنة 876 هـ / 1471 م وصافي وأزمور وطنجة سنة 879 هـ / 1476 م

[2] حيث فقدت أخيرا مراكش وتافيللت ودرعة والسوس وبلاد الريف.

(2)

الإمارات المحلية في المغرب الإسلامي

(أ) إمارة بني عبد الواد في المغرب الأوسط "بلاد الجزائر":

(633 – 914هـ / 1235 – 1508 م)

استغل بنو عبد الواد، وكانوا في الأصل من أمراء القبائل المرحّل التي كانت تجوب صحراء المغرب الأوسط، ضعف الموحدين وعدم سيطرتهم على الحفاظ لكيان دولتهم الشاسعة الأرجاء، للسيطرة على بعض المناطق والحصون القريبة من تلمسان التي كانوا يحكموها باسم الموحدين، بل ازدادوا تمادياً بإعلان استقلالهم في تلمسان واتخذاها عاصمة لهم سنة 624 هـ / 1227 م وذلك بعد أن أطيح تماماً دولة الموحدين والظاهر أن الظروف التي أحاطت ببني عبد الواد مكنتهم من تكوين إمارتهم التي شاء لها أن تلعب دوراً مهماً في تاريخ المنطقة، استمرت ما يقرب من الثلاثة قرون، وإن الاستقرار الذي ساد بلاد المغرب، كان أحد العوامل التي ساعدت بني عبد الواد من تكوين سلطتهم ونفوذهم وفرض أنفسهم فرضاً على سكان سواحل المغرب الأوسط، ثم ما لبثوا أن أصبحوا سادة هذه البلاد وحماتها، وقد لعب يغمراس بن زيّان وكان أحد ولاة الموحدين في تلمسان، دوراً كبيراً في تأسيس إمارة بني عبد الواد وإقامتها، فقد سمح للقبائل المنتمية إليهم وأقاربهم وحلفائهم أن يتركوا الصحراء ويستقروا في سهول وهران، لكن يضعوا أمكاناتهم تحت تصرّف عامل الموحدين، وكان بنو زيّان قد ساهما مساهمة فعّالة في الدفاع عن منطقة وهران فقتلوا نظير ذلك بعض الإمتيازات، الأمر الذي أدى في نهاية الأمر إلى استقلاله ومجابهة الإخطار المحيقة به من الشرق ومن الغرب.

ومن الأخطار التي كانت تهدد غمارة بني عبد الواد، مجموعة القبائل العربية المشرقية المنتشرة في وديان الساحل الشمالي للمغرب الأوسط، كما إن بني حفص في تونس هم الآخرون كانوا يشكلون تهديداً دائماً لبني عبد الواد، فقد كان هؤلاء

يحاولون أن يبسطوا نفوذهم على المغرب الأوسط ويزعمون بأنهم ورثة الموحدين ومن حقهم أن ينشطوا في هذا المجال. ونتيجة لقوة بني حفص وتـأثيراتهم فـي القبائل المنتشرة في تلك الأصقاع، اضطر يغمراسن بن زيان، الاعتـراف بسـيادة الحفصيين على مناطق واسعة في المغرب الأوسط، فيما كان المرينيون يمينـون الفرص السانحة للتدخل في المغرب الأوسط والسعي للاستيلاء عليه رغـم أنهـم فشلوا في اقتحام أسوار تلمسان المنيعة، وتكررت محاولات المرينيين ضد تلمسان في سنة 737 هـ / 1336 م حيث سار أبو الحسن على بن عثمان إليها وشـدد عليها الحصار وأقام معسكرا ثابتاً أمامها ليكون قاعدة لعملياته العسـكرية، ولـم تلبث محاولات المرينيين إن أسقطت تلمسان بالفعل سنة 738 هـ، فوسعوا نطاق القاعدة العسكرية التي أقاموها أمام المدينة حتى أصبحت تلمسان مدينـة كبيـرة أطلق عليها اسم " المنصورة " ثم انطلقوا منها ليقضوا على سلطة بني عبد الـواد بقتل الأمير ابن أبي تاشفين.

وعلى الرغم من بقاء تلمسان في حوزة بني مرين أكثر من عشر سنوات مـن تاريخ سقوطها بأيديهم وبقائها مركزا لحكومتهم، فإنها خرجت من نفوذهم، حيـث استعادها بني عبد الواد سنة 750 هـ / 1349 م ولكن مع ذلك لـم يسـتطيعوا الاحتفاظ بها، إذ سقطت بيد المرينيين سنة 753 هـ / 1352 م ومع ذلك لم يلبث أحد أمراء بني عبد الواد وهو أبو مسلم إبراهيم بن أبي الحسن أن دخلها واستولى بالأمان عليها سنة 761 هـ / 1359 م وعهد بحكمها إلى أحد أحفاده.

ونقرأ خلال هذه الحقبة عن الازدهار الذي أصابته مدينة تلمسان وذلك نتيجـة لموقعها الجغرافي ومياهها الجارية وأحاطتها البساتين والجنان، فاستعادت بـذلك مجدها القديم وأصبحت مركزاً تجاريا مهماً يقصده تجار العالم الإسلامي ومركـزا للقوافل التي تمر بها من تافيللت والسودان، كما أبنى فيها بنو عبد الواد المساجد والقصور والعمائر والمنشآت التي اتخذت بمثابة المدارس.

وفي نهاية القرن التاسع الهجري، فقدت تلمسان استقلالها على أثر اجتياحهـا من قبل جيوش بني حفص، حيث تغلّب الأمير أبو فارس عبد العزيـز بـن أحمـد

الحفصي على أميرها الواثق بالله. ومنذ سنة 870 هـ / 1465 م تعرضت تلمسان إلى حملات الحفصيين العسكرية حتى نجحوا في هدم أسوارها وعلى الرغم من ذلك فقد ظلت سلطة بني عبد الواد متماسكة، إلى أن ظهر الأسبان على المسرح السياسي. ففي سنة 914 هـ/1508 م سقطت وهران بيد الغزاة الأسبان ومن ثم سقطت الجزائر، وهكذا أسلمت بلاد بني عبد الواد إلى خير الدين بربروسا ومن ثم أحد قراصنة الأتراك لكيلا تقع لقمة سائغة بيد الأسبان، وقد كان ذلك سبباً في دخول الأتراك العثمانيين بلاد المغرب الإسلامي.

(ب) إمارة بني حفص[1] في المغرب الأدنى "تونس"

(625 – 950هـ / 1227 – 1446م)

استقل بنو حفص عن كيان دولة الموحدين في عهد أبي زكريا يحيى الحفصي الذي يمكن اعتباره المؤسس الحقيقي لإمارة الحفصيين في تونس حيث استقل بإمارة أفريقية سنة 625 هـ بعد أن عزل أخاه أبا محمد عبد الله بن أبي محمد أبي حفص[2] وعلى الرغم من الأحداث الخطيرة التي رافقت قيام إمارتهم، فإنهم حكموا حقبة طويلة بما يقرب من ثلاثة قرون ونصف، أقاموا خلالها علاقات وثيقة مع أهل شرق الأندلس واشبيلية والمرية، وقد أرسلوا إلى أبي زكريا يستصرخونه ويستنجدون به ضد الأسبان القشتاليين، وكان محمد استنجد به الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن خلف بن قاسم الأنصاري والعلامة الشاعر والمؤرخ أبو عبد الله بن الأبار[3] حيث وصل هذا الأخير إلى تونس سنة 635 هـ[4] ، فبادر الأمير أبو زكريا الحفصي إلى تجهيز أسطول شحنه بالمؤن والسلاح مكون من ثماني

---

[1] ينتسب الحفصيون الى الشيخ ابي حفص يحيي بن عمرو الهنتاتي من قبيلة هنتاتة اكبر قبائل مصمودة وكان لأبي حفص مكانة سامية في دولة الموحدين.

[2] يبدو أن سبب استقلال ابي زكريا بتونس يرجع الى ما قام الموحدون من قتل بعض أنصارهم ومريديهم في مدينة مراكش وبخاصة من هنتاتة وتينملل (د. السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير ج2 ص 875).

[3] ابن الأبار الحلة السيراء ج 2 ص 125.

[4] المقري، ازدهار الرياض ج 2 ص 590.

عشرة سفينة كبيرة وصغيرة اتجهت إلى بلنسيا بصحبة ابن الآبار والوفد الأندلسي [1]، وعلى الرغم من عدم وصول هذه كنجدة لأهل المدينة ولكنها ظهرت مدى استجابته الحفصيين لأهل الأندلس ووقوفهم إلى جانبهم في محنتهم وجاء ذلك في كتاب "الحلّة السيراء" لابن الآبار حيث وصفها كشاهد عيان[2] .

ونتيجة لتوطيد العلاقات بين الحفصيين والأندلسيين فقد تأثرت بلاد المغرب الأدنى " تونس " بعوامل الحضارة الأندلسية، حيث فتح أبو زكريا، أبواب بلاده ومدنه للمهاجرين من أهل الأندلس وخاصة من العلماء والشعراء والفقهاء. وقد بلغ تأثير الأندلس ذروته في الإمارة الحفصية في عهد أبي عبد الله المستنصر بالله خليفة أبي زكريا يحيى الهنتاتي، حيث وصف بأنه كان من أعظم بناة هذه الأسرة وكان بلاطه يزخر بأهل الأندلس من العلماء. وقد ابتنى القصور وأقام البساتين على نسق قصور الأندلس وبساتينها، كما توطدت العلاقات التجارية في عهده بين تونس وبرشلونة ومرسيليا وجنوه وبيزا والبندقية وصقلية وأنشأت الفنادق والمنشآت والمباني بتونس، وبعد وفاة أبي زكريا يحيى الهنتاتي تعاقب على الحكم عدد من الأمراء لم يستطيعوا الاحتفاظ بنفوذ أسرة الحفصيين، مما أدى إلى سريان الضعف والانقسام بين صفوفهم فخرجت بجاية عن طاعتهم واستغل أعداؤهم من المرينيين وبني عبد الواد ذلك فاستطاع الأمير أبو عنان المريني تجريدهم من تونس. ولكن في عهد أبي العباس استعادت إمارة الحفصيين بعض نفوذها، ثم قام ابنه أبو فارس بالإغارة بحراً على مالطة وجربه واستولى على تلمسان، لذلك عرفت دولته جانباً من الازدهار والقوة وتمكن كذلك أن يضم الدويلات المستقلة التي نشأت بعد الفوضى والاضطراب التي حلّت بالبلاد بعد وفاة أبي أبي زكريا يحيى ففي سنة 801 هـ/1400 م استولى على إمارة توزر وقنصه وفي سنة 805 هـ/ 1402 م دخلت جيوشه إلى إمارة بسكرة ونجح في سنة 813 هـ / 1410 م بالاستيلاء على مدينة الجزائر. وفي عهده قدمت السفارات من سائر

---

[1] م . ن. ص 205 .

[2] كتاب الحلة السيرار ج 2 ص 27، ابن الخطيب، أعمال الأعلام ج 2 ص 273

أنحاء العالم إلى تونس، تهادنه وتخطب مودته ومنها سفارة أمير غرناطة وسفارة فاس وسفارة مصر. وفي سنة 838 هـ/ 1434 م توفي أبو فارس بن أبي العباس، فتولى عدد من الأمراء الذين أضعفوا كيان الإمارة حتى سنة 850 هـ / 1446 م حيث استعفى أبو عمرو جميع الاضطرابات وقطع الثوار وعمل على إزالة ما يحول دون ازدهار الإمارة الحفصية، فعقد المعاهدات التجارية مع فرنسا ومصر والأندلس. غير أن هذا الازدهار لم يدم طويلا فبعد وفاة أبي عمرو وعثمان بن أبي العباس، تمزقت وحدة الإمارة تحت ضربات الغزو الأسباني انتقاما من الأتراك الذين كانوا قد اتخذوا السواحل التونسية أوكارا لهم وهكذا كتبت نهاية الإمارة الحفصية بانتشار قوات الأتراك العثمانيين لاستكمال سيطرتهم على جميع بلاد المغرب الإسلامي.

دور المغرب الإسلامي في استقبال واحتضان العرب المسلمين المهاجرين بعد سقوط غرناطة 897هـ / 1491م) [1]

أتضح أن استيلاء بني مرين على مراكش سنة 668 هـ / 1269 م وإقامة إمارتهم فيها، جعل نشاطهم يتركز في مجالين أولهما بلاد المغرب الأدنى والأوسط ومحاولتهم السيطرة والاحتواء السياسي، وثانيهم نحو بلاد الأندلس ومملكة غرناطة بصورة خاصة وسعيهم على إنجاد أهل الأندلس عامة ومساعدة بني نصر أصحاب غرناطة ضد القشتاليين والأسبان المتربصين بهم، وقد درج بنو مرين على هذه السياسة بعد أن تركز وجودهم في المغرب واستحواذهم على مخلفات دولة الموحدين، ففي عهد الأمير يعقوب بن عبد الحق سنة 668 هـ، خرج بنو مرين بجيش من فاس متجهاً إلى الأندلس فاكتسحوا الفحوص والزروع والبسائط والوديان لتهديد القشتاليين وإشعارهم بقوة حلفائهم من بني نصر[2] بل وتركوا فرقاً دائمة في الأندلس للمرابطة على الثغور الأندلسية متفرعة لرد الأسبان القشتاليين وحلفائهم، والظاهر أن موقف المرينيين هذا كان له أهمية بالغة في الحفاظ على الأندلس وعلى مملكة غرناطة، وفي سنة 673 هـ أرسل هذا الأمير جيشاً قوامه خمسة آلاف مقاتل ليقوده الأمير نفسه وعند مدينة استجه، اشتبك مع جيش القشتاليين الذي كان يقوده الدون فوينودي لارا [3] حيث هزم القشتاليون واندحرت جيوشهم.

---

[1] وهم الذين يرجع نسبهم الى سعد بن عبادة الأنصاري، أحد كبار الصحابة، ومن رجالهم ورؤسائهم في عهد بني مرين ابن الأحمر وهو: أبوعبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي (د. عبد الرحمن علي الحجي، التاريخ الأندلسي ص 516)

[2] وهم الذين يرجع نسبهم الى سعد بن عبادة الأنصاري، أحد كبار الصحابة، ومن رجالهم ورؤسائهم في عهد بني مرين ابن الأحمر وهو: أبوعبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي (د. عبد الرحمن علي الحجي، التاريخ الأندلسي ص 516)

[3] تطلق عليه المصادر الأندلسية اسم " ذنة أو ذنونة " (ابن الخطيب، الاحاطة في أخبار غرناطة ج1 ص 565، ابن خلدون، العبر ص 370، المقري، نفح الطيب ج1 ص 449)

ولكن بعد سقوط غرناطة سنة 897 هـ / 1491 م، لم يسع الإمارات والـدويلات في المغـرب الإسلامـي أن تحول دون ذلك ولكنها بـدأت تستقبل مـن يضـطر على الهجرة وهم أفـواج من العرب المسلمين من مختلف المنازع والطبقات منهم العلماء والفقهاء والشعراء وطلبة الفقه والرؤساء والأمراء، وأول من عبر إلـى المغرب أبو عبد الله محمد سلطان غرناطة وذلك بعد سقوط مملكته حيث ارتحل مع عياله وأمر بالجواز إلى العدوة الأندلسية وأُعدت له المراكب حيث ركب معه كثير من المسلمين ونزلوا في مليلة من ريف المغرب ثم ارتحلوا إلى مدينـة فاس[1] .

ومن العلماء الذين ارتحلوا من الأندلس القاضي الشهير أبو عبد الله بـن الأزرق الذي استقر في تلمسان والفقيه الأديب أبو عبدالله محمد بـن الحـداد الشهـير بالوادي آشي والفقيه أبو العباس البقنّي[2] ، ثم استمرت أفـواج العـابرين إلـى المغرب تتوالى وخصوصاً بعد أن نقض ملوك قشتالة عهـودهم ومـواثيقهم فـي الصـلح التي أبرمت مع سكان غرناطة واستطالوا عليهم وفرضت عليهـم المغارم الثقيلة وأجبروا على الخروج إلى الأرباض والقرى وأخذت منهم أملاكهم ومعاقلهم وانتزعت أسلحتهم [3]

وفي سنة 981 هـ/1573 م أزمع أهل تلمسان والجزائر على تدبير حملة بحرية لمهاجمة (المرسى الكبير) في مياه بلنسية يعاونهم العرب هناك، لـذلك بـادرت السلطات القشتالية إلى نزع سلاح العرب في بلنسية، وعلى الرغم من فشل هـذه الحملة التي استهدفت غنقاذ إخوانهم من الاضطهاد والتعسف ولكنها كانت بدايـة لمحاولات أخرى على هذا الطريق، وقد وضعت الأساس لغارات مسـتمرة علـى الثغور والشواطئ الأسبانية لغرض الانتقام للأندلس الشهيدة [4] .

---

[1] المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض ج 1 ص 67

[2] م . ن، ص 71 – 72

[3] المقري، المصدر نفسه ص 69 – 70

[4] محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، ص 367

واستغرقت هذه الغارات طوال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، ويشير المقري وهو معاصر لهذه الأحداث إلى أن هذه الغارات قد انطلقت من المغرب منتظمة في جيش الأمير ومستهدفة جهاد العدو ومن الأسبان فقال: " أنهم انتظموا في جيش سلطان المغرب وسكنوا سلا وكان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور الآن "[1].

---

[1] نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج 2 ص 617

الباب الثالث

تلخيص حضارة المغرب الإسلامـي

فصلان

الفصل الثانى عشر

الحضارة الفكرية والثقافية

1- تمهيد

2- بنو مدرار / حاضرتهم سجلماسة

3- بنو رستم / حاضرتهم تاهرت

4- الأدراسة / حاضرتهم فاس

5- الأغالبة / حاضرتهم القيروان

6- الفاطميون / حاضرتهم المهدية

7- المرابطون / حاضرتهم مراكش

8- الموحدون / حاضرتهم مراكش وأشبيلية

9- بنو مرين / حاضرتهم مراكش وفاس

الفصل الثاني عشر

الحضارة الفكرية والثقافية

تمهيد:

استغرق حكم إمارات المغرب ودوله أكثر من ثمانية قرون إبتداءاً من إمـارة بني مدرار وإنتهاءاً بالإمارات المحلية وخلال هذه الفترة تركـت هـذه الكيانـات تأثيراتها في الحياة الفكرية والعلمية والثقافية والإجتماعيه، حيث شـيدت المـدن الحواضر التي أصبحت مراكز علمية يفد أليها العلماء وطلبة العلم من سائر أنحاء المغرب والمشرق على السواء، ولعل أهم أثر تركته هو سعيها في نشر الاسـلام بين الجماعات والقبائل المختلفة سواء في بلاد المغرب أو المناطق الواقعة جنوبي الصحراء، فتقبلت منهاجة ومسرفه ولمتونة الأفكار الإسلامية كما عقدت حلقـات الدرس لتدريس العلوم الإسلامية والعلوم العقلية وأقيمت المناظرات بين العلمـاء والفقهاء في مختلف المسائل الفقهية والشرعية ووجدت مهنـة تعلـيم الصـبيان وتأديبهم وهي بمثابة ما تقوم به المدارس في الوقت الحاضر

لقد ظهرت الحركات الفكرية وهي تمتلك تراثا غنيا تمثل في مجموعـة الأراء والمقولات والإستنباطات في تفسير النصوص الدينيـة علـى نطـاق الشـريعة والسياسة والفلسفة وفنون الحكم وكان أغلب مؤسسي هذه الحركات مـن حملـة العلم والفقه فوضعوا أساسا للحياة الفكرية لإماراتهم ودولهم ورعايـاهم فتبنـوا العلماء وأخذوا بأيديهم ونشروا العلوم وشجعوا الناس على طلب العلـم وأنشـأوا المساجد والزوايا والتكايا والمراكز والمدارس التي كان يختلـف إليهـا العلمـاء لتدريس أصول الدين والشريعة وعلوم الرياضيات والطب والكمياء وغيرها

ولعل من المفيد أن نستعرض الجهود الحضارية الفكرية التي مهرتها الإمارات والدول في المغرب الإسلامي وما خلفته من معالم وصروح علميـه لعبـت دوراً كبيرا في ظهور العلماء والفقهاء والفلاسفة وأصحاب الفكر الذين سجلوا سـمار أفكارهم في مصنفات وكتب ورسائل فاحتلوا منزلتهم العلمية في العالم الإسـلامي وأعترف لهم زملائهم العلماء والفقهاء المشارقة بما وصلوا إليـه فـي العلـوم والفنون والآداب وجميع صنوف المعرفة:

(1)
بنو مدرار / حاضرتهم سجلماسة

عرف عهد بنو مدرار" حب العلم والرغبة في طلبه وتحصيله[1] " وأن أهل سجلماسة كانوا يجلون العلم ويطلوبنه وهم يباينون أهل المغرب في المنظر والمخبر مع علم [2] ". وهناك ما يشير إلى إهتمام المدرارين في عقد حلقات الدرس في العلوم الإسلامية وكذلك مناظرة مخالفيهم ومجادلتهم في العلوم الدينية وعلوم العربية والعلوم العقلية. وكان لأتباع المدرارين من العلماء والمتعلمين في مدينة القيروان الذين كانوا يبدون نشاطا في العلم والفقه والفلسفة [3].

ولكن المؤسف أننا لا نمتلك معلومات وفيرة ومفصلة عن مساهمات المدرارين في الحركة الثقافية والعلمية إذا قورنت بما نعرفه عن غيرهم في المغرب الإسلامي ولعل السبب على أكثر الإحتمال أنه لم يتبقى من آثارهم الفكرية ما يجعلنا نأتي بكثير من التفصيلات والمعلومات المهمة فيما عدا الإشارات التي تعرضنا إليها، وربما كانت آثارهم عرضة للتلف والإهمال، كما لا يوجد من المورخين والكتاب المعاصرين لهم ما يمكننا أن نجد عندهم أخبار سجلماسة وبني مدرار واهتماماتهم بالحركة الفكرية والعلوم، أو أن عداوى الأيام قد أتلفت مؤلفات من اهتم بتواريخهم وتصانيفهم أو عفت عليها يد الحدثان بقصد أو بدون قصد غير أن الموجود من شتات المعلومات عنهم بهذا الصدد يمكن أن يلقي بعض الضوء على نشاطهم ودورهم في الحياة الفكرية، ليس فقط في داخل مدينة سجلماسة وإنما في مدن المغرب الأخرى حيث يتوزع بعض علماء المدرارين ومناصروهم في إمارات الأغالبة والرستميين والأدارسة.

---

(1) إسماعيل حامد، نبذة في تاريخ الصحراء القصوى ص 7.

(2) ابن حوقل، صورة الارض ص 90 .

(3) المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية ج / ص 276 . الدباغ ، معلم الإيمان في معرفة اهل القيروان ج ، ص55 .

(2)

بنو رستم / حاضرتهم تاهرت

كان مؤسس إمارتهم عبد الرحمن بن رستم من القيروان، وهو أحد ما يعرف بحملة العلم الخمسة، الذين هم عاصم السدراتي من غرب الأوراس وأبو داود القبلي النفزاوى من إفريقية وإسماعيل بن ضرار الغداسى من جنوبى طرابلس وأبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى من اليمن وكانوا قد تلقوا العلوم الدينية في العراق وفي مدينة البصرة على يد أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة وهو من أبرز العلماء في هذه الفترة. وكان عبد الرحمن بن رستم قضا خمس سنوات يتلقى علومه هناك فأصبح بارعاً في علوم الدين واللغة والفلك[1]، وأكسبه ذلك مهارة في وضع أساس للحياة الفكرية لإمارته ورعيته بتوسيع الحركة العلمية والثقافية بتشجيع العلماء ونشر العلوم حتى أصبحت تاهرت مركزا علميا مرموقا في جميع أنحاء العالم الإسلامى حيث ضمت المساجد والمراكز والمدارس

وإلى جانب طاهرت، ظهرت مدينة شروس في منطقة جبل نفوسه ومدينة جادوا وقرية إجنادن وجزيرة جربة ومنطقة ورجلان، مراكز للعلم والثقافة حيث كانت تجلب إليها الكتب والمصنفات والرسائل من العراق ومصر وبلاد الشام والحجاز، كما كان يؤمها عدد غير قليل من العلماء وطلبة العلم ومريديه ليتعلموا ويتفقهوا على يد علماء تاهرت وفقهائها من أمثال ابن أبى إدريس وأحمد التيه وأبى العباس بن فتحون وعثمان بن الصفار وأحمد بن منصور وأبى عبيدة الأعرج [2]، ولكن العالم الشيخ مهدى النفوسي الذى قتله الأغالبة فيما كان يرافق جيش الرستميين الذى حاصر مدينة طرابلس فى عهد عبد الوهاب عبد الرحمن بن

---

[1] أبو زكريا، السيرة وأخبار الأئمة، الورقة 42.

[2] محمد على دبوز. تاريخ المغرب الكبير ج3 ص392 .

رستم، ومحمد بن يانس وأبو الحسن الأبدلاني وعمروسي بن فتح ويعقوب بن أفلح وغيرهم، كانوا يمثلون القمة في العلوم الدينية وعلوم العربية والفلك[1].

لقد كانت العربية الرستمية لإمارة الرستميين وهي لغة التأليف لهؤلاء العلماء والفقهاء، فالكتب والمصنفات التي كانوا يتداولونها كانت باللغة العربية وإن الرستميين كانوا يقدسونها ويحاولون نشرها بين أهل المدن، فكان الناس يتنافسون في تعلمها وإتقانها ويعكفون على دراسة نحوها وقواعدها [2] كما نلمس هناك حركة دائبة لترجمة الكتب اليونانية والهندية والرومية والفارسية إلى العربية يشجعها ويدعمها عبد الوهاب بعد أن خلف أباه في الحكم الذي هو نفسه محباً للعلم وفقيهاً، صنف كتاب" نوازل نفوسه " وهي مجموعة من الفتاوى الشرعية، كما كان أفلح بن عبد الوهاب عالماً في الحساب والفلك وشاعراً[3]

ومن المعالم الحضارية العلمية للرستميين (مكتبة المعصومة) التي أسسها عبد الوهاب بن عبدالرحمن في قصبة المعصومة في مدينة تاهرت، وكانت تضم أمهات الكتب والمصنفات الدينية والفنية وكتب الصنائع وكان يربو عددها على الثلاثمائة ألف مجلد [4] ويشير الوسياني إلى أن البصريين في العراق استنسخوا معظم كتب المشارقة وأودعوها في هذه المكتبة، فأقبل المغاربة على دراستها [5] ولكن الدرجيني يذكر إن مكتبة المعصومة خاصة بالبيت الرستمي الذي وصفه بأنه

---

[1] وممن نبغن من النساء في مدينة تاهرت، أخت أفلح بن عبد الوهاب التي لم تذكر المصادر شيئا عنها سوى أنها برعت في علم الحساب والفلك والتنجيم(د.السيد عبد العزيز،المغرب الكبير ج2 ص575 .

[2] محمد علي دبوز، المصدر نفسه ص410.

[3] ومن شعره بمجد العلم وأهله:

العلم أبقى لأهل العلم آثارا	يريك أشخاصهم روحا وأبكارا
حي وإن مات ذو علم وذو ورع	ما مات عبد قضى من ذاك أوطارا
وذو حياة على جهل ومنقصة	كميت قد ثوى في الرمس إعصارا

د.السيد عبدالعزيز، المصدر نفسه ص584 .

[4] أبو زكريا، السيرة وأخبار الأئمة، الورقة 42

[5] سيرة ابي الربيع بن عبد السلام، الورقة 779

"بيت العلوم جامعاً بفنونها من علوم التفسير والحديث وعلم اللسان وعلم النجوم والأصول والفروع والفرائض"[1] والى جانب مكتبة المعصومة هناك مكتبات في المدن الرستمية تحتفظ بالكتب والتصانيف، وهي مكتبات عامة يؤمها الناس من مختلف الفئات والطبقات.

ولعل من أبرز مظاهر الحياة الفكرية التي عرفتها تاهرت في هذه الفترة، المناظرات العامة التي كان يدعى إليها سكان المدينة وكانت تجرى على نهر مينه وأصبح لها صدى واسعاً في العالم الإسلامي وقد تناظر فيها شيوخ الاباضية من الرستميين وعلمائها مع علماء المعتزلة ومجتهديهم وتناولت موضوعات في الفقه والشريعة وفي العلوم العقلية والنقلية[2] .

والظاهر أن الفاطميين كانوا مقتنعين بالمنزلة العلمية التي كان يتمتع بها الرستميون ويدل على ذلك استحواذهم على مكتبة المعصومة والمكتبات الأخرى وتجريدها من محتوياتها، ولكن لا صحة لما ذكر عن إجراءات الفاطميين بحرقها بعد أن حصلوا منها على الكتب النفسية في الرياضيات والطب والفلاحة والهندسة والفلك بل نقلوا كتبها ومصنفاتها جميعاً إلى بلادهم بدون استثناء[3].

---

[1] طبقات الاباضية ج 1 ص 136

[2] د. الحبيب الجنحاني، المصدر الساق ص 141

[3] د. موسى لقبال، دور كتامة في تاريخ الدولة الفاطمية ص 345 – 346

(3)

الأدارسة / حاضرتهم فاس

ترك الأدارسة أثراً واضحاً في الحياة الثقافية، ليس في المغرب الأقصى، فحسب بل في جميع أنحاء المغرب الإسلامي، فقد قاموا بدور ملموس في نشر الإسلام وتبني الحركة الإسلامية، فلم يمضي وقت طويل على قيام امارتهم حتى برزت مدينة فاس وأصبحت مركزاً من المراكز الثقافية والفكرية يشد إليه العلماء والمفكرون وطلبة المعرفة، الرجال من جميع العالم الإسلامي، وكـــان المســـجد الجـــامع المعـــروف بـــ"الشرفاء" أو "الأشراف" الذي أسسه إدريس بن إدريس سنة 192 هـــ بدايـــة لإقامة جامع القرويين الذي اكتسب بدوره صبغة علمية وجامعية عالمية [1].

لقد تلقت مدينة فاس في عصر الادارسة، تـــأثيرات علميـــة وفكريـــة وثقافيـــة وحضارية مادية مزدوجة من بلاد الأندلس ومن القيروان، فالمدينة كانت تتـــألف من عدوتين واحدة للأندلسيين وأخرى للقيروانيين، وكان أهل كـــل مـــن هـــاتين العدوتين، فقلوا كثيراً من تراثهم العلمي والمعرفي إلى مستقرهم فـــي فـــاس ولا تخفى الأهمية التاريخية لكل من القيروان وقرطبة عاصمة بلاد الأندلس وبخاصة من الناحية العلمية والحضارية، فهما مركزان بارزان في سعة العلم والثقافة وإن " الوافدين من الأندلس، نزلوا بعدوة الأندلس والوافدين من القيروان سكنوا بعدوة القرويين، فعمرت العدوتان بالسكان بفضل هؤلاء الوافدين وتمدينت بهم " [2].

---

[1] لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام ق 3 ص 118 هامش رقم 2

[2] د. السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير ج 2 ص 496 (نقلا عن مورخ غرناطي مجهول من القرن الثامن الهجري [وهى مجموعة متفرقات تاريخية] تسمى الزهرة المنثورة في الأخبار المأثورة.

(4)

الأغالبة / حاضرتهم القيروان

يتجلى أثر الغالبة الثقافي والعلمي طوال مدة حكمهم لأفريقية وصقلية الـذي استغرق أكثر من القرن، فيا تركوا من بصمات واضـحة فـي الحركـة الثقافيـة والفكرية، فليس جديداً على هذه الأسرة المسـتنيرة، أن تـنهض بنشـر مبـادئ الحضارة أو أن تضع لها مفاهيم صحيحة. إن مؤسس إمارة الأغالبة إبراهيم بـن الأغلب بن سالم التيمي هو نفسه كان " فقيهاً وأديبـاً وشـارعاً وخطيبـاً ذا رأي ونجدة وبأس وحزم، وكان حافظاً للقرآن عالماً به " [1] كما كان ابنـه زيـادة الله 201 /23 هـ أكثر أهل بيته أدباً وأفصحهم لساناً وأوسعهم فهماً ومعرفة، حيـث اختار له أبوه " علماء العربية ورواة الشعر ليقوموا على تعليمـه " [2] أمـا أبـو العباس عبد الله بن إبراهيم بن أحمد 289 – 290 هـ فقد " جـالس أهـل العلـم وشاورهم " [3].

غير أن أكبر مأثرة تركها الأغالبة في تاريخ الحضارة العربية والفكر الإسلامي هو فتحهم لجزيرة صقلية في عهد زيادة الله بن إبراهيم، بقيادة الفقيه القاضي أسد بن الفرات [4] فقد خرج معه أشراف أفريقية وفقهاؤها وعلماؤها من العرب والجنـد الأندلسيين وأهل العلم والبصائر " [5].

وتتبدى أهمية صقلية من الناحية العلمية، إنها أصبحت مركزاً للحضـارة والعلـم ومصدراً لإشعاعات الثقافة الإسلامية، واحتلت شهرة واسعة في هذا المجال فـي العلم الإسلامي وذلك طوال الحكم العربي فيها وبعده بقرون عـدة حيـث أنجبـت جمهرة من العلماء والفقهاء والشعراء، ذاع صيتهم وانتشر أثرهم.

---

[1] ابن عذارى، البيان ج1 ص 92 – 93

[2] ابن الخطيب، أعمال ص 16 – 17

[3] ابن عذارى، م. ن ص 123

[4] وهو "مصنف الأسدية" في الفقه المالكي، وكان قاضيا للقيروان

[5] ابن عذارى م. ن. ص 103

ومن المفيد القول، أن عهد الأغالبة كان يتسم بإتاحة الحرية الفكرية والثقافية وانتحال البحث في المسائل المذهبية وقيام المساجلات والمناظرات والمجادلات حول مسائل العلم والفقه والادب بين الفرق الإسلامية، فيشير ابن أبي دينار إلى أن أبا سعيد كنون الملقب "سراج القيروان" لعلو منزلته في الفقه والعلم الذي أستقضى على مدينة القيروان "منع أهل الأهواء من المسجد الجامع وكانوا قبل ذلك يجتمعون فيه ويتظاهرون بمذاهبهم مثل الإباضية والصفرية والمعتزلة، منعهم من الاجتماع "[1] ويبدو أن هؤلاء كانوا يشكلون تظاهرة علمية وفكرية في المناظرة والطرح والمحاجاة في المسائل الجدلية المتعلقة بالعقائد والشرائع والعلوم الدينية والعقلية، ومن المحتمل أن تنافسهم وتصارع آرائهم بحرية واسعة نجم عنه ظهور مواقف سياسية لهذه الطوائف والجاليات، وليس أدل على ذلك من أن يقرر قاضي القيروان منعهم من الاجتماع وتبديد حلقاتهم كما منعهم من مزاولة مهنة تعليم الصبيان وتأديبهم[2].

والحق إن القيروان خلال حكم الأغالبة أضحت من كبريات مدن العلم والثقافة ليس في المغرب، بل في جميع أنحاء العالم الإسلامي، فقد استقطبت إليها العلماء والفقهاء والمدرسين، كما كان يفد إليها طلبة العلم من بغداد ودمشق ومصر ومن حواضر المغرب من تاهرت وكلماسة وفاس وقرطبة للتفقه والدرس والمناظرة على شيوخ الفقهاء وأصحاب الفرق، فيذكر النفوسي قيام بكر بن حماد التاهرتي بمجالسة علماء القيروان ومناظراتهم في أمور الدين والمذهب "[3] .

أما تونس، فقد لعبت هي الأخرى دورا كبيرا في ازدهار العلم والفقه والأدب وتركت أثرها الفكري في افريقية وبلاد المغرب، وقد وصفها البكري بقوله: " أنها دار علم وفقه ولي منها قضاء افريقية جماعة كثيرة "[4]ولعل هؤلاء الذين يشير

---

[1] المؤنس في أخبار أفريقية وتونس ص 50

[2] د. محمود إسماعيل، الخوارج في المغرب الإسلامي ص 99

[3] الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الاباضية ج 2 ص 71

[4] المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ص 40

إليهم البكـري هم النخبة التي كانت تتولى مناصـب لقضـاء فـي جميـع افريقيـة والمغـرب.

والظاهر أن الأغالبة كانوا يتشبهون بالعباسيين وخصوصاً فيما يتعلق بإيجـاد المؤسسات العامة الثقافية منها والدينية فقد أسسوا مكتبة "بيت الحكمـة" التـي أشرف على قيامها وتجهيزها الأمير زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب سـنة **290** هـ وضمت مختلف الكتب والمجلدات والرسائل والتصـانيف جلبـت مـن بغـداد والأندلس وقد أصبحت فيما بعد تشبه إلى حد كبير ما كان سائداً في بغداد في عهد الخليفة العباسي المأمون[1]، والى جانب مكتبة بيت الحكمة، توجد مكتبات عامـة مماثلة في المدن الأخرى، كذلك أصبح مسجد القيروان الذي أسس سنة **50** هـ وجامع الزيتونة سنة **114** هـ في تونس بمثابة جامعتين علميتين يختلف إليهـا طلبة العلم طوال عهد الأغالبة وبعده فضلاً عن مسجد سوسـة ورباطهـا اللـذين أصبحا مدرستين لأصول المذهب المالكي.

---

[1] عثمان بن الكعاك، الحضارة العربية في حوض البحر الأبيض المتوسط ص 112

(5)

الفاطميون / حاضرتهم المهدية

تتميز الحركة الثقافية والفكرية التي أرسها الفاطميون في بلاد المغرب الإسلامي وفيما بعد في بلاد مصر، بالعمق والشمولية، فقد تعهدوها بمستلزمات النمو وأثروها باستيعاب علمائهم ونضجهم واهتمام خلفائهم بالاشتغال بالعلوم والمعارف والفنون والآداب، فقربوا العلماء والفقهاء والقضاة والمحدّثين والقراء والأدباء والشعراء وأصحاب المواهب والكفاءات من المؤرخين والأدباء والشعراء والمتصوفين، وصنفوا مئات الكتب في الحديث والعلوم والطب ونسخوها وأوجدوا مراكز العلم والثقافة في القيروان والمهدية ومن ثم في القاهرة والفسطاط وشدوا القصور التي أصبحت ميداناً لتجمع العلماء والفقهاء، يتنافسون ويتناظرون ويتطارحون في العلوم الدينية واللغة والشعر. أما المساجد فقد كانت بمثابة مراكز للعلماء والقضاة والوزراء يحاضرون الناس في العقائد والفقه، كما دأب الفاطميون على إقامة المكتبات التي كانت تحوي المصنفات من كتب اللغة والحديث والتاريخ والسير والفلك والكيمياء والطب، وكانت تنفرد باقتناء كتب لم يكن لها وجود في مكتبات قرطبة أو دمشق.

أما العلوم التي عُني بها الفاطميون واشتغلوا فيها، فهي جميع العلوم الإسلامية أو الدينية التي أطلقوا عليها العلوم النقلية أو الشرعية مثل علم التفسير والقراءات والحديث والفقه وعلم الكلام وعلوم اللغة العربية مثل النحو واللغة والبيان والأدب وكذلك تناولوا العلوم العقلية والحكمية التي كانوا يطلقون عليها علوم الأوائل أو العلوم الدخيلة وتشمل الفلسفة والهندسة وعلم النجوم وعلم الفلك والموسيقى والرياضيات والعلوم الطبيعية والتاريخ والجغرافيا.

ومن أبرز الفلاسفة في العهد الفاطمي في بلاد المغرب هو عبد الرحمن أبو حاتم الرازي الورسناني، وقد تأثر إلى حد كبير بمدارس الدعوة التي أسسها عبيد الله المهدي في بلاد المغرب، وكانت لأبي حاتم نظريات في المبادئ التي كان يؤمن

بها الفاطميون، كما أسهم في نشر الثقافة الإسلامية فتكلم في الفلسفة واللغة والتفسير والفقه ومن مؤلفاته كتاب " الزينة " تناول فيه الأمور الفقهية وفلسفة ما وراء الطبيعة وفيه معلومات عن الفرق الدينية وعن الجغرافية، وكتاب " أعلام النبوة " وهو من أهم الكتب الفلسفية، وقد توفى أبو حاتم الرزاي سنة 822 هـ[1] ومن الجدير بالذكر أنه على الرغم من البواعث السياسية والعسكرية لبناء الفاطميين مدينة المهدية فان دورها لم يقتصر على ذلك بل حرص الفاطميون ان تكون عاصمتهم الجديدة مركزاً من مراكز العلم ومجمعاً لعلمائهم وفقهائهم كما تميزت بالقصور والمنشآت والمساجد التي كان يتردد عليها طلبة العلم لأخذ الفقه وإتقان القرآن.

ولا شك في أن نشر مبادئ الفاطميين في بلاد المغرب بعد قيام دولتهم هناك استخدم تبصير المغاربة بفقهه وآرائه وعقائده فاتخذوا التفسير والتأويل وسيلة لهذا الغرض واعتماد الاستدلال العقلي في تفسير النصوص الدينية، كما أغدق الفاطميون الأموال على الشعراء الذين اتصلوا ببلاطهم فنجد المغالاة في شعرهم للإشادة بمجد الفاطميين وربما كان الفاطميون يفعلون ذلك لغرض استقطاب القبائل المغربية التي وقفت منهم موقفاً معادياً ولتثبيت دولتهم الفتية التي كانت تحتاج إلى التأييد والتعضيد.

---

[1] انظر للاستزادة عن دور أبي حاتم الرازي في الحركة العلمية والسياسية في الدولة الفاطمية في بلاد المغرب (د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية ص 467 - 469)

(6)

المرابطون / حاضرتهم مراكش

شهر عن المرابطين ومؤسسي دولتهم الأول، أنهم كانوا من المتفقهين والمتبحرين في العلم، فقد عرف عن يحيى بن إبراهيم الجدالي، ميله للعلم والفقه كما كان وجّاج بن زللو اللمطي، فقيهاً من أهل السوس الأقصى أخذ العلم وانقطع للعبادة والعلم وأسس مدرسة للمالكية في بلده في عهد دولة المرابطين وكثر عدد تلاميذه، أما عبد الله بن ياسين الجزولي، فقد هدى المرابطين إلى المتاجرة بالعلم والفقه في الدين، وكان يحث لمثونة وجداله على أخذ العلم وسرعان ما تجمعت حوله طائفة من التلاميذ أخذ يعلمهم القرآن والسنة وأحكام الدين.

وعلى الرغم من جفوة المرابطين وخشونتهم، فأنهم بدأوا يشجعون شعراء الأندلس وأدباءها وأهل العلم إلى الاختلاف الى بلاد المرابطين في المغرب فيذكر عبد الواحد المراكشي ما يشير الى اهتمام المرابطين بأهل العلم والكتاب وفرسان البلاغة، وهو يشبه بلاط المرابطين مجالس بني العباسي في بغداد في تشجيع العلماء والفقهاء والشعراء بقوله: " فأنقطع الى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله حتى اشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار "[1] وكان ممن اختلف من البلغاء والأدباء واللغويين أبو بكر المعروف بابن القصيرة، وهو كاتب المعتمد بن عبّاد الذي أسقطت إمارته بعد دخول المرابطين الأندلس والوزير عبد المجيد بن عبدون وأبو القاسم بن الجدّ المعروف بالأحدب وأبو بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطرية وأبو عبد الله ابن أبي الخصال الذي كان يُعدّ من أنبههم وأكبرهم مكانة لديه، وهو أحدج

---

[1] تلخيص أخبار المغرب ص 163 – 164

من انتهى إليه علم الأدب وأخوه أبو مروان[1] وهكذا تبدل بلاط يوسف بن تاشفين من بلاط يتسم بالخشونة والبساطة إلى بلاط متألق متحضر[2].

أما الحركة الفكرية المرابطية في الأندلس، فلدينا معلومات مفيدة عنها، فقد احتفظت بكثير من مظاهرها العلمية والأدبية، وهي استمرار لما كان عليه الأمر خلال عهد الطوائف. وقد بذلت دولة المرابطين رعايتها لطائفة كبيرة من العلماء والأدباء الأندلسيين واستخدم بلاط مراكش والأمراء والحكام بالأندلس كثيراً منهم في مناصب الوزارة والكتابة، أسوةً بما كان في عصر الطوائف، ولعل في مقدمة من ظهر من الكتّاب والأدباء في العهد المرابطي في الأندلس عبد الرحمن بن محمد أسباط المتوفى 487 هـ وخلفه في منصب الكتابة أعظم كتّاب الأندلس هو محمد بن سليمان الكلاعي الإشبيلي الذي كان من كتّاب الدولة في عهد يوسف بن تاشفين كما ضم البلاط المرابطي عدة من أعلام الكتّاب وأئمة البلاغة منهم أبو بكر بن عبد العزيز البطليوسى كما لمع اسم الكاتب، الفتح بن خاقان الذى أشتهر بأسلوبه البليغ المسجع ومن كتبه " قلائد العقيان " و" مطمح الأنفس " ويحيى بن محمد بن يوسف الأنصارى المعروف بابن الصيرفى وهو من أعلام العصر المرابطي في البلاغة والأدب والتاريخ ومن كتبه في تاريخ الأندلس " الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية " وكتاب " قصص الأنبياء وسياسة الرؤساء "

ويعقد الدكتور محمد مجيد السيد، فصلاً مهماً عن " الحياة الفكرية في دولة المرابطين بالأندلس، فيقول: إن عهد المرابطين كان فترة نيّرة متحضرة لا تقل تقدماً وازدهاراً عن فترة الخلافة والطوائف [3] وعلى الرغم من تعصب المرابطين الديني، لم يعارضوا النشاط الأدبي والثقافي أن لم يشجعوه وان اغلب حكام المرابطين كانوا يستدعون أشخاصاً معينين للاستفادة من علومهم مغدقين عليهم

---

[1] عبد الواحد المراكشي، م. ن ص 173.

[2] د. السيد عبد العزيز سالم، م. ن ص 748 نقلا عن ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس ص 247.

[3] الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس ص 80.

العطايا والنعم فقد استدعى علي بن يوسف بن تاشفين، الفيلسوف المتزهد، مالك بن وهيب من اشبيلية إلى حضرة مراكش وصيّره جليسه وأنيسه [1]. كما اهتم المرابطون بالكتّاب والبلغاء الأندلسيين للإعراب عن رغباتهم ومخاطباتهم مشجعين إياهم على الكتابة والتأليف، وكان لإبراهيم بن يوسف بن تاشفين، دور كبير في تشجيع الكتّاب والشعراء[2] وهكذا يمكننا القول أن الحركة العلمية والأدبية في عهد المرابطين سواء في المغرب الإسلامي أو الأندلس قد حافظت على تقدمها وازدهارها حتى بعد سقوط دولة المرابطين.

---

[1] م. ب ص 160

[2] م. ن، ص 61 " يذكر الفتح بن خاقان في صدر كتاب " قلائد العقيان " إنه اقدم على تأليف كتابه هذا مدفوعا بتشجيع من إبراهيم بن يوسف، كما يذكر ابن خفاجة في مقدمة ديوانه " إنه انصرف منذ زمن بعيد عن نظم الشعر لولا الأمير إبراهيم وحثه على قوله ومعاناته ".

الموحدون / حاضرتهم مراكش / واشبيلية

كانت دولة الموحدين، دولة حامية للعلوم والآداب والفنون، حيث كان مؤسسها محمد بن تومرت من أقطاب علماء عصره، فقد أفسح في دعوته للعلم وحضَّ على تحصيله بقوة وحماسة فقال: " العلم أعزّ ما يطلب وأفضل ما يكتب وأنفس ما يدّخر وأحسن ما يعمل ، وهو الذي جعله الله سبب الهداية الى كل خير وهو أعزّ المطالب وأفضل المكاسب وأنفس الذخائر وأحسن الأعمال "[1] كما كان عبد المؤمن بن على من ألمع علماء عصره ، التف حوله العلماء والكتاب والشعراء فبسط عليهم رعايته وغمرهم بصلاته. وكذلك كان يوسف بن عبد المؤمن بن على من أكابر علماء عصره، وكان أديباً متمكناً وفقيهاً ومحدثاً بارعاً شغف بالدراسات الفلسفية وقد جمع حوله طائفة من أعظم علماء العصر ومفريه وفي مقدمتهم أبو الوليد ابن رشد وأبو بكر ابن طفيل وأبو بكر بن عبد الملك بن زهر وهم من أساتذة الفلسفة والطب في هذا العصر، وكان ولده المنصور عالماً مستنيراً متمكناً من الحديث الشريف والفقيه واللغة، وكان بلاطه يضم العلماء و الأدباء و الشعراء و الأطباء و المهندسين والكتّاب والمؤرخين فيجزل لهم الصلات ويجرى لهم المرتبات العالية المنتظمة [2].

وعلى الرغم من تردي الأوضاع السياسية لدولة الموحدين في أواخر أيامها، فإننا نجد أمراءها لا يبتعدون عن أهل العلم والأدب والثقافة حتى لقد أصبحت النزعة العلمية هي الغالبة في البلاط الموحدي سواء في مراكش أو في اشبيلية، فقد جرى خلفاء الموحدين على سياسة إطلاق حرية البحث والتفكير والرأي باندفاع كبير إذا ما قورن بما كانت عليه دولة المرابطين.

---

[1] محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ص 645

[2] المصدر نفسه ص 646

ويمكن أن نستفيد من الفصل الذي عقده الأستاذ محمد عبد الله عنان عن الحركة الفكرية والعلمية خلال عصر الموحدين، حيث يورد لنا أسماء جمهرة من العلماء والفقهاء والمفكرين والشعراء و الأدباء، ممن كانوا يختلفون إلى بلاط الموحدين أو كانوا يعيشون في كنفهم وممن تلقوا منهم الرعاية والصلات سواء من أهل المغرب أو من الأندلسيين، ويمكن أن نلاحظ تأثيراتهم العلمية والثقافية في المغرب أو الأندلس حيث كانت تستهوي علماء المغاربة الحياة في مدن الأندلس أو أن علماء الأندلس كانوا يختلفون إلى مجالس الموحدين في مراكش[1].

كما اتخذ الموحدين مجالس العلم، يحضرها الأمراء والعلماء، وكان لها نظام خاص، إذ يتصدر الأمير المجلس ثم خطيب الجماعة ثم قاضي الجماعة بمراكش، فرئيس الأطباء فأكبر علماء الحضرة فباقي الأعلام الحاضرين على اختلاف مراتبهم، ثم تبدأ المناقشة والمناظرة حول مسألة علمية يلقيها الأمير أو أحد العلماء وتناقش ثم تختم الجلسة.

---

[1] للاستزادة والإطلاع انظر: محمد عبدالله عنان، عصر المرابطين والموحدين ج 2 ص 649 – 680

(8)

بنو مرين / حاضرتهم مراكش أو فاس

لا شك فى ان عهد بنى مرين يعد استمرارا لما كان عليــه عهــد الموحــدين وبخاصة فى الجوانب الحضارية والأحوال الفكرية والثقافية والعلمية منذ ظهر عدد من العلماء والمنكرين فى مدينة فاس وفى مراكش أو فى المدن والمراكز الآخرى التى أتيح لهم ان يبسطوا سيطرتهم ونفوذهم عليها ومعروف ان بعض من تــولى أمر الدولة المرينية كان من الفقهاء المتبحرين فى العلم. فقد عــرف عــن أبــى يوسف يعقوب انه كان من متقني العلوم الدينية وعارفاً بالحديث [1].

ومن الفقهاء والذين نسمع عنهم الفقيه أبو عبد الله محمد بن مرزوق الــذى ولاه الأمير أبو الحسن المريني أعمالا سلطانية عدة [2] وأرسله فى سفارات لتميزه فى العلم والمعرفة، وأبو القاسم محمد بن جزى الذى كان أحد شيوخ الوزير لسان الدين بن الخطيب كما كان "فقيهاً حافظا قائماً على التدريس مشاركاً فى علوم عدة عربية وفقه وأصول وقراءات وأدب وحديث، مستوعباً للأقوال، جماعــة للكتــب حسن المجلس، ممتع المحاضرة" [3].

---

[1] ابن أبى زرع، الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية ص 59.

[2] المقرى، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج5 ص 413.

[3] المصدر نفسه ص 414.

الفصل الثالث عشر

النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية

1- بنو مدرار: الإمارة المدرارية.
2- بنو رستم: الإمارة الرستمية.
3- الأدارسة: إمارة الادارسة.
4- الأغالبة: إمارة الأغالبة.
5- الدولة الفاطمية.
6- دولة المرابطين.
7- دولة الموحدين.
8- إمارة بنى مرين.

الفصل الثالث عشر

النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية

(1)بنو مدرار / الإمارة المدرارية:

قامت إماراتهم على مبدأ الخوارج الذى يبيح لكل فرد فى الدولة الإسلامية ان يحكم إذا توفرت فيه شروط وصفوها طبقاً لمبدئهم، ولكنهم أخذوا بنظام الوراثة فى الحكم بعد قيام إمارتهم وقد اتخذ حكم بنى مدرار الاستقلال عن النفوذ العباسى فى بداية عهودهم ولكنهم دخلوا فى تبعية الخلافة حتى وصفهم احد المؤرخين بانهم مجرد أعمال للعباسيين[1].

حكم الإمارة ستة عشر أميراً تراوحت سلطتهم بين القوة والضعف وفى عهد الأمراء الأواخر ضعفت السلطة السياسية فى الإمارة نتيجة للصراع بين أسرة بنى مدرار وتدبير المؤامرات بعضهم للآخر، وربما كان ذلك بسبب الانحياز الى مبدأ أهل السنة والتخلي عن مبادئ الخوارج التقليدية.

ومن الجدير بالذكر ان امارة المدرارين، تشكل فى أساسها تجميعاً للخوارج فى مناطق المغرب الأقصى يغلب عليه الطابع الديني المذهبي لذلك اصبحت مدينة سجلماسة بوتقة لتجمع عناصر مختلفة من قبائل المغرب وخاصة بطون قبائل مكناسة وصنهاجة اللثام من مسوفة ولمتونة وزويلة وكذلك جماعات من بلاد السودان وبعض الاندلسيين واليهود، وقد ساهم هؤلاء جميعاً فى عمران المدينة وازدهارها وظهورها كمركز اجتماعي، ولا ريب فى ان هجرة القبائل الى سجلماسة واختلاطها بجماعات السودان والاندلسيين المتحضرين نسبياً ترك أثراً فى أحوالها واستقرارها وأحدث تغيرات ملموسة فى عاداتها وتقاليدها وأساليب حياتها فترك معظمها حرفة الرعى واتجه نحو الزراعة والصناعة والتجارة ويبدو ان هذا النشاط خلق حافزاً للتطورات الاجتماعية وأوجد موازين جديدة للقوى الاجتماعية داخل المدينة مما أدى الى اتساعها وازدياد عمرانها شيئاً فشيئاً ويظهر

---

[1] د. محمود اسماعيل، المصدر السابق ص 94.

بصورة خاصة ان استقرار الصفات الاجتماعية التى نزحت إليها من المشرق وخصوصاً من بغداد ودمشق ومصر نقل الى سكان المدينة طباع سكان المدن الكبرى المزدهرة وحفهم على ممارسة حياة الترف والرفاهية ويشير ابن الخطيب الى ان أمير سجلماسة اليسع بن أبى القاسم 508/174هـ "بنى سور المدينة وقسم داخل السور على القبائل "[1] فازدهرت المدينة وأصبحت حاضرة لبنى مدرار[2] وأحس ابن حوقل بمنزلة أهل سجلماسة ورفاهيتهم بقوله "سجلماسة مدينة حسنة الموضع جليلة الأهل مع علم وستر وصيانة وجمال واستعمال للمروءة وسماحة ورجاحة "[3] أما البكرى فيتحدث عن غنى أهلها وكثرة أموالهم[4] ويصفها المقدسى فى القرن الرابع الهجرى قائلا: "سجلماسة قصبة جليلة وأهلها قوم جياد بها علماء وعقلاء "[5].

ولما كانت مدينة سجلماسة مدينة تجارية فلابد ان يظهر فيها النفوذ الإجتماعى للفئات التى تدير النشاط التجاري لذلك تبدو مظاهر الترف والثراء واضحة وبخاصة في عهد بنى مدرار حيث بلغت أوج تقدمها الإجتماعى متمثلاً فى مبانيها وفنها المعماري وتقدمها العلمي وتتركز فى سجلماسة كما فى غيرها من مراكز الحضارة فى العالم الاسلامي خلال هذه الفترة مظاهر الحضارة.

---

[1] أعمال الأعلام ص 143 .

[2] اليعقوبى، كتاب البلدان ص 350.

[3] صورة الأرض ص 90.

[4] المغرب ص 148.

[5] احسن التقاسيم ص 65.

ومعالم الترف الإجتماعي[1] مثل الحمامات والقصور والمنشآت ودور العلـم[2] وكذلك بروز العلاقات الاجتماعية الجديدة داخل الأسرة أو بين العناصـر والفئـات التى كان يمثلها التجار والمسافرون المسلمون الذين وفـدوا إليهـا مـن المـدن الإسلامية الشهيرة فى المشرق الإسلامى مثل البصرة والكوفة وبغـداد ودمشـق والسكان الأصليين على اختلاف قبائلهم ونحلهم أو بينهم وبين الأقليات من الأديان وخاصة اليهود الذين سيطروا على الحياة الاقتصادية بسبب استحواذهم على تجارة الذهب [3] .

غير أن أغلب القبائل المنضوية داخل حدود إمارة المدرارين جـذبهم الاهتمـام بالأنشطة الاقتصادية وبخاصة الزراعة حيث تقوم على المياه التى يوفرهـا نهـر ملوية الذى تقع على منحنياته مدينة سجلماسة حيث يحول هذا النهر المناطق التى تحيط بالمدينة الى سهول فيضية صالحة للانبات الزراعى فكـانوا يكثـرون مـن الأراضى الزراعية وتوسيع رقعتها بحفر الخلجان وشق القنوات مما يساعد علـى الاستكثار من الغروس وخاصة النخيل[4] كما احتفروا الأحواض واختزنـوا فيهـا

---

[1] وذلك بالقياس الى حياة القبائل الرحل فى البوادي الصحراوية وبراري سجلماسة واودغست ونواحي لمطة وفزان، ففيها مياه عليها قبائل مهملين لا يعرفون الطعام ولا ترد الحنطة ولا الشعير ولا شيئا من الحبوب والغالب عليهم الشقاء والالتحاح بالكساء وقوام حياتهم بـاللبن واللحـم فيـذكر الحميـرى ان السجلماسيين واغلبهم من القبائل التى هاجرت الى المدينة اكتسبوا كثيـرا مـن المهـارات فـى الآداب العامة ومنها مهارة الطـبخ تعلموهـا مـن السـودانيات المـاهرات فـى عمـل الأطعمـة ولاسـيما أصناف الحلاويات مثل الجوزنيات واللوزنيجات والقاهرات والكنافات والقطائف والمشـهيات (الـروض المعطار فى خبر الأقطار ص 64).

[2] ابن حوقل، المصدر السابق ص 84.

[3] يشير صاحب الكتاب الإستبصار فى عجائب الأمصار الى ان سكان سجلماسة نقموا على اليهود بسبب سيطرتهم على الاقتصاد واستعدوا عليهم داعية الفاطميين أبى عبد الله للانتقام منهم حيث أمر هذا الأخير بقتل أغنيائهم واخذ أموالهم وفرض عليهم امتهان احدى حرفتين: الكنافة أو البناء وكانت هاتان الحرفتان من الحرف الرذيلة لكنهم ما لبثوا ان عادوا الى مزاولة دورهم فى الحياة الاقتصادية (مجهول ص202).

[4] ابن الخطيب، المصدر السابق ص 139.

المياه لري مزارعهم ولشربهم وأغراضهم الأخرى[1] وبذلك اصبحت منطقة سجلماسة عبارة عن واحة مغمورة بالبساتين والغروس ومقسمة الى أحواض تملؤها مياه وادى نهر ملوية بفرعيه الشرقى والغربى.

ويلقى ابن حوقل ضوءاً مفيداً على طبيعة النشاط الزراعى والمواسم الزراعية فى المناطق التى تدخل تحت نفوذ المدرارين ويقارنها مع الزراعة فى مصر التى كانت تتم بالارواء من ضفتي نهر النيل فيشبه نهر ملوية بنهر النيل لما يزيد فى الصيف فيتم الزرع حسب زرع مصر وكانوا يزرعون سنة ويتركون الأرض فى السنة التالية كما ان بعض الأراضى تغدق بالمياه فيتم استصلاحها فتزرع لمدة سبع سنين متوالية [2] .

ولعل من أهم منتجاتهم الزراعية، الأعناب والزبيب الظلى[3] والتمور التى كانت على أنواع حيث بلغت ستة عشر صنفاً يذكر ياقوت منها: "العجوة والدقل ويقول أن أكثر أقوات أهل سجلماسة من التمر " [4] . كما ان لهم رطباً أخضراً مثل السلق فى غاية الحلاوة " [5] كما زرعوا القمح والشعير وعرفت لديهم أنواع من الحبوب ليست قمحاً ولا شعيراً صلب المكسر لذيذ المطعم وخلقه بين القمح والشعير[6] ويسمى البكرى هذا النوع من الحبوب (الصينى)[7] والى جانب غرس الأشجار وزراعة الحبوب ظهر اهتمامهم بزراعة القطن والكمون والكروياء والحناء[8] وأنواع من الخضر والثمار والرمان وجميع الفواكه والمحاصيل بحسب فصول

---

[1] البكرى، المغرب ص 148 ثم انظر كتاب الإستبصار ص 201 يقول: " ولهم مزارع كثيرة يسقونها من النهر فى حياض كحياض البساتين ".

[2] صورة الأرض ص 90.

[3] البكرى، م. ن. ص 148.

[4] معجم البلدان ج3 ص 162.

[5] ابن حوقل، المصدر السابق ص 90.

[6] م. ن. ص 90.

[7] المغرب ص 151.

[8] الادريسى، صفة المغرب وارض السودان (قطعة من كتاب نزهة المشتاق) ص 98.

السنة كما اعتنوا بتربية الماشية والأغنام والأبقار فكانوا يبيحون البلاد للمراعي والزرع والمياه لورود الإبل والماشية "[1].

أما في مجال الصناعة فان بعض من السكان لا يعدمون الاشتغال ببعض الصناعات اليدوية، مثل صناعة النسيج التي كانت تعتمد على القطن الذي ينتج محلياً وعلى الصوف الذي يصفه البكري بانه من أجود الأصناف ويعمل منه بسجلماسة ثياب يبلغ الثوب منها بأكثر من عشرين مثقالا [2] لذلك اشتهر اللباس السلجماسي في بلدان المغرب والمشرق والأندلس[3] ويفيدنا ياقوت بما ذكره عن مهارة النساء السجلماسيات في صناعة النسيج وتفوقهن في صناعة الأزر فقال: (ان لنسائهم يد صناع في غزل الصوف فهن يعملن منه كل حسن عجيب بديع من الارز تفوق الأرز القصبية التي بمصر يبلغ ثمن الازار خمسة وثلاثون ديناراً وأكثر كأرفع ما يكون من القصب الذي بمصر ويعملون منه غفارات يبلغ ثمنها مثل ذلك ويصبغونها بأنواع الأصباغ " [4].

وهناك حرف تتعلق بالبناء مثل الحدادة والنجارة وصناعة السكر وتكرير الملح[5] وصناعة الأحذية [6] الى جانب صناعة الأواني الخشبية من شجر يعرف (تامجاثت)* وهو اسم المنطقة التي كان يؤخذ منها وصناعة المصوغات الذهبية والعضية والحلي يقوم بها صاغة مهرة في مدينة سجلماسة اغلبهم من أهل

---

[1] ابن حوقل، م. ن. ص 100

[2] المغرب ص 147.

[3] وهذا اللباس يشبه اللباس الدرجيني في ثوبه ولونه ولكنه يفوقه جودة (انظر د. الحبيب الجنحاني، المغرب الإسلامي ص 174).

[4] معجم البلدان ص 192.

[5] القلقشندي بصبح الأعشى في صناعة الانشا ج5 ص 164.

[6] الشماخي، السير ص 248.

* يصفه البكري (شجر يعظم ورقة حدب كورق الطرفاء ويصنع منه آنية سجلماسة ودرعه) ص 156.

الذمة[7] ،وكانت معادن الذهب والفضة تستخرج من المناجم والمحاجر فى منطقة درعة [1] أو من الذهب المستورد من بلاد السودان[2] كما يوجد معدن الفضة بجبل مجاور لمدينة سجلماسة، ويؤكد البكرى أنها بلاد مشهورة بالذهب[3] كما يؤكد الأصطخرى أنها بلاد قريبة من معدن الذهب بينها وبين ارض السودان وارض زويلة ويقال انه لا يعرف بلداً للذهب أوسع ذهباً ولا أصفى منه[4].

وفى التجارة تحتل امارة بنى مدرار مكانة مرموقة بين إمارات ودول المنطقة بسبب نشاطها الذى كان يتركز فى مدينة سجلماسة التى اصبحت على حد قول الدكتور الحبيب الجنحانى مركزاً تجارياً عالمياً فى تلك الفترة، ويعزى ذلك الى تجمع الثروة فيها ولاسيما الذهب الذى أتاح لهم مزاولة التجارة على نطاق واسع فاصبح أهلها من أغنى الناس وأكثرهم مالا [5]. وكان الاتجار بالذهب يحتل المنزلة الأولى بين تجارات المدراريين ويفهم مما جاء عند البكرى[6] وياقوت[7] ان حصول السجلماسيين على الذهب تبدو أهميته دون البضائع والتجارات الأخرى حتى أصبح هذا المعدن عند سكان المدينة "جزاف عدد بلا وزن".

ولا غرو، فان النشاط التجاري يتمثل بجميع البضائع التى كانت تحملها القوافل التجارية سواء المتجهة الى سجلماسة أو المنطقة فهى ولعل أهم السلع التى كانت تصدرها هذه المدينة الى بلاد السودان وغانة والتكرور ومدينة واودغست هى

---

[7] (واغليهم من اليهود أو الاندلسيين والفرس والمشارقة) د. الحبيب الجنحانى ، المصدر السابق ص 175 .

[1] ابن الفقيه الهمدانى، مختصر كتاب البلدان ص 80.

[2] د. الحبيب الجنحانى، المصدر السابق ص 175.

[3] المغرب، المصدر السابق ص 151.

[4] مثك الممالك ص 34.

[5] المغرب الاسلامى ص 176.

[6] المغرب ص 157.

[7] معجم البلدان ص 151.

القمح والتمور والزبيب والثمار المجففة والمنسوجات القطنية والصوفية والنحاس المصنع والاحجار الكريمة والخرز والملح والحناء والماشية [1]. أما وارداتها من اودغست فهي أشجار الصمغ ومن السودان الذهب والرقيق[2] وفي نطاق التجارة الخارجية فيستورد التجار السجلماسيون الفستق من مدينة قصه ويحملون السكر والكمون والكراوية والأحذية الى القيروان [3].

وتبادل تجار بنى مدرار مع بلاد الأندلس، السلع والمتاجر، فكان المدراريون يصدرون القمح والسكر والكروم والتمور فى مقابل الثياب والمطرزات القطنية والكتانية والحريرية التى اشتهرت بها قرطبة [4]. ونتيجة لتطور صناعة النسيج القطني فى سجلماسة فقد استوردت القطن الاشبيلى الخام الشهير فى جميع أنحاء العالم الإسلامى ، فيشير الحميرى الى ما يفيد بجودة القطن فى اشبيلية وتجهيزه إلى سجلماسة[5] كما انه نتيجة لهذا التبادل التجاري، ان توطدت العلاقات بين الطرفين وقدمت التسهيلات للتجار الاندلسيين المدرارين فى جلب السلع التى كان يروق لهم المتاجرة فيها .

ويبدو أن امارة بنى مدرار عقدت أوثق الصلات ببلاد التكرور وغانة التى كانت تعرف ببلاد السودان الغربي واحتلت العلاقات التجارية مكانة متميزة وأصبحت سجلماسة مركز الاتصال بين بلاد المغرب الإسلامى وبين بلاد السودان حيث تتجمع القوافل فى مدينة درعة عند خروجها من إمارة بنى مدرار، وعرفت " أيو الأتى " بأنها أولى المراكز السودانية التى كانت تنزلها هذه القوافل[6].

---

[1] البكرى، المصدر نفسه ص 158-159، الأدريسي، نزهة المشتاق ص 60.

[2] البكرى، المصدر نفسه ص 150.

[3] د. محمود اسماعيل، المصدر السابق ص 208.

[4] د. محمود اسماعيل، الم صدر السابق ص 209.

[5] الروض المعطار ص 59.

[6] د. محمود اسماعيل، م. ن. ص210.

ويسلك التجار القادمون الى الإمارة المدرارية أو الخارجون منها مع قوافلهم طرقاً برية وبحرية ولعل أهمها طريق تربط سجلماسة بمدينة وجدة، تبدأ من هذه الأخيرة الى مدينة صاغ ومنها الى تافلييت ثم الى جبل بنى يرنييان وقير ومنه الى مدينة الاحساء ثم الى مملي منتهيا بسجلماسة[1]. وكانت هذه الطريق تتصل بطريق أخرى فى موضع معين من المشرق الإسلامى مبتدئة من بغداد والبصرة مارة بالانبار وهيث والرقة وحران والرها وتل موزن وحلب ودمشق وطبرية والرملة والفسطاط والإسكندرية ومنها برقة ثم الى طرابلس ثم تصل الى تاهرت عاصمة الرستمين ومنها الى سجلماسة والطريق الثانية التى تربط امارة المدراريين مع الإمارة الرستمية مبتدئة من سجلماسة ومنتهية بورجلان[2] والثالثة بإمارة الادارسة من مدينة فاس الى سجلماسة أما الطرق البحرية فهى التي تنتهى عند موانى المدراريين على ساحل الأطلنطى مبتدئة من موانئ الأندلس مثل اشبيلية وشاطبة . وكان ميناء بحريت من الموانئ الشهيرة التى دأبت على تصدير البضاعة الى سجلماسة وتابحريت مدينة مسورة على ساحل البحر وهى محط للسفن ومقصد لقوافل سجلماسة[3] .

وتحدثت المصادر عن العملة السجلماسية وأهميتها فى محيط التداول حيث اقتنى أمراء الأندلس منها كثيرا واتخذوها وسيلة للتبادل وربما كان ذلك بسبب محافظتها على قيمتها النقدية أو لأنها ضربت من الذهب الإبريز الذى كان يفضله الاندلسيون لذلك اصبحت حركة التبادل التجاري فى امارة بنى مدرار تتم بمقايضة الذهب وبخاصة فى عهد الأمير الشاكر لله[4] حيث ضرب السكة باسمه ولقبه وكانت تسمى "الدراهم الشاكرية " [5] وهى عملة طيبة للغاية [6] وان العملة التى ضربها

---

[1] البكرى، المصدر السابق ص 80.
[2] البكرى، المصدر السابق ص 77.
[3] م. ن. ص87.
[4] ابن خلدون، العبر ج 6 ص 131 السلاوى، الاستقصا ج1 ص 113.
[5] م. ن. ص 270.
[6] السلاوى، م. ن ص 119 يوجد هناك صورة لدينا ضرب في عهد الشاكر بالله : الكتابة دائرية الوجه الأول : بسم الله ضرب هذا الدينار سنة ستون وثلاثين وثلاثمائة (363) -محمد رسول الله- الإمام الشاكر لله أما الوجه الآخر فغير واضح وتصعب قراءته وهناك شكوك تحوم حوله وتجد دينارا آخر ضرب سنة 345هـ الوجه الأول : عبد الله - لا اله إلا الله وحده لا شريك له والوجه الآخر - محمد رسول الله - الإمام - الشاكر لله -بسم الله ضرب هذا الدينار سنة خمس وأربعين وثلاثمائة(انظر د. محمود اسماعيل، المصدر السابق ص 304) .

سنة 336هـ كان لها وزنها 19 غم وقطرها 39ملم والتى ضربها سنة 340 هـ وزنها 21غم وقطرها 40.10 ملم[1] .

(2) بنو رستم / الإمارة الرستمية:

إمارة مستقلة استقلالا تاما عن سطوة العباسيين ونفوذهم وكان ينبغى ان تكون "الإمامة" (السلطة) فيها متداولة تطبيقا لمبادئ الخوارج فى موضوع الخلافة الإسلامية ولكنهم انتهجوا النظام الوراثى فى الحكم وأوجدوا ما أطلقوا عليه "مجلس الشورى" أو "مجلس المستشارين" ويكون الإمام مسئول أمامه عن تنفيذ ما ينص عليه مبدأ الشورى الذى اتخذه الخوارج الإباضيون وكان هذا المجلس يتألف من (الشراة) الخوارج وشيوخ المذهب وزعماء القبائل ووجوهها ويتكون من سبعة من رجال الإمارة وصفوا بأنهم أصحاب الصلاح والزهد والعلم وكانت سياسة عبد الرحمن بن رستم مؤسس الإمارة تقوم على إرساء نظمها وإدارتها وذلك بإيجاد القوانين والرسوم التى تحكم مسيرتها كما التزم بسياسة المهاونة مع القوى الخارجية ووضع هدفا لتحقيق المصاهرات السياسية مخالف بنى مدرار وهم إخوانه فى المذهب بمصاهرة احد أمرائها وهو اليسع بن أبى القاسم.

والظاهر ان سياسات الأمراء الأوائل قد أثمرت فى تقوية الإمارة وجعلتها تتقدم فى خطوات ملموسة فأصبحت مثابة لأهل المغرب والمشرق واستحدثت القوانين التى تنظم الاحوال الاقتصادية والعلمية والفنية والاجتماعية فى الإمارة وذلك لجميع السكان والطوائف الإسلامية التى هاجرت واستوطنت فيها.

لقد تمخض قيام امارة الرستميين وتأسيس مدينة تاهرت حاضرة لها عن تحولات اجتماعية ملموسة فى حياة السكان وبخاصة منطقة المغرب الأوسط فقد ترتب عليه الانتقال من حياة البداوة والترحال والرعي الى حياة الحضارة والاستقرار حيث ظهرت المعالم الحضارية المتمثلة بمخلفاتهم المادية مثل دور الإمارة والقصور والمباني والضياع والمنشآت العامة مثل الفنادق والحمامات

---

[1] Lavoio x, M. H. Cataloque des nmonnaies Muslu-Mane de la' Biblioitheque Natiamale "Lapagne et Atrique" Paris-1891, P 402.

والمساجد ومراكز العبادة والتصوف فكان عهد افلح بن عبد الوهاب من العهـود الزاهرة الذى "شمخ فى ملكه وابتنى القصور واتخذ لها أبواباً من الحديد وتنـافس الناس فى البنيان حتى ابتنى الناس القصور والضياع وأجروا الأنهار إليهـا "[1] وكان الرستميون قد تأثروا ببناء منشأتهم وقصورهم بالتقاليد المعمارية العراقيـة والسورية فقد كان نظام البناء فيها أشبه بالقصور التى شيدها الخلفاء الأمويـون فى بلاد الشام[2].

إن القبائل التى ناصرت الرستميين وبخاصة لماية ولواته وهـواره وزواغـه ومطماطة وزناته ومكناسه قد استقرت فى مدينة تاهرت وضـواحيها أمـا قبائـل مزاته وسدداته فكانت تنتجع من مواطنها فى مواسم معينة باتجاه المدينة لإصابة الماء والكلأ كما فضلت قبيلة نفوسه البقاء فى المنطقة الجبليـة قـرب طـرابلس وعلى أية حال فان ما ينتقل من جميع هذه القبائل المنتجعة الى تـاهرت يصـبح جزءاً من سكانها ويتحول الى الحياة الحضرية.

وبمرور الزمن ظهر فى مدينة تاهرت خليط سكاني غير متجانس وتعقيدات فى طبيعة العلاقات بين سكان المدينة المتحضرين بمظاهر الترف والبذخ وبين القبائل الظاعنة أمام ابوابها حيث احتفظت بطبيعتها القبلية[3]. وتاهرت مثل غيرهـا مـن المدن الإسلامية المعاصرة لها برزت فيها طبقة جديدة من السكان حـازت علـى الثراء والعقارات[4] وعلى النفوذ والامتيازات فى الإمارة والحكومة[5]

إن هذه الطبقة الاجتماعية كانت تسمي لضمان مصالحها وديمومتها وكان عليهـا ان تتطلع الى السلطة وتنتزع لها صلاحيات داخلها وتعمل على تكـريس نفوذهـا

---

[1] ابن الصغير المالكي، أخبار الأئمة الرستميين ص 26، النفوس، الأزهار الرياضية ص 42.

[2] لم يتبق من هذه المنشآت شئ يذكر حيث تخرجت عمارها وأصبحت أطلالا وان الاستنتاجات تقوم على المصادر التاريخية بهذا الخصوص.

[3] د. الحبيب الجنحاني، المغرب الإسلامي ص 113.

[4] يمكن ان نطلق على هذه الطبقة "الأرستقراطية" كما هو الحال بالنسبة للمدن الإسلامية الأخرى فى حقبة العصور الوسطى.

[5] ابن الصغير المالكي، أخبار الأئمة الرستميين ص 26-31.

وكان لهذا أثره الواضح في نشوب الثورات والانتفاضات وحدوث دوامة من الفوضى السياسية ومزيد من الصراع المصحوب بالمؤامرات داخل سلطة الإمارة.

وكان الانصراف الى الحياة الاقتصادية قد ترتب عليه قيام حركة التطور الإجتماعي فادى الى حياة مترفة وباذخة وتحولت مدن غدامس وورجلان وودان وزويلة من مجرد قرى صغيرة مغمورة على حافة الصحراء الى منافذ وثغور داخلية آهلة بالحركة والنشاط كما غدت مراكز حضارية تزدان بالعلم والثقافة والسياسة والفن [1].

ولدينا بعض المعلومات عن التحولات الاجتماعية التى أصابت الرستميين في مضمار الحضارة وعن تشبههم بالمشارقة فى امتلاك القصور والضياع والمنازل والحصون واقتناء الجواري والغلمان والعبيد والحشم والانصراف الى حياة الترف والولع بالفنون والآداب وإقامة الأسمطة والمآكل للاطعام فى أيام الأعياد ونصب الاحتفالات والمهرجانات التى كانت تحضرها الوفود من العامة والأجناد أو من الخاصة والأمراء ورجال الجيش والبلاط أو من وفود الدول والإمارات الأخرى وسفاراتهم [2].

ومن التطورات التى شهدها المجتمع الرستمي ظهور المرأة على مسرح الأحداث السياسية والاجتماعية فقد كان لبعضهن دور فى الحركة والدعوة الاباضية[3] كما أسهم بعضهن الآخر فى الحياة الفكرية والثقافية حيث كن يحضرن الدروس والمناظرات التى كانت فى المساجد[4] ومن النساء اللاتي برزن في السياسة "غزالة" أم شبيب بن يزيد الشيباني و"غزال" زوجة أبي اليقظان محمد بن

---

[1] د. محمود اسماعيل، المصدر السابق ص 217.

[2] النفوسي، الأزهار الرياضية ص11، 25، 48، ابن الصغير المالكي أخبار الأئمة الرستميين ص 31،34،49،52 .

[3] الشماخي، السير ص 193.

[4] لقد كان فى كل مسجد قسم خاص للنساء يفصله عن قسم الرجال جدار محرم يستر النساء ولا يحجب عنهن صوت المدرس.

أبى اليقظان التى أرغمت زوجها على تقليد ابنها يوسف ولاية العهد و "دوسر" ابنة يوسف بن محمد بن أبى اليقظان التى كان لها دور معروف فى الأحداث التى أودت بالإمارة الرستمية[1]. أما من برزن فى علم الفلك والنجوم فمنهن أخت عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم حيث نافست أخيها افلح فى تتبعه واهتمامه بهذا العلم[2] .

وتقترن التطورات الاجتماعية فى امارة الرستميين بالتحولات الاقتصادية التى شهدتها والزراعة تأتى فى مقدمة الاهتمامات التى انصرف الناس إليها حيث شهدت ازدهاراً ملحوظاً ولعل أوضح صورة للنشاط الزراعى ما يذكره الأصطخرى بقوله: "ان مدينة تاهرت كبيرة خصبة واسعة البرية والزروع والمياه[3]" وكذلك ما أشار إليه المقدسى وهو من أهل القرن الرابع الهجرى ومعاصر للرستميين قوله:"ان تاهرت عاصمة الرستميين قد أحدق بها الأنهار والتفت بها الأشجار وغابت فى البساتين ونبعت حولها الأعين "[4] ويؤكد معاصره ابن حوقل أن أهل تاهرت "لهم مياه كثيرة تدخل على أكثر دورهم وأشجار وبساتين وهى احدى معادن الدواب والماشية والغنم والبغال ويكثر عندهم العسل والسمن[5]" والظاهر أن الاهتمام بالزراعة استمر حتى بعد زوال امارة بنى رستم فيذكر البكرى فى القرن الخامس الهجرى " إن تاهرت تقع فى سفح جبل على نهر يسمى (مينه) ونهر آخر يجرى على عيون تجتمع يسمى (تاتش) ومنه شرب أهلها وارضها وفيها جميع الثمار وسفرجلها يفوق سفرجل الأفاق حسناً وطعماً ومشماً "[6] أما

---

[1] انظر للاستزادة: د. محمود اسماعيل، المصدر السابق ص 218، محمد على ديوز المغرب الكبير ج3 ص 109.

[2] الشماخى، السير ص 193.

[3] المسالك والممالك ص 34.

[4] احسن التقاسيم ص 228.

[5] صورة الارض ص 86.

[6] المغرب ص 66-67.

صاحب كتاب الإستبصار فيؤكد المعلومات التى جاءت عند البكرى ان تاهرت فى منطقة بساتين كثيرة فيها جميع الثمار[1] كما يتحدث عن قلعة هوارة بضواحي تاهرت أنها قلعة منيعة فى جبل خصيب فيه بساتين وثمار وأشجار ومزارع وأعناب[2].

أما المناطق الزراعية، فاهمها منطقة الجانب الغربي والشمالي من الإمارة وتشتهر بزراعة الحبوب ومنطقة الجانب الشرقى وهى بلاد نفوسة وتمتاز بالكروم والأعناب والتين والحبوب ومنطقة جربة الشهيرة ببساتين الزيتون والنخيل والكروم ومنطقة الجنوب وهى موطن النخيل ومنطقة الواحات ومنطقة وارجلان الكثيرة الزرع والضرع من الحبوب والنخيل ومنطقة بلاد الجريد وهى قسطيلية ونفطة تنتج التمور والحبوب والحنطة والشعير[3] ويستفاد من إشارة النفوسي وهو مورخ مطلع نقل معلوماته عن الرستميين من مصادر معتمدة ان الرستميين اختاروا موقع عاصمتهم فى مكان "جيد الهواء كثير المياه خصب الأرض"[4] والظاهر انهم افادوا من هذه المياه اذ شقوا القنوات فزرعوا الكتان والسمسم وسائر الحبوب وغرسوا الأشجار واقاموا البساتين[5].

والى جانب الزراعة فى امارة الرستميين ظهر الاهتمام بالصناعة التى كانت تقوم خبرة الصناع والمهرة وأصحاب الحرف من الأمصار والأقطار الذين استوطنوا تاهرت والمدن الأخرى فبرزت صناعة المنسوجات الصوفية والكتانية والقطنية والحريرية والزرابى المزركشة وصناعة القوارير الزجاجية والاوانى الخزفية البراقة والملونة والحلي الذهبية والفضية واوانى النحاس الأحمر والأصفر المنقوش والخشب المحفور والمموه والمرصع بالعاج أو الصدف والمصنوعات

---

[1] مجهول ص 176.

[2] م . ن. ص 178-179.

[3] بحاز إبراهيم بكير، الدولة الرستمية (رسالة ماجستير لم تطبع بعد) الورقة 150 .

[4] الأزهار الرياضية ص 134.

[5] البكرى، المصدر السابق ص 68.

الحديدية بأنواعها مثل الأسلحة والأقفال والاواني والتحف المعدنية وصناعة الافاوية والعطور والأدوية المركبة والعقاقير الطبية وأنواع الصبغة ذات الألوان الزاهية[1] وصناعة ضرب النقود والسكة من الذهب المجلوب من بلاد السودان[2]. وهناك صناعة مرتبطة بالزراعة والماشية مثل صناعة المحاريث والمناجل والفؤوس، كما توجد معاصر الزيتون ومطاحن القمح الموزعة على الأنهار العديدة[4].

ومن الجدير بالذكر ان وفرة المناجم والمحاجر في بلاد الرستميين ساعد كثيرا على ظهور معظم الصناعات وارتقائها وتطورها وكثرة المشتغلين فيها من العناصر غير المغربية مثل الاندلسيين والعرب المشارقة واليهود الذين كانوا يقيمون في تاهرت[5] وجاء عند الدكتور الجنحاني ان الحفريات التي أجريت في منطقة تاهرت عثرت على قطع من الخزف والاواني دللت على وجود صناعات يدوية فيها كما ان المدينة عرفت مصانع تنتج الاواني وما تحتاجه حركة البناء ولاسيما القصور والمنازل والمباني من الخزف والمنقوشات الملونة[6].

أما النشاط التجاري في امارة الرستميين منذ اخذ دوره في التحولات الاجتماعية حيث لعب التجار الرستميين دور الوسيط التجاري بين المشرق الإسلامي والمغرب الإسلامي طوال فترة القرن الثالث الهجري فكانت التجارة تنقل عبر الصحراء من بغداد والبصرة وتسلك الطريق نفسه الذي يؤدي الى تاهرت وسجلماسة عاصمة بني مدرار كما نقل الرستميون تجارتهم الى بلاد الأندلس حيث وصلوا الى موانئها المهمة مثل شاطبة وتدمير ومرسي أقلة[7] كما استقبلوا التجار الاندلسيين.

---

[1] أبو زكريا، السيرة واخبار الائمة الورقة 42،41،37 ، الدرجيني ، طبقات الاباضية الورقة 47.

[2] ابن الصغير المالكي، أخبار الائمة الرستميين ص 12، 13.

[4] د. محمود اسماعيل، المصدر السابق ص 205 – 206 .

[5] النفوسي، المصدر السابق ص 9.

[6] د. محمود اسماعيل، المصدر السابق ص 205.

[7] بحاز إبراهيم بكير، المصدر السابق الورقة 193-195.

ويمكن القول، ان منافذ الإمارة الرستمية اصبحت محطات لرحيل القوافل من المشرق والمغرب والأندلس على السواء ويبدو ان طائفة من التجار العراقيين كان لهم مساجدهم ومنازلهم وفنادقهم وأسواقهم الخاصة[1] معا يشير الى اهتمام الرستميين بتجارة المشرق وايلاء التجار المشارقة رعايتهم فكفلوا لهم الحماية والأمان فى طرقهم وبلادهم[2] .

ومن مظاهر الحركة التجارية ما كان يفد من تجار القيروان الى تاهرت وما كان يخرج من تاهرت الى القيروان من القوافل التجارية تنقل مختلف السلع والمتاجر وذلك نتيجة للتسهيلات التى كان يقدمها الرستميون للتجار وتأمينهم على نقل التجارة وكثيرا ما آثر بعض التجار والحرفيين الاندلسيين والمدراريين والعراقيين وغيرهم الإقامة فى تاهرت والعمل فى أسواقها وحوانيتها.

وكان الرستميون يستوردون كثيرا من السلع والأمتعة من بلاد السودان وأهمها الذهب الخام لاستعماله فى ضرب النقود والعملة أو لاتخاذه حلياً وكذلك ريش النعام وجلود الحيوانات والأبنوس كما استوردوا السلع الأندلسية عن طريق الموانى فى تنس ومستغانم ووهدان وكانوا يصدون الثياب القطنية والكتانية والحريرية التى كانت تشتهر بها قرطبة[3] كما تصدر الى السودان المنسوجات الصوفية والكتانية والحريرية والاوانى الزجاجية والخزفية والأصواف والتحف المعدنية والعطور والبخور والافاوية[4] إضافة الى الملح والنحاس والودع[5] كما خرجت قوافل الرستمين الى بلاد الأندلس حاملة القمح والعاج والجلود المصنعة التى كانت تحصل عليها خاماً من السودان وغانة[6].

---

[1] د. محمود اسماعيل، المصدر نفسه ص 209.

[2] بحاز إبراهيم بكير، المصدر نفسه الورقة 175.

[3] ابن الصغير المالكى ص 18.

[4] النفوسي، الأزهار الرياضية ص 137.

[5] القلقشندى، صبح الأعشى ج5 ص164.

[6] د. السيد عبد العزيز سالم ج2 ص 577.

ويشير الأصطخرى الى الطريق التجارية التى كانت تربط كلاً من تاهرت وسجلماسة وكانت مسافته بينهما تقرب من خمسين مرحلة[1] وهذه الطريق كانت تعج بالقوافل من كلتا العاصمتين وهى محملة بالسلع والمنتوجات لغرض تبادلها.

ولا غرو فان نشاط التجار الرستميين ترك آثاراً اجتماعية فى مدينة تاهرت ونجد كثيراً من التفصيلات عند المؤرخين والجغرافيين عن مظاهر العمران والرفاهية وتنوع الحضارة فى هذه المدينة ونخص منهم ابن الصغير المالكى الذى يشير الى ان أهل تاهرت "علت وجوههم سيماء الحضارة والرفاهية وبدت من محياهم آثار النعمة والغنى[2]".

ومن الجدير بالذكر ان منطقة ورجلان ومدينة ورجلان فى الصحراء كانت من اكبر القواعد التجارية فى الإمارة الرستمية وتتركز تجارتهم مع السودان فيذكر النفوسي بهذا الصدد قائلا: "وكان اكثر المسافرين لتجارة السودان فى ذلك العهد من أهل مدينة ورجلان وهواره" [3] كما أن قبيلة هواره من اكثر القبائل التى تولت النشاط التجاري فى شرق طرابلس وفى المغرب الأوسط وفى الصحراء وفى تاهرت وفى جبال أوراس وفى المغرب الأقصى وقد تخصصت فى التجارة مع بلاد السودان[4] فضلاً عن ان أهل جبل نفوسه وهم رعايا فى الإمارة الرستمية قد تولوا مهمة النشاط التجاري مع السودان. أما تجارة الرستميين مع مصر فقد كانت هوارة ونفوسة وبعض القبائل الأخرى تتولاها فقد كانت تجوب صحراء سرت ناقلة البضائع التجارية بين المدن الرستمية فى المغربين الأدنى والأوسط وبين مصر[5].

---

[1] المالك والممالك ص 37، 38.

[2] أخبار الأئمة الرستميين ص 13.

[3] الأزهار الرياضية ص 174 .

[4] محمد على دبوز، تاريخ المغرب الكبير ج3 ص 348 (جاء ان قبيلة هواره انشأت مدينة اهقار) وجعلتها مركزا لتجارتها مع السودان.

[5] محمد على دبوز ن المصدر نفسه ص 351 .

(3) الأدارسة / إمارة الأدارسة:

امارة مستقلة، وهي تمثل آمال العلويين في إقامة كيان سياسي لهم طالما افتقدوه في المشرق الإسلامي بعد ان خذلهم العباسيون غداة إسقاط دولة الأمويين هناك، اذ كانوا يطمحون لتكوين دولة ترتكز على مقومات سياسية وإدارية وقد حققوا أهدافهم حيث برزت إمارتهم في المغرب الأقصى، وهي تتحد في الإجراءات العباسية التي كانت تستهدف القضاء عليها وتصفية أمرائها.

كان نظام الحكم في امارة الادارسة وراثياً، حيث تولاها عشرة أمراء جميعهم من سلالة إدريس بن عبد الله، وبعد وفاة إدريس الثاني تولى ابنه محمد فقسم الإمارة الى أعمال (وحدات ادارية) لكل عمل منها دواوين وكتاب وجباة. وقد تمتعت امارة الادارسة بأسباب القوة والمنعة واستطاعت ان تبسط سيطرتها على اغلب القبائل المغربية في منطقة المغرب الاقصى ومنها اوربة وضدينة وزناته وزواوة ولواته وسدراته ونفزة ومكناة وغمارة، لذلك يمكن القول ان قيام الإمارة يمثل في جانبه الإجتماعي اتجاهاً يبلور صيغة لحركة جديدة ذات طابع قومي- إذا صح التعبير - فقد قامت على جهود هذه القبائل وكان انتصارهم لدعوة الادارسة قد تم باختيارهم منطلقين من مبدأ أحقية العلويين وهم آل البيت في خلافة المسلمين لأنهم ورثوا باعتقادهم على النبوة وأسس الحكم وقد أفضت حركة الادارسة الى حركة ذات طابع محدد وأصبح لحكمهم آثار مهمة في كيان المجتمع، اذ اعتمدوا مثل الإسلام وشريعته ومبادئه وأفكاره قوانين أساسية تنظم حياة المجتمع والفرد وتسيره وتحولت حياة القبائل الى الاستقرار الإجتماعي في داخل المدن وأسهمت في التحولات الاجتماعية والاقتصادية وأحدثت تطورات واضحة في تقاليدها وعاداتها.

تتميز الحياة الاجتماعية في مدينة فاس، بعدوتيها، عدوة الاندلسيين وعدوة القرويين، بالاستقرار والأمن وانصراف الناس الى مزاولة أعمالهم فأدى ذلك الى العمران والازدهار وقد جذبت هذه المدينة إليها كثيراً من بطون القبائل والوافدين فأصبحوا من سكنتها ولعل إرساء الحكم على أسس قوية كان يشجع هؤلاء

وغيرهم على الاستقرار في المدينة، فيشير الجزنائي الى ان استقامة الأمر لادريس بن ادريس في المغرب الأقصى، وتوطد ملكه وعظم سلطانه وقوة عسكره جعل وفود الناس إليه من سائر البلدان "[1].

والى جانب القبائل المغربية من زناته وأوربة وصنهاجة وغمارة فقد ضمت فاس نحوا من خمسمائة فارس من افريقية والأندلس وهم من العرب واغلبهم من القيسيين الازد والخزرج ومدلج وبني يحصب، ويذكر ابن خلدون ان إدريس بن ادريس قد سر بوفادتهم عليه ونزوعهم الى بلاده فأجزل لهم ووصلهم وقربهم منه وجعلهم بطانته واستوزر منهم عمير بن مصعب الازدي الملقب بالملجوم "[2].

وشهدت فاس ازدهارا في العمران في عهد يحيي بن محمد بن إدريس فبنيت فيها الحمامات والفنادق للتجار وبنيت الأرباض وأسست أم البنين فاطمة بنت محمد الفهري المسجد الجامع بعدوة القرويين[3] وفي هذا الإطار يلقى الجغرافيون ضوءاً مفيداً على الحياة الاجتماعية في مدينة فاس فيصفها اليعقوبي "أنها كثيرة العمارة والمنازل" [4] ويشير ابن حوقل الى الفتن الدائمة والقتل الذريع المتصل بين أهل العدوتين [5] ولعل هذا المؤرخ يشير الى الأحداث والفتن التي وقعت فيها نتيجة تدخل الاغالبة والفاطميين وأمويي الأندلس بشؤونها الداخلية واستعداء السكان بعضهم على بعض والظاهر ان هذا الوضع استمر حتى القرن الخامس الهجري فيذكر الادريسي الفتن والمقاتلات بين المدينتين (أي العدوتين) ثم يخلص الى القول "ان أهل مدينتي فاس يقتل فتيانهم بعضهم بعضا[6]".

---

[1] زهرة الاس في بناء مدينة فاس ص 13.

[2] العبر وديوان المبتدأ والخبر ج4 ص 26، الجزنائي، المصدر نفسه ص 13.

[3] ابن خلدون ن المصدر نفسه ص 29.

[4] كتاب البلدان ص 357.

[5] صورة الأرض ص 90.

[6] نزهة المشتاق ص 75-76.

وقد ضمت مدينة فاس فضلاً عن القبائل الموالية للأدارسة المتحضرين وبعض العرب الوافدين والأفارقة والاندلسيين عدداً من اليهود حتى ان البكرى يؤكد ان "فاس اكثر بلاد المغرب يهوداً يختلفون منها الى جميع الآفاق" [1] وربما ترك هؤلاء اليهود تأثيراتهم الاجتماعية نظراً لدورهم فى الحياة الاقتصادية حيث ان اغلبهم كانوا تجاراً أو أصحاب أموال وعقارات أو مرابين أو كانوا يزاولون أعمالا ومهنا تتصل بالمال والنقود.

ولعلنا نستطيع ان نستنتج مما جاء عند بعض المؤرخين حول قيام إدريس بن عبد الله مؤسس امارة الادارسة بفتح بلاد تامسنا وساله وتاولا وماسه التى كان أكثر سكانها على دين النصرانية واليهودية والمجوسية ان بعض هؤلاء ربما هاجروا الى مدينة فاس واستوطنوها وقد أشار الى ذلك البكرى بقوله: "ان هناك قوما من قبيلة زراغة يعرفون ببني الخير وقوم زناته يعرفون ببني يرعش كانوا يدينون بالمجوسية والآخر باليهودية وبعضهم بالنصرانية يستوطنون المناطق القريبة من مدينة فاس وقد نزل بنو الخير فى عدوة القرويين وبنو يرعش فى عدوة الاندلسيين" [2] ولكن لا توجد معلومات تشير الى حدوث الفوضى والإضطرابات فى داخل المدينة بسبب تباين الأديان والنزعات ولعل سياسة الادارسة التى كانت تقوم على التسامح من جهة ونشاطهم فى التأثير الإجتماعى والاقتصادي على أهل الذمة ونشر الإسلام بين صفوفهم من جهة أخرى كان عاملا أساسيا يحول دون ذلك.

لقد أسهمت القبائل المغربية المنضوية تحت نفوذ الادارسة الى جانب الفئات الأخرى من السكان بعد التطورات السياسية والاجتماعية التى شهدتها الإمارة بقسط كبير فى عملية التحولات الاقتصادية وتتضح التأثيرات التى أحدثها هؤلاء

---

[1] المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ص 115.

[2] المغرب ص 114.

فى مجالات الزراعة فيما كانوا يقومون به بتحويل الأراضى والمناطق التى بسطوا عليها سيطرتهم الى أراضى صالحة للزراعة وطالما نسمع عن مزاولة السكان وانصرافهم الى الزراعة والاهتمام بمتطلباتها[1] فيتحدث اليعقوبى عن النهر العظيم الذى يقال له "فاس" وهو اعظم من جميع انهار الأرض"[2] وربما تكمن أهميته فى الاعتماد عليه فى الإرواء الزراعى ويؤكد ابن حوقل "ان هذا النهر كبير غزير المياه"[3] مما ساعد على تحويل منطقة فاس الى أراضى خصبة صالحة للزراعة وتبدو مظاهر الاهتمام بالزراعة فيما كانوا يقوم به الناس من العناية ببساتينهم التى كانت تحوى أنواعا من الثمر فيقول البكرى فى معرض حديثه عن مدينة فاس "وعلى باب دار الرجل فيها رحاه وبستانه بأنواع الثمر وجداول الماء تخترق داره"[4] ولعل المعلومات التى جاءت عن اختيار موضع مدينة فاس وتخطيطها وبنائها تفيدنا فى الاستنتاج ان هذه المنطقة كانت منطقة زراعية حيث جاء ان المكان الذى اختير لإقامة المدينة فيه عيون كثيرة تزيد على الستين عينا وان مياهها تفيض على الأرض فسيحة فتروى الغياض ذات الأشجار الملتفة المطردة العيون والأنهار[5].

أما فى مجال التجارة فلابد ان يكون لإمارة الادارسة بحكم موقعها فى المغرب الأقصى على طرق القوافل التى كانت تربط فاس بعواصم بلاد المغرب ومنها تاهرت والقيروان وسجلماسة، دور ملموس فى النشاط التجاري حيث كان لها نصيب من تجارة المشرق الإسلامى التى كانت تصل من بغداد والكوفة والبصرة ومن حلب ودمشق وطبرية والفسطاط والإسكندرية. وكذلك لم تعدم وجود صلات

---

[1] م. ن. ص 115.

[2] البلدان ص 357.

[3] صورة الأرض ص 90.

[4] المغرب ص 117.

[5] انظر: د. السيد عبد العزيز سالم، استنتاجه الذى توصل إليه من قراءة بعض النصوص المتعلقة بتأسيس مدينة فاس فى عهد إدريس الثانى (المغرب الكبير ج2 ص 490).

تجارية مع إمارات الخوارج في المغربين الأدنى والأوسط فتشير المصادر الى انتظام سير القوافل بين فاس وسجلماسة حيث كان الطريق معهداً بين المدينتين ويبدأ من فاس الى صفروى فقلعة مهدى فتاوله ثم الى وادى شعب الصفا ثم يمر عبر الجبل الكبير الى الجنوب حيث تقع مدينة سجلماسة وكانت القوافل ترتاد هذا الطريق فتخرج من باب الفوارة فى مدينة فاس الى سجلماسة ويؤكد المؤرخون توافد الكثيرين من التجار وطلبة العلم من فاس الى سجلماسة ونشاط التجار المدرارين الواسع فى أسواق فاس[1].

وعلى الرغم من ان معلوماتنا عن السلع والمتاجر التى كانت تصدرها امارة الادارسة الى المراكز التجارية فى المغرب الإسلامى أو عن طريقها الى المشرق الإسلامى نادرة ولكن على ما يبدو ان السلع والبضائع التى كانت ترد الى فاس هى نفسها التى كانت تصدرها تاهرت وسجلماسة والقيروان وأهمها الفستق من مدينة قفصه والسكر والكمون والكراوية والأحذية من سجلماسة وكذلك القمح والكروم والتمر فضلاً عن الثياب والمطرزات القطنية والمنسوجات الحريرية والصوفية والكتانية كما كانت تأتيها القوارير الزجاجية وأوانى الخزف والتحف المعدنية والعطور من تاهرت وذلك على الرغم من ان العلاقات التجارية بين فاس وتاهرت كانت فى نطاق محدود[2].

وتوجد لدينا معلومات قليلة ومشتقة عن عملة الادارسة من الدراهم والدنانير ولكن الأستاذ ليفى بروفنسال يغنى هذه المعلومات ويعززها ببحوثه واستنتاجاته فقد وجد فى المكتبة الأهلية بباريس درهما ضرب فى مدينة فاس سنة 189هـ، وفى متحف مدينة خاركوف، درهم آخر ضرب فى مدينة فاس سنة 185 هـ كما عثر على عملات يظهر فيها اسم إدريس الثانى ضربت فى مدينتي وليلى وتدغة تحمل التواريخ المتعاقبة لسنوات 181هـ ، 182هـ ، 183 هـ واستنتج كذلك ان

---

[1] ابن أبى زرع الأنيس المطرب ج1 ص 53، الأدريسى، نزهة المشتاق ص 10 الجزنائى، زهرة الآس ص 29 ثم انظر د. محمود اسماعيل، الخوارج فى المغرب ص 208-209.

[2] ابن خلدون، العبر ج4 ص 422، ابن الخطيب، أعمال ص 13.

كذلك ان معظم العملات التى تحمل اسم إدريس بن إدريس ضربت فى مدينة العالية (أى عدوة الاندلسيين) فى سنوات198هـ ،207هـ ،208هـ ،209هـ ،210هـ ،214هـ[1] ويشير ابن خلدون الى ان فاس كانت مركزاً لضرب السكة وصناعتها[2] ولكن من المؤسف لا يوجد لدينا ما يشير الى حجمها وعيارها وقطرها ووزنها وأقيامها.

وهناك إشارات تدل على وجود بعض المظاهر الصناعية فى امارة بنى إدريس فنشاهد على نهر فاس ثلاثة آلاف رحى منصوبة تطحن الحنطة بثمن قليل[3] كما توجد الارحاء لرفع المياه من النهر الى الدور والمساكن أو الى البساتين والأراضى للارواء وان هذه المطاحن والأرحاء كان يشغلها الصناع والمهرة والحرفيون وذلك بقوة جريان الماء وكان اغلب هؤلاء من القرويين أو الاندلسيين اذ تركوا تأثيراتهم فى الحياة الاقتصادية فأنشاوا الأسواق والحوانيت وأقاموا الدور والحوانيت للبيع والشراء كما زاولوا بعض الصناعات المرتبطة بأعمال البناء والعمران.

أما المعلومات التى أوردها الجزنائى فيما يتعلق بوجود صناعة الاطرزة بواسطة أنوال الحياكة التى كانت تعمل النسيج وكذلك صناعة الصابون الذى كان يعد من أهم مستلزمات المدينة وصناعة دباغة الجلود وصناعة تشبيك الحديد والنحاس وصناعة عمل الزجاج وصناعة الورق والطابوق فى مدينة فاس فى عصر دولتي المرابطين والموحدين[4]، أن هذه الصناعات لابد أن تكون استمراراً لما كانت عليه فى عهد الادارسة .

---

[1] الإسلام فى المغرب والأندلس ص 15-19

[2] العبر ص 423.

[3] زهرة الآس فى بناء مدينة فاس ص 33.

[4] زهرة الآس فى بناء مدينة فاس ص 33.

(4) الأغالبة / إمارة الأغالبة:

تشكلت امارة الأغالبة فى مناطق المغربين الأدنى والأوسط، وكان بنو الأغلب قد نصبهم العباسيون ولاة شبه مستقلين يحكمـون ويحـافظون علـى ممتلكـات العباسيين ونفوذهم الروحي والمادي في تلك المناطق ويقفون ضد توسـع الادارة والخوارج بعد قيام إماراتهم. فشرعت قوانينهم وأنظمتهم وفقـاً لـذلك ووجهـوا جيوشهم لصد الهجمات المحتملة التى قد تقوم بها العناصـر المناوئـة للخلافـة العباسية أو لمبادرتهم بالهجوم على المناطق والأنحاء التى تسـيطر عليهـا تلـك العناصر ولكن بعد انتهاء عهد إبراهيم بن الأغلب مؤسس الإمـارة وتـولى ابنـه زيادة الله بدأوا يتجاهلون الى حد ما مخالفتهم للعباسيين خدمة لمصـالحهم التـى استجدت وذلك نتيجة للظروف والملابسات التى كانت تلف المغرب الإسلامى وبعد ان واجهوا كثيرا من المتغيرات على مدى نصف قرن من بدايـة تنصـيبهم فـى المغرب وافريقية ووجودهم منفردين فى الدفاع عن الخلافة العباسية

ويمكن القول، ان الاستقلال المحدود الأفق الذى فوضه الخليفة العباسى هارون الرشيد لإمارة الأغالبة حدوته اشتراطات الضمانات المالية والاستمرار بـدفع مـا أطلق عليه الجزية السنوية لبيت مال الخلافة والتزام أمراء الأغالبة بتسديد هـذه الإعانات وتنفيذ إجراءات الخلافة يحتم على هـذه الأخيـرة تثبيـتهم بولايـاتهم وتزويدهم بشعار التقليد والخلع والإعلام مما يجعل حكم الإمارة يتخذ أسلوبا وراثيا فتولاها احد عشر أميرا تميز الأوائل منهم بالقوة والنفوذ مما أتاح لهم الانصراف القيام بالإصلاحات فقد اتخذوا إضافة الى القيروان عاصمة لهم، ومدينـة القصـر القديم "العباسية" اذ نقلوا إليها بعد اكتمال بنائها سلاحهم وعددهم وسـكنوها مـع عبيدهم ورجالهم وأصبحت دارهم ومستقرهم[1] وهذا لا يعنى إهمال القيروان فقـد غدت لهم حاضرتان تتنافسان اجتماعيا وثقافيا.

والظاهر ان اتخاذ بنى الأغلب لحاضرة جديدة، لم يغير فى البنـاء الإجتمـاعى لمدينة القيروان حيث لا توجد لدينا معلومات عن هجرة مؤثرة منها الى العباسـية

---

[1] ابن الاثير، الكامل ج6 ص 56.

سوى ما وقع اختيارهم على بعض الجماعات والفئات والعناصر التى تؤيدهم سياسيا بل يمكن القول، ان القيروان احتفظت بكيانها الإجتماعى كما زاد فى مكانتها اتخاذها حاضرة للاغالبة ومركزا سياسيا واقتصاديا حتى وصفت أنها "أم أمصار وقاعدة أقطار. "وكانت اعظم مدن المغرب قطرا وأكثرها بشراً وأوسعها أحوالاً"[1] .

وحسب المعلومات التى بين أيدينا فان القبائل المغربية لا يشكلون نسبة عالية من السكان لإمارة بنى الأغلب على الرغم من انهم يؤلفون السواد الأعظم من سكان المغرب الإسلامى وإشارة ابن عذارى الى طاعة القبائل المغربية لإبراهيم بن الأغلب[2] تعنى دخول هذه القبائل تحت نفوذه حينا ثم خروجها عليه فى أحيان أخرى مما يجعل استقرارهم الإجتماعى متأثراً الى حد كبير بموقفهم السياسى، ولكن من الملاحظ ان المشارقة هم الأكثرية فى سكان مدينة القيروان.

إن الأغالبة ينتمون الى عرب بنى تميم مما يوفر فرصة لهؤلاء فى ان يحتلوا مكانة لا تدانيها مكانة العناصر والأقوام الأخرى، ثم ان الصراع بين العناصر المؤيدة للاغالبة من عرب المشرق وبين عناصر من قبائل المغرب، اقنع الأغالبة بضرورة الاحتفاظ بعناصر احتياطية فى الجيش يمكن استخدامها عندما تحين معارضة العناصر المعادية أو اندلاع ثوراتهم الذين ذاقوا الأمرين من سياسة الولاة العباسيين القائمة على التمييز والاضطهاد.

غير أن العرب الذين أقاموا فى مدينة بلزمة وبعضهم كان من أعقاب العرب الفاتحين وهم قيسيون وبعضهم الآخر من العرب الشاميين الذين دخلوا البلاد فى الحملات العسكرية التى كانت ترسلها الخلافة العباسية لإخماد حركات المعارضة

---

[1] الأدريسى، نزهة المشتاق ص 110 .

[2] البيان المغرب ج1 ص 92.

ضد الأغالبة الى نكبات أدت الى تصفياتهم[1]. ويشير ابن عذارى الى ان تصفية الجند العرب البلزميين على يد الأغالبة كان من "أسباب انقطاع دولة بنى الأغلب اذ كان أهل بلزمة فى نحو ألف رجل من أبناء العرب والجند الداخلين الى افريقية عند افتتاحها وبعده، وكان أكثرهم من قيس وكانوا يذلون كتامة فلما قتلهم إبراهيم استطالت كتامة ووجدت السبيل للقيام مع الفاطميين ضد بنى الأغلب"[2].

ويبدو ان ما دفع الأغالبة، قتل هؤلاء وغيرهم من عرب تميم الذين كانوا يستقرون فى تونس ويتمتعون بامتيازات كثيرة، انهم كانوا وراء الأحداث السياسية التى كانت تقوم بها عناصر من قبائل المغرب ضد حكم الأغالبة أو تأجيج الأحداث التى كان يقوم بها الخارجون عليهم والتحريض ضدهم وأحيانا الاشتراك معهم أو قيادتهم فى الثورات التى كادت ان تودى بكيان إمارتهم[3].

ولعل الجند العرب الذين استكثر منهم الأغالبة فى جيوشهم كانوا يشكلون طبقة متميزة ونظامية وبعضهم كان يستنفر للحرب وهم يحاولون التمويه لمصالحهم وامتيازاتهم فأعلنوا ثوراتهم بوجه الأغالبة وعمالهم فى القيروان والمدن الأخرى[4] واصبحوا خطراً على إمارتهم وبخاصة فى عهد الأمير زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب حتى وصل بهم الأمر الى درجة انهم كتبوا إليه ان "ارحل عن افريقية ولك الأمان فى نفسك ومالك فقاتلهم زيادة الله وقضى عليهم"[5] .

---

[1] فى سنة 280هـ استقدم الأغالبة منهم سبعمائة من ابطالهم فى القيروان وابتنيت لهم دارا كبيرة وضعوا فيها ثم قتلوا جميعا (ابن عذارى، البيان ج1 ص 123)

[2] م . ن . ص 124 .

[3] ابن الاثير ، الكامل ج6 ص 104 ، ابن خلدون ، العبر ج4 ص 419 .

[4] من ثورات الجند ثورة عمرو بن معاوية القيسى فى مدينة القصرين سنة 208هـ وثورة منصور الطنبذى بتونس سنة 209هـ وثورة عامر بن نافع فى سبيبة سنة 210هـ والثورات فى مدينة بلزمة وقد اثار قمع الأغالبة لهذه الثورات عرب تميم وعرب الجزيرة والاربس وباجه وقمودة .

[5] ابن عذارى البيان ص 201 .

أما الفئة الاجتماعية الأخرى فى امارة بنى الأغلب فهم المشارقة الذين قدموا من خراسان وكان بعضهم جنداً فى الجيش[1] وكان يعيش غالبية هؤلاء المشارقة فى القلاع البيزنطية القديمة فى قابس والقيروان. وبونه وباجه ومجانه أو فى القلاع القديمة بإقليم توميديا الروماني مثل قلاع طبنة وباغاية والاربس[2] وقد ترك هؤلاء تأثيراتهم فى الحياة الاجتماعية وخاصة فى مدينة القيروان حيث كان بعضهم من العلماء والفقهاء أو كانوا من أصحاب الحرف والمهن أو الصنائع.

وهناك الى جانب الجند العرب والقبائل المغربية والمشارقة الروم القدم[3] وهم من أعقاب سكان قرطاجنة وكانوا يقيمون فى القلاع البيزنطية القديمة مثل طبنة وباغاية وفى مدن الجريد الصغيرة التى يبدو انها اتخذت ملاذاً لغير العرب من أهل البلاد كما أقام بعضهم فى مدينة القيروان باعتبارها حاضرة البلاد وأملا فى الحصول على فرصة عمل يعيشون منه[4] .

ونقرأ كذلك عن وجود الأفارقة، وهم نصارى من بقايا الفينيقيين واللاتين أقاموا فى إقليم الجريد ومدن قنصة وتوزر ونفطة وتقيوس والجامة واقامت طائفة منهم فى مدينة طبنة ومدينة باغاية وفى السهول الساحلية[5] وقد قامت سياسة بنى التغلب على التسامح معهم وفوتح البعض منهم باعتناق الإسلام فرفض[6] .

ويشكل "العبيد السود" الذين جلبوا من منطقة الصحراء أو من بلاد السودان فئة طارئة على المجتمع وقد اتخذ أمراء الأغالبة بعضهم حرسا لهم أو جنداً كما ان هناك "العبيد البيض" وهم الصقالبة الذين حملوا من صقلية وسردانية وقلورية

---

[1] من المعروف ان القاضى أسد بن الفرات الفقيه الذى قاد الحملة الى صقلية فى عهد الأمير زيادة الله بن إبراهيم كان خراسانيا.

[2] د. السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير ج2 ص 417 .

[3] اليعقوبي، البلدان ص 135 .

[4] د. السيد عبد العزيز سالم، المصدر السابق ص 419 .

[5] م . ن . ص 420 .

[6] ابن عذارى، المصدر السابق ص 122 .

ومالطا وقد سمى هؤلاء بالفتيان ولعبوا دوراً مهماً فى امارة الأغالبة من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية [1].

ولعل أهم مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية فى القيروان خلال هذه الفترة هو الثراء فقد تجمعت لدى السكان الثروة الذهبية التى كان الحصول عليها ميسوراً بواسطة الاتجار وكانت هذه المظاهر واضحة فى الأسرة الحاكمة وفى بعض الفئات الاجتماعية وفى طليعتها فئة التجار كما ظهر ذلك فى بناء المنازل الرفيعة وفى التفنن فى اللباس والمأكل .

وكان المجتمع القيروانى مقسماً إلى فئات اجتماعية على رأسها فئة التجار التى كانت فئة بارزة فى المجتمع ومحظوظة اجتماعيا ويلاحظ أن عدداً من علماء القيروان كانوا من هذه الفئة إذا اشتغلوا فى ميدان التجارة فحازوا على أموال كثيرة. وهناك فئة الجند وفئة العلماء الذين تعرض عدد كبير منهم إلى الاضطهاد نتيجة لمواقفهم فى مسائل تتصل بالدين والحياة العامة وفئة أهل الذمة من اليهود والنصارى التى استقرت فى القيروان والظاهر أن فئة الرقيق أو العبيد كانت تشكل الدعامة الأساسية لإمارة الأغالبة حيث يبرز دورها فى الحياة الاقتصادية فهم القوة المنتجة الأولى[2] ودورها يشبه إلى حد كبير دور طبقة العمال فى الوقت الحاضر. أما الفئة الأكثر عدداً فى مجموع السكان فهم طبقة العامة (الفقراء) أو طبقة

---

[1] كان بعضهم يشرف على دار السكة فسجلت أسماؤهم على العملات كما نقشت أسماء البعض منهم على النقوش التاريخية والمنشآت ومن هذه الأسماء المسجلة: اسم مسرور الخادم مولى الأمير زيادة الله بن ابراهيم واسم خلف الفتى ونصر وفتح الله نقشت جميعها على قبة المحراب بجامع الزيتونة (د. السيد عبد العزيز سالم، المصدر نفسه ص 420)

[2] وقد تعدد اختصاصهم فتشمل عمل الجوارى فى المنزل للخدمة والرضاعة وتربية الأطفال وشئون الطحن والطبخ وجلب الماء وهناك فئة منهن خصصن للزواج وكذلك فئات الحدادين والنجارين والبنائين وأصحاب المهن والصناعات المختلفة فى أكثر مرافق الحياة العامة (انظر للاستزادة د. الحبيب الجنحانى، المغرب الإسلامى ص 92).

السواد وهى تتألف من عناصر العبيد والإجراء أو النازحين من الريف كما ضمت إليها عدداً من النخبة المثقفة وهذه الفئة قد نالها فى عهد الأغالبة من البؤس والحرمان ما جعلها وراء اغلب الانتفاضات السياسية والدينية والحركات الاجتماعية فى القيروان[1].

أما الأحوال الاقتصادية التى تميزت بها منطقة المغرب الأدنى فى عهد الأغالبة فيزودنا المؤرخ والجغرافي، اليعقوبى بمعلومات مهمة عنها وبخاصة فيما يتعلق بالزراعة والصناعة والتجارة مما يساعدنا على معرفة عوامل الازدهار الإجتماعى والاقتصادي والسياسي الذى اتسم به عهد الأغالبة والظاهر أن قيام إمارة الأغالبة فى هذه المنطقة قد رافقه نوع من الاستقرار السياسي والاجتماعى الذى دفع كثيرا من السكان إلى مزاولة الزراعة والاهتمام بمتطلباتها فظهرت المناطق الزراعية التى حددها اليعقوبى وأهمها المنطقة الواقعة بين قمودة والساحل حيث البساتين والقرى المتصلة ثم منطقة بلاد الجريد جنوب مدينة قمودة ومنطقة بلاد باجة الخصبة إلى الشمال منها[2]. وقد أبدى اليعقوبى دهشته لمظهر الخضرة وكثرة الأشجار فى هذه المناطق وخاصة الأولى منها وأهم أشجارها الزيتون والنخيل والكروم[3] أما المنطقة الأخيرة فكانت متخصصة بزراعة الحبوب وخصوصاً القمح وكذلك الفواكه وقصب السكر واشهر مدن هذه المنطقة هى "جلولا" التى تقع بالقرب من القيروان وأغلب زراعتها قصب السكر الذى كان ينتج بكميات وفيرة[4] ومدينة تونس التى وصفت بأنها أطيب ثمراً وأنقى فاكهة من جميع مداين افريقية فمن ذلك اللوز الفريك والرمان الضعيف والاترج الجليل والتين الجارمى والسفرجل

---

[1] المصدر نفسه ص 85-94.

[2] البلدان ص 349.

[3] م. ن. ص 350.

[4] البكرى، المغرب ص40.

المتناهي والعناب الرفيع والبصل القلورى[1] ومدينة قفصة التى كانت أكثر بلاد المغرب فستقاً ثمرها مثل بيض الحمام وفيها أنواع الفواكه والتمر[2] .

وهكذا أصبحت الزراعة من الضرورات التى تتطلبها الحياة الاقتصادية فى المغرب الأدنى فالمحصولات الزراعية والغذائية مثل الحبوب والثمار والكروم والزيتون والتمور وغيرها كانت سلعا للتجارتين الداخلية والخارجية وليس أول على ذلك من المعلومات والإشارات التى جاءت عند بعض المؤرخين[3] والجغرافيين والبلدانيين[4] .

كما نقرأ عن وجود بعض الصناعات المتقدمة فى منطقة المغرب الأدنى التى تبسط إمارة الأغالبة سيطرتها عليها، منها صناعة السفن فى تونس حيث استمرت دار الصناعة التى أمر بإنشائها الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان لغرض تكوين أسطول بحري دفاعي لمواجهة الأخطار المتأتية من الإمبراطورية البيزنطية وقد استعين بأقباط مصر الذين كانوا يمتلكون الخبرة والدراية فى صناعة السفن[5] وقد

---

[1] م. ن. ص41.

[2] م. ن. ص47.

[3] ابن عذارى، البيان المغرب، ابن الأثير، الكامل ابن خلدون، العبر، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، المقرى، نفح الطيب.

[4] اليعقوبى، البلدان، ابن حوقل، صورة الأرض، الأصطخرى، المالك والممالك البكرى، المغرب فى بلاد افريقية والمغرب، المقدسى، احسن التقاسيم.

[5] يذكر البكرى بناء المسلمين للسفن فى عهد الخليفة الاموى عبد الملك بن مروان فى مدينة تونس (ترشيش) فقد كتب الخليفة الى اخيه عبد العزيز وكان واليا على مصر حينذاك ان يوجه الى معسكر تونس الف قبطى من اقباط مصر باهلهم واولادهم ويوصلهم الى تونس وكتب الى حسان بن النعمان يأمره ان يبنى لهم دار الصناعة لتكون قوة وعدة للمسلمين الى آخر الدهر وان يصنع بها المراكب ويجاهد الروم فى البر والبحر وان يغار منها على ساحل الروم فيشغلوا عن القيروان نظرا للمسلمين وتحصينا لشأنهم فوصل القبط الى حسان بن النعمان وهو مقيم بتونس فأجر البحر من مرسى رادس الى دار الصناعة وجر البربر الخشب وجعل فيها المراكب الكثيرة وأمر القبط بعمارتها فى المغرب (ص38-39).

تطورت هذه الدار وتوسعت فى صنع المراكب العسكرية التى استخدمت فى التوسع البحري[1].

والى جانب دار الصناعة فى تونس وقعت الإشادة إلى قيام صناعة الآلات الحديدية اللازمة لصناعة السفن التى كانت تعتمد على الحديد الذى كان يجلب من مناطق استخراجه فى مدينة مجانة[2] أما دار الصناعة فى مدينة سوسة فلا يقدم لنا البكرى تفصيلات كثيرة عنها سوى إنها كانت لتصليح السفن او كانت مرفأ لرسو المراكب والسفن الحربية والتجارية للتأكد من صلاحيتها لركوب البحر[3] .

وكذلك نسمع عن صناعات كانت تقوم على الحديد مثل صناعة السيوف ولحم الخيل والآلات والعدد الحديدية المرتبطة بالبناء والعمران مثل أبواب الدور والمنازل والمنشآت والقصور والمساجد وأبواب الأسوار والحصون والمحارس والخانات وآلات القطع والحفر وبعض أنواع من الأسلحة. والظاهر أن المحفز لهذه الصناعات وغيرها توفر الحديد والفضة والكحل والزنك والرصاص[4] حيث قامت صناعات مختلفة مثل صناعة التحف الذهبية والفضية والنحاسية إذ اقتنى منها الأمراء والوجهاء فى قصورهم وبخاصة التحف والسروج المفضضة واللجم المذهبة والسيوف المحلاة وصفوف الآنية من الذهب والفضة[5] .

أما صناعة الزجاج الذى كان مظهراً من مظاهر المدنية ومستلزماتها فهناك ما يشير إلى وجودها فى مدينة القيروان، وينهض حي الزجاجين فى المدينة دليلا على ازدهار هذه الصناعة وكذلك صناعة الخزف المتأثرة بالتقاليد العراقية

---

[1] ومنها الاستيلاء على جزيرة صقلية حيث اصبحت جزءا من البلاد الإسلامية فى عهد الأمير زيادة الله إبراهيم بن الأغلب.

[2] اليعقوبى، المصدر السابق ص 349.

[3] المغرب ص 34.

[4] اليعقوبى، المصدر نفسه ص 350.

[5] ابن عذارى ن المصدر السابق ص 138، 148.

والمشرقية، حيث كان الصناع العراقيون يستخدمون لتزيينه واجهات محاريب المساجد وأبواب القصور بزخارف التربيعات الخزفية ذات البريق المعدني[1].

وكان لمدينة القيروان تراثها في صناعة المنسوجات الحريرية الرفيعة والثياب[2]. كما إن الحياكة في مدينة سوسة كانت كثيرة، وكان يغزل بها غزل يباع زنة المثقال منه بمثقالين من الذهب، وكانت منتوجات مدينة القيروان من المنسوجات ترسل إليها لإجراء عملية القصر وجعلها ناصعة البياض[3] ، وعرفت مدينة طرافى بنوع من الألبسة تسمى "الكساء الطرافى"[4] وهناك صناعة السجاد المحلية التى اشتهرت بها القيروان وبعض المدن الأخرى حيث كانت هذه الصناعة استمرار منذ العهد الرومانى .

ومن الصناعات المتخصصة التى كانت تعتمد على الإنتاج الزراعى صناعتان أولاهما صناعة زيت الزيتون يستخرج من الزيتون الذى كان ينتج فى المناطق الساحلية وفى الأقاليم الزراعية، يوضح البكرى إن أشجار الزيتون والنخيل تغطى السهول الرملية (بالقرب من مدينة صفاقس الحالية) ففى هذه المنطقة الساحلية بساتين وقرى متصلة كل منها تضم معصرة للزيت[5] . أما الصناعة الثانية فهى صناعة النبيذ أو الشراب باستخلاصه من الكروم التى تكثر زراعتها جنوب إقليم قمورة وقسطيطنية [6]. فضلا عن صناعة السكر من القصب الذى تنتجه مدينة

---

[1] البكرى، المصدر السابق ص 35 .

[2] م.ن، ص 36 .

[3] م.ن.ص 37 .

[4] م . ن، ص 47

[5] م . ن، ص 24، 26 .

[6] وكان أمراء الأغالبة يدمنون على شرابه ومنهم محمد بن الأغلب بن إبراهيم وزيادة الله بن عبد الله .

جلولا وإنتاج العسل الجيد ، وإنفراد تونس بصناعة آنية الماء من الخزف التى كانت تعرف بالريحية[1] .

أما صناعة السكة والنقود، فقد ارتقت فى عهد الأغالبة، وكانت تضرب فى دار الضرب أو دار السكة فى القيروان وفى العباسية، ويلاحظ أن الدنانير الذهبية حافظت على وزنها وحجمها وعيارها طوال عهد الأغالبة، أما الدراهم الفضية فكانت تضرب صحاحاً أو أجزاءاً من قطع معدنية صغيرة [2] .

وتشكل التجارة فى الأجزاء التى تهيمن عليها إمارة الأغالبة من المغرب الأدنى، حجر الزاوية فى النشاط الاقتصادى فقد كانت القيروان مركزاً للتجارة العالمية ونقطة لقاء بين المغرب والمشرق الاسلاميين من جهة وبين التجارة (المتوسطية)* وقوافل التجارة الصحراوية من جهة أخرى[3] حيث استقبلت قوافل التجارة من سائر أنحاء المغرب ومن مراكزها فى تاهرت ومجلماسة وفاس وقرطبة واودغست فضلاً عن بلاد المشرق الاسلامى وبلاد السودان . ولم تكن العلاقات السياسية غير الودية بين هذه الدول والإمارات، لتحول دون توطيد صلاتها التجارية، فمن جهة ترتبط القيروان بخط سير القوافل الخارجة من تاهرت إلى القيروان وهاز والمسيلة وأدنة وطبنة وباغاية ومجانة وسبيبة[4] كما يربطها خط آخر يخرج من سجلماسة إلى تاهرت ثم إلى القيروان[5]. أما التجارة التى كانت تحصل عليها إمارتا الخوارج الرستميون والمدراريون وإمارة الأدارسة، من الأندلس، فينقلها التجار إلى القيروان بواسطة القوافل التى اعتادت السير على الطرق المعتادة، ومن جهة كافية، فان نصيب القيروان ومدن المغرب الأدنى

---

[1] وهى شديدة البياض ورقيقة وشفافة ليس لها نظير فى جميع الأقطار وعامة الأمصار (م . ن . ص 41).

[2] ابن عذارى، البيان ج1 ص 120-121.

* منحوتة نسبة للبحر المتوسط (بحر الروم).

[3] د. الحبيب الجنحانى، المصدر السابق ص 61.

[4] البكرى، المصدر السابق ص 143-146.

[5] الأصطخرى، المالك والممالك ص 37، 38.

الأخرى كبير في تجارة المشرق التي تأتي من بغداد والبصرة فضلاً عن توطد الصلات التجارية بين بغداد وحاضرة العباسيين وإمارة الأغالبة. تلك العملات التي كانت تعكسها علاقات التحالف بين الطرفين وتجني القيروان من التجارة الخارجية بكونها احدى مراكزها، بضاعات وسلعاً كثيرة. فتحصل من سجلماسة على السكر والكمون والكراوية والأحذية وعن طريق تاهرت وسجلماسة تحصل على السلع السودانية التي كانت تزداد أهميتها على البضائع والمواد الأخرى، أما الثياب القطنية والكتانية والحريرية والأنسجة المطرزة فكانت تفد إليها من قرطبة التي نالت فيها شهرة واسعة [1].

والظاهر أن تجار القيروان، كانوا نشطين في نقل تجاراتهم بين مراكز التجارة في العالم الاسلامي ، فكانوا يختلفون إلى عواصم دول المغرب ومراكزه التجارية المهمة فضلاً عن بغداد ومدن المشرق ، ويشير ابن الصغير المالكمية إلى حرية المتاجرة التي كان يحظى بها تجار القيروان في أسواق تاهرت ، حيث كانوا يفدون إليها بأعداد كثيرة [2] .

ونذكر البضائع والسلع التي كانت تصدرها القيروان وأهمها الزيتون وزيت الزيتون والآلات المصنعة من الذهب والفضة والسيوف ولحم الخيل وبعض المنسوجات السوسية والسجاد والنبيذ والآلات الحديدية المستخدمة في صناعة السفن والمراكب ولكن التجارة التقليدية للتجار القيروانيين هي تصدير فستق مدينة قفصة الذي ينتشر بأفريقية ويحمل إلى مصر والأندلس وسجلماسة وأثواب مدينة طراف [3] وتمور مدينة توزر، وتتسرب تجارة هذه السلع إما براً أو بحراً[4] عن طريق موانئ تونس وسوسة اللتان تمتلكان مراسي كبيرة على ساحل البحر أما في نطاق التجارة المحلية، فيسود نشاط في تبادل المحصولات الزراعية وبعض

---

[1] الحميري، صفة جزيرة الاندلس ص 21.

[2] أخبار الأئمة الرستميين ص 13.

[3] والملاحظ ان الكساء الطرافي كانت تختص به التجارة الى مصر (البكري، المصدر السابق ص 47).

[4] البكري، المصدر نفسه ص 34 .

المصنوعات المحلية ويشير البكرى إلى تزويد مدينة جلولا لمدينة القيروان بقصب السكر وأحمال كثيرة من الفواكه والبقول[1] ومدينة سوسة بكثير من الأمتعة والتمر واللحوم والفواكه[2] ومدينة قنصة بالتمر وأنواع الفواكه والثمر[3].

وتعكس أسواق القيروان وأسواق المدن الأخرى، صورة عن النشاط التجارى الذى يسود فى إمارة الأغالبة وعن حركة التطور العمرانى فى منطقة المغرب الأدنى ومن أسواق القيروان، السوق الكبير الذى يسمى "سماط القيروان" وسوق البزازين وسوق السراجين وسوق الضرب وسوق الجزارين وسوق الزجاجين وسوق النحاسين وسوق القطانين وسوق الدجاج وسوق الغزل وسوق الخرازين وسوق الأحد وحوانيت الرهادنة [4].

وهكذا يبدو التأثير الذى تركه الأغالبة فى الحضارة العربية الإسلامية واضحا وجليا فيما خلفوه من معالم حضارية فكرية ومادية، وقد لعبت القيروان التى اتخذوها حاضرة ملكهم دورا أساسيا فى ترسيخ المفاهيم الحضارية وغدت مركزا مشعا من مراكز العلم والثقافة والاقتصاد والتطور الإجتماعى فضلا عن كونها دائرة لسياستهم وقاعدة لجيوشهم وقوتهم العسكرية، لقد واصلوا الاهتمام بإنشاء المدن التى أصبحت محطات علمية، كما أنشأوا العمائر الكبرى التى احتلت مكانة بارزة فى تاريخ الحضارة الإسلامية مثل المسجد الجامع فى القيروان وجامع الزيتونة فى تونس والمسجد الجامع فى سوسة وحصنوا المدن وأقاموا لها الأسوار وحفروا المواجل وأسسوا نواة الأسطول الإسلامى.

لقد قدم الأغالبة صورة واضحة عن الاستقلال الذاتى وعن ارتباطهم بسياسة التحالف المرنة مع الخلافة العباسية التى كانت تقوم على إدراك لطبيعة ظروف المغرب الإسلامى فعملوا فى إطارها ببعد سياسى فترسخت إمارتهم وتدعمت أركانها وتوطد حكمهم.

---

[1] البكرى، المصدر السابق ص 32 .
[2] م . ن. ص 34-35 .
[3] م.ن .ص 47 .
[4] د. الحبيب الجنحانى، المصدر السابق ص 67-68 .

(5) الدولـــة الفاطميـــة:

قامت الدولة الفاطمية على أنقاض بعض الإمارات والـدويلات فـي منـاطق المغربين الأوسط والأقصى، وقد أفاد الفاطميون من نظمها ورسومها وذلـك بعـد قيام دولتهم، وكان عبيد الله المهدي اتخذ الإجراءات التي تضمن توطيـد سـلطته السياسية والإدارية ومنها تلقبه "أمير المؤمنين" وهو لقب الخلفاء العباسيين دون غيرهم، وتعيين بعض رجاله في مناصب مهمـة فـي الدولـة مثـل المشـرفين والمنظمين لبيت المال وتسمية القضاة للقيروان ورقادة وجعل القضاء مستقلاً عن سلطته ونفوذه وتنظيم ديوان الكتابة والرسائل وديوان الخراج وديـوان الحجابـة وتعيين العمال والولاة والجباة والسعاة في عموم منطقة دولـة الفـاطميين وفـي منطقة قابس وتقييد الموالي وأبناء العبيد وأمثالهم في ديوان العطاء واسـتحداث الدور لضرب النقود والسكة.

ويبدو أن عبيد الله المهدي قد استأثر بما يطلق عليـه فـي الوقـت الحاضـر بالسلطة المطلقة في الحكم، فسعى إلى تجريد أبي عبد الله قائد جيوشه ومؤسـس الحركة الفاطمية من سلطاته وإبعاد رجاله عنه ثم الإجهاز بتصفيته مبرراً ذلك بأنه كان يسعى إلى إفساد هيبة الإمام المعصوم وهيبة الدولة والإحاطة به، كما جـرد بعض بطون كتامة ممن عهد إليهم وظائف في الجيش والدولة من مناصبهم.

ويمكن القول أن عبيد الله المهدي، استطاع أن يحول الحركة الفاطمية من دعوة سرية إلى نظام دولة تقليدية مستقرة لها رئيس وموظفـون رسـميون وتقاليـد ورسوم وأنظمة وبخاصة فيما يتعلق بالنواحي الإدارية، حيث عهد إلى أنصاره من القبائل أن تقوم بالمحافظة على استتباب الأمن والقضاء على الاضطرابات وتحقيق الاستقرار كل في منطقته وذلك من خلال تولي مناصب القضاء وتنظيم الـدواوين والحياة الاجتماعية والاقتصادية بتعيين المحتسبين والجباة والمحصلين ومراقبـة الأسواق والإشراف على الباعة وأصحاب العتياريات.

وعلى الرغم من أن التنظيمات الاجتماعية فى القيروان هى استمرار لما كانت عليه الحال فى عهد الأغالبة الرستميين والمدراريين. غير إن هناك بعض التطورات بعد استحداث مدينة المهدية. فقد ظهرت فيها طبقة جديدة حاكمة كونتها قبيلة كتامة من مئات من بطون قبائل عجيسة وزواوة وزويلة حيث كانت تنتقل بين المهدية ومدينة زويلة. ونقرأ عن تميز المهدية بالقصور والمنشآت التى زودت بالمواجل وصهاريج المياه والاهراء وتحصينها بأسوار منيعة لها أبواب حديدية، كما عمرت بالأسواق والأرباض والحمامات والفنادق وكذلك مدينة المسيلة أو المحمدية التى جعلها الفاطميون مأوى للنازحين من الأندلس لأغراض سياسية واجتماعية.

أما المدن والمناطق التى كان ورثها الفاطميون عن الأغالبة وأهمها رقادة وتونس وقرطاجنة وطرابلس وتنس وبرقة، فقد تحركت لتتخذها بطون قبيلة كتامة وبعض القبائل الأخرى المناصرة لهم موطنا لها 'فبنيت فيها القصور والبيوت والمنشآت وعمرتها فكانت لها فيها أهل وذرية وجماعة'[1] .

وكان الفاطميون وجهوا اهتمامهم لإنعاش الحياة الاقتصادية، فلم يكد يتم لهم الاستيلاء على أجزاء من المغرب الأدنى وبعض المغربين الأوسط والأقصى حتى استطاعوا أن ينشروا الثراء والرخاء بين رعاياهم لأنهم وطدوا أنفسهم على خلق حضارة تنافس حضارة العباسيين، بل ينبغى أن تتفوق عليها فى جميع الميادين وخلال حكمهم للمغرب نقرأ كثيرا من النصوص التى تقدم صورة جلية عن هذا الرخاء والغنى الذى كان عليه الناس والذى تجسد فيما بعد فى الازدهار الزراعى ونظم الري والنشاط التجاري وقيام الصناعات وتعددها واستقرار النظام النقدى وليس أول على أهمية الأحوال المالية لدى الفاطميين من توليه عبيد الله المهدي فى بداية تأسيس الدولة وقيامها لأبى جعفر الخزرى على بيت المال وأبى القاسم

---

[1] ابن عذارى، المصدر السابق ص 167.

بن القديم لديوان الخراج ولبى بكر الفيلسوف المعروف بابن العمودي لديوان السكة ولعبودى بن حباسة لديوان العطاء[1] .

وفى نطاق النشاط التجاري، فقد ورث الفاطميون عن الأغالبة أسس هذا النشاط وتقاليده ومؤسساته فى بلاد المغرب، فقد آلت إليهم القيروان التى كانت مركزا للتجارة العالمية ونقطة التقاء للطرق التجارية الداخلية والخارجية إلى بلاد المشرق والأندلس، كما ورثوا موانى تنس وسوسة اللتان كانتا ترتبطان بعلاقات تجارية بحرية مع موانى الأندلس والإسكندرية وكذلك ما ورثه الفاطميون من أساطيل بحرية تجارية عن الأغالبة حيث أصبحت من ممتلكاتهم.

ويصح القول أن النشاط التجاري لمدينة القيروان والمراكز التجارية الأخرى خلال العهد الفاطمي فى المغرب هو إستمرار لما كان عليه فى أواخر عهد الأغالبة مع بعض الفروق التى يمكن القول بازدياد هذا النشاط وتوسع المراكز الاقتصادية وتوطد العلاقات التجارية بعد أن أسس الفاطميون مدينة المهدية فأصبحت ميناءا وقاعدة لتجارتهم مع الأسكندرية وبلاد الشام والعراق وصقلية والأندلس[2].

وأخيرا فلا غرابة إذا ما أدركنا عمق التأثيرات التى تركها الفاطميون من جوانبها الاجتماعية والاقتصادية، فقيام الدولة الفاطمية فى المغرب وانتقالها إلى مصر هو أهم الأحداث السياسية فى القرن الرابع البحرى حيث أمتد سلطانهم على معظم بلاد المغرب ومصر وبلاد الشام والجزيرة الفراتية وكان لهم دعاة منبثون فى كل صقع وناحية[3].

---

[1] ناصر خسرو ، سفرنامه ص 77 ، 79 ، 91 ، 103 .

[2] قال البكرى. انها مرفأ لسفن الاسكندرية والشام وصقلية والاندلس ومرساها منقور فى حجر صلد يسع ثلاثين مركبا على طرفى المرسى (المغرب ص 30) .

[3] ابن النديم، الفهرست ص 189.

(6) دولـة المرابطـين:

اقترن قيام دولة المرابطين فى المغرب بتأسيس مدينة مراكش عاصمة لها فقد أصبحت مركزاً سياسياً ولعبت دورها فى توجيه الأحداث السياسية، والظـاهر من نظم المرابطين وتقاليدهم ورسومهم هى استمرار لما كانت عليه فـى الـدول والإمارات التى فوض المرابطون أركانها. فلم يكن غريباً أن نرى المرابطين بعـد تولى على بن يوسف بن تاشفين يشيدون إمبراطورية كبرى تستند إلـى أنظمـة وقوانين. استطاعت أن تشرعها أو تستمدها من شرائع كانت سائدة فى المنطقة.

ونلاحظ بعد ظهور مراكش والمدن الأخرى التى أسسها المرابطون، بـدأت تظهر صورة الحياة الاجتماعية المدينة، اذ تبدلت حياة أغلب القبائـل التـى كـان معظمها متنقلا إلى حياة مستقرة وذلك بعد أن وضع المرابطون الأساس لحركـات إصلاحية بين القبائل والبطون وذلك بتشجيعها على الإقامة فى المدن و الحواضـر وبخاصة بعد أن تحولت حركتهم الدينية إلى حركة سياسية، كما عنى المرابطـون بإدخال الإصلاحات والتعمير للمدن وبذلك فهم يقـدمون صـورة واضـحة عـن اهتماماتهم فى الانتقال إلى أساليب جديدة فى الحياة الاجتماعية والمدنية. فيشـير ابن أبى زرع إلى احتلال يوسف بن تاشفين مدينة فاس فبادر إلى تحصينها وتهديم ما يفصل بين المدينتين بحيث جعلها مدينة واحدة ثم سورها وشرع فـى إبتنـاء المساجد فى احوازها وأزقتها وشوراعها فإذا اكتشف زقاقا لا يقوم فيـه مسـجد عاقب أهله، وبنى فيها الحمامات والفنادق والأرجاء وأصلح أسواقها[1].

لقد كان للمرابطين الفضل فى قيام تجمعات عمرانية مهمة مثل مكناس وتلمسان ومراكش وبمرور الزمن اكتسبت أهمية اقتصادية كبيرة. حيث أصـبحت مراكـز تجارية تربط بلاد المغرب بالأندلس من جهة وبلاد المغرب والأنـدلس بالمشـرق الإسلامى من جهة أخرى وكانت مدينة مراكش تضم عناصر مختلفة من القبائـل المغربية والسودانيين الأندلسيين وقد ازدادت نفوسها فى عهد على بن يوسف بن

---

[1] الانيس المطرب بروض القرطاس ص 91 ثم انظر: ابن خلدون ، العبر ج6 ص 380 ، د. السيد عبـد العزيز سالم ، المصدر السابق ص 701 .

تاشفين، حتى أن سليمان عبد الغنى مالكه لا يبالغ كثيراً فى أن عدد سكانها قد بلغ نحو المليون[1] وعلى الرغم من أن قبائل صنهاجة وهم لمتونة وجدالـة وسـوفة ولمطة يشكلون الغالبية فى عدد السكان ولكن العرب المشارقة تزايد وجودهم فـى هذا العهد حتى أقيمت لهم جامعة قوية فى تلمسان تتحكم فى الطريق إلى المغـرب الأقصى، ومهما يكن من أمر فإن الاستقرار والازدهار الاقتصادى أدى إلـى نمـو سكان العاصمة مراكش حتى أنها احتوت على مائة قبيلة[2] .

ومن المفيد أن نشير إلى انقسام مجتمع مدينة مراكش فى عهد المرابطين الى فئات ثلاث رئيسية. الفئة الأدنى التى انحصرت فيها السلطة وتتمثل فى يوسف بن تاشفين وأولاده وأحفاده من بعده وقد تمتعت هذه الفئة بالرئاسة والسيادة ليس فى مجتمع مدينة مراكش، بل فى جميع المجتمع المغربي واستأثرت قبيلـة لمتونـة بالمناصب المهمة بالمدينة فاكتسبوا الأموال وحازوا رقاب الرجال وكثروا فى كـل مكان وساعدهم الوقت والزمان[3].

والفئة الأخرى تتمثل فى "الكافة" التى تسميها المصادر "العامة" وهم مـن أهـل المدن والحواضر. أما الفئة الثالثة فهى المتفرقة من القبائل الضاعنة والمتجولـة فى خارج المدن ومضارب البراري والصحراء.

وظهرت المرأة فى الحياة الاجتماعية فى دولة المرابطين، وكانت السيدة زينب زوجة يوسف بن تاشفين تتمتع بمكانة عظيمة وتشترك فى شئون الدولة المختلفة كما برزت تميمة بنت يوسف بن تاشفين طالبة للعلم وحافظة للشعر وقد اتخـذت الكتاب وظهرت أمامهم فى غير حياء ولا خجل [4].

---

[1] بحثه الموسوم، بعض ملامح الحياة الاجتماعية فى مدينة مراكش فى عصر المرابطين والموحـدين ، مجلة الدارة / العدد الثالث / السنة الثامنة عشر 1986 / ص 176 .

[2] م . ن . ص 180.

[3] م. ن . ص 177 نقلا عن ابن عذارى، البيان المغرب ج 4 ص 25 .

[4] ابن عذارى، البيان ص 26 .

وكان المرابطون يعيرون اهتماماً بسبل الحياة لسكان المدن، بتوفير المياه اللازمة للشرب والدواب فاحتفروا الآبار وانشأوا الصهاريج الكبيرة وعملوا السقايات واستغلوا مياه العيون كما شقوا الطرق وعبروها وبنوا القصور للأمراء وكبار رجال الدولة [1]، إلى جانب ذلك فقد حرص المرابطون على عقد مجالس العلم يحضرها الأمراء والعلماء والأدباء ورجال الدولة ، كما أوجدوا مجالس لبحث مشكلات الدولة والحياة الاجتماعية التى يواجهها الناس، وهناك أيضاً مجالس الوعظ والمجالس العامة التى كان يعقدها الأمراء وكبار رجال الدولة فى قصورهم ويحضرها الأدباء والشعراء وكان للفقهاء والعلماء، المكانة الخاصة لدى أمراء المرابطين حيث جعلوا منهم فئة مرهوبة الجانب مسموعة الكلمة وأصبح لهم دور بارز فى الحياة السياسية والاجتماعية العامة وسيطروا سيطرة تامة على مقاليد الأمور، وهذا يعكس صورة الحياة الاجتماعية لهذه الفئة المهمة فى المجتمع المرابطي.

أما عناصر السكان من غير المسلمين فى دولة المرابطين، فهناك جماعات متفرقة من النصارى واليهود فى بلاد المغرب، وقد عاشوا فى ظل التسامح الدينى يباشرون أعمالهم المختلفة وخاصة فى مجال التجارة والصناعة، والظاهر أن المرابطين لم يتعرضوا لهم ولطقوسهم وحرياتهم الدينية لسوء فيما عدا بعض الحالات التى أساء فيها هؤلاء تصرفاتهم فصب عليهم المرابطون جام غضبهم فعاقبوهم ولخذوا العهود منهم [2].

إن الاهتمام الذى كان يوليه المرابطون فى إصلاح أسواق المدن، يدل على تنشيطهم للحياة الاقتصادية ووضع الأساس لها، فقد وصف الأدريسى مراكش فى

---

[1] ولعل هناك بعض النسوة كن يرفعن الحجاب عن وجوههن فى الطرقات العامة أو فى الأسواق وقد ذكر النويرى ما يشير الى ان محمد بن تومرت .

[2] كان علي بن يوسف بن تاشفين يتخذ بين حين وآخر إجراءات إخراج اليهود من مراكش لـيلاً فيما يسمح لهم بالعمل بها نهارا وذلك لانه كان يخشى ان يغدروا بالمسلمين (سليمان عبد الغنى مالكى ، المصدر السابق ص 182) .

عهد المرابطين بان وأسواقها مختلفة وسلعها نافقة [1] مما يوضح لنا النشاط التجارى فى دولة المرابطين، كما قامت فى المدن الجديدة التى أسسها المرابطون وكذلك فى المدن التى وقعت فى مناطق نفوذهم صناعات أصبحت بضائع تجارية ينقلها التجار إلى الآفاق وكانت الأعمال التجارية فى مراكش قد انقسمت إلى قسمين، التجار الذين اختصوا بالتجارة الخارجية وكانوا يستوردون إن يصدرون إلى الدول والأقاليم المجاورة والبعيدة مختلف أنواع السلع والبضائع وتجار التجزئة الذين كانوا يبيعونه بضائعهم فى متاجرهم وحوانيتهم وقد زادت أهمية التجار والتجارة باحتلال مراكش مكانتها فى بلاد المغرب الأقصى[2].

أما نقود المرابطين وسكتهم، فقد أكد ابن عذارى، انه فى سنة 464 هـ، ضرب الأمير يوسف بن تاشفين، السكة بدراهم مدورة زنة الدرهم منها، درهم وربع من الفضة سكة من حساب عشرين درهماً للأوقية، وهو الدرهم الجوهري المعلوم فى تلك الحقبة، كما ضرب أيضاً الدينار الذهبي باسم الأمير أبى بكر بن عمر وذلك فى دار السكة فى مدينة مراكش[3].

وقد كانوا سعوا إلى هذا الإجراء حالما أتموا بناء مراكش وأقاموا دار السكة فضربت فيها دراهم فضية ودنانير ذهبية، يبدو إن المرابطين كانوا يبذلون محاولاتهم لكى يرفعوا من قيمة نقودهم فيزيدون وزنها وعيارها ويتجملون فى حجمها لكى يجعلوها عملة مطلوبة تفرض وجودها وتضاهى العملات فى البلاد الإسلامية الأخرى.

أما الروايات التى يسوقها بعض المؤرخين والكتاب التى تعزو سبب خروج المرابطين من الصحراء يرجع إلى عوامل اقتصادية تقوم على رغبة المرابطين فى

---

[1] نزهة المشتاق ص 55 .

[2] وجد اسم تاجر من الأسكندرية مات فى ميناء المرية الاندلسي سنة 519 هـ حيث كانت الأندلس تحت نفوذ المرابطين، وكان منقوشا على احد قبور المدينة ما يدل على انه مات اثناء سفره وهو ينقل تجارة من الأقمشة الفاخرة ذات الشهرة العالمية (د.حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام ج4 ص 409)

[3] البيان المغرب ج4 ص 131.

التحكم في طرق التجارة الشمالية والتمتع بأراضي المغرب الخصبة، فان اغلبها صحيحة إلى حد ما وذلك إلى جانب العوامل الأخرى وذلك على الرغم من أن الطريق التجاري الصحراوي الممتد بين اودغست جنوبا وسجلماسة شمالا، كان طريقا معروفا منذ القديم، وكذلك كانت قبائل صنهاجة التى حملت راية المرابطين ودعوتهم تعيش فى مناطقها الصحراوية وتقاسى أهوال الجدب والقحط[1].

(7) دولة الموحدين:

قامت فكرة الموحدين لتأسيس دولتهم السياسية على مبدأ "الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر" ووجوب الاعتماد فى استقاء الأحكام على القرآن والسنة باعتبارهما شريعة المجتمع دون غيرهما وموافقة آراء أبى الحسن الاشعرى "مذهب الاشعرية" سوى مسألة الصفات فانهم وافقوا المعتزلة فى نفيها.

وضمن هذه التوجهات، فقد خالفوا المرابطين في آرائهم لتولى أمر الحكم فى الدولة السياسية وتنظيماتها الادارية والعسكرية، ولكنهم قطعا قد أفادوا كثيرا مما كانت عليه الدول والإمارات السالفة عليهم فى بلاد المغرب من رسوم وقوانين وضعية مع التمسك بما يرون أحقيتهم فى الخلافة دون غيرهم من المسلمين لأنهم – على حذر عمهم – من أكثر المسلمين إيمانا وأصحهم مذهبا، مما جعل علاقاتهم بالخلافة العباسية متردية لتجاوزهم على سلفتها الروحية التى تحكم العالم الاسلامى فضلا عما عرفوا به من تنظيمات خاصة بهم. فقد رتبوا مؤسسة السلطة السياسية على شكل هرمي يبدأ بالقمة التى يمثلها أهل العشرة وفى مقدمتهم محمد بن تومرة ثم أهل الخمسين ويليهم أهل السبعين ثم المائة وآخرهم أهل الألف. وهذه الطبقات مؤلفة من رجال القبائل والعناصر والأقوام التى انضوت تحت سلطانهم وكان لهذا التاليف الهرمي فى السلطة شروط وقوانين وأحكام تحدده. وكان لاهل العشرة أو لأصحاب العشرة السلطة المطلقة فى تصريف شئون الدولة

---

[1] د. حسن ابراهيم حسن . المصدر السابق ص 415 . د. احمد مختار العبادى، فى تاريخ المغرب والاندلس ص 276. سليمان عبد الغنى مالكة. المصدر السابق ص 181.

والجيش والرعية، فمنهم الخلفاء والأمراء والقادة وأصحاب الدواوين وكبار الموظفين، ولم يكن للفقهاء والعلماء ذلك الدور البارز فى رسم سياسة الدولة والسيطرة على مقدرتها ومقاليد الأمور فيها كما كان الحال عليه أيام دولة المرابطين.

شهدت مراكش في عهد الموحدين تقدما، فقد اهتموا بها أقاموا فيها كثيرا من المنشآت وقصدها الناس من كل مكان حتى اكتظت المدينة بسكانها واضطر خلفاء الموحدين على توسيعها فضمت عناصر سكانية متباينة وفى مقدمتها القبائل المغربية الموالية وهى العناصر الغالبة فى سكان المدينة، وكانت قبيلة المصامدة التى قامت على أكتافها دولة الموحدين. تستأثر بالنفوذ الاجتماعي والسياسي فى المدينة لأنها كانت من اكبر قبائل المغرب وقد احتلت مركز الصدارة فى المغرب الأقصى وأصبحت لهم منزلة كبيرة لدى الموحدين ويأتي العرب المشارقة ليمثلوا العنصر الثانى من السكان. وقد بدأت صلة الموحدين بهؤلاء منذ عهد الخليفة عبد المؤمن بن على، حين أذاع بين الناس نسبة العربى[1]. وقد حرص الموحدون على تشجيع هولاء للهجرة من أفريقيا إلى المغرب الأقصى فاستقر كثير منهم حول مراكش وشاركوا فى الحياة الاجتماعية، كما كان بعضهم جندا فى جيش الموحدين فأقطعوهم بعض الأراضى وأنفقوا عليهم النفقات الواسعة[2] والى جانب قبيلة المصامدة وبعض القبائل الأخرى المساندة والعرب المشارقة ، فهنالك أجناس أخرى صغيرة من السودانيين والروم والصقالبة إذا استخدم الموحدون منهم فى جيوشهم ، كما شاركت الجوارى السودانيات فى الحياة الاجتماعية فى مدينة مراكش حيث عرف عنهن مهارات فى طهى الطعام وإعداده[3] . ومن العناصر الأخرى التى سكنت مراكش الأتراك الغز فانضم بعضهم إلى الجيش وصارت لهم الأعطيات والمرتبات الشهرية والاقطاعات[4] . وكان لقبيلة كومية أيضا مكانها فى المجتمع الموحدى ، فقد تولى بعض أفرادها "الوزارة" .

---

[1] ابن أبي زرع، الأنيس المطرب ص 183 .
[2] ابن عذارى، المصدر السابق ص 152 .
[3] كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار ص 216 .
[4] ابن الأثير، الكامل ج 8 ص 296 .

نستخلص من ذلك أن الموحدين استحدثوا من فئات السلطة الحاكمة ، مسلما اجتماعيا جديدا ، أرسى قواعده محمد بن تومرت ، فقد اختص من استجاب لدعوته بمكان الصدارة فى الدولة فقد لقبائل هرغة وهنتاتة وجنفسية وهزرجة ووريكة وكوفية ، كثيرا من البر والكرم فضلا عن العطاء المنتظم ، وبذلك ظهر المجتمع فى عهد الموحدين فى أربع عشرة فئة ، أولها أهل الجماعة وآخرها فئة "الغزات" وهم الموالى[1]. وتتمتع هذه الفئات بحسب سلمها الإجتماعى بالامتيازات والاعطيات والمرتبات ، كما إن علماء الموحدين كانت لهم منزلتهم اللائقة بهم وكذلك القضاة ورجال القضاء حيث كانت لهم كلمتهم المسموعة لدى الخلفاء والأمراء والقادة .

ولم يكتف الموحدون بما وجدوه فى البلاد من القصور والمنشآت العامة بل زادوا عليها ومن أشهر قصورهم "قصر الحجر" الذى شيده على بن يوسف بن تاشفين وقصر الخليفة عبد المؤمن بن على كما شهدت مراكش إنشاء العديد من المساجد منها المسجد الكبير الذى أنشأه يوسف بن تاشفين والمسجد الجامع الذى أقامه عبد المؤمن بن على والمعروف بجامع "الكتبيين" وأسسوا كذلك المدارس التى ألحقت بالقصور لتخريج الحفاظ والقراء والمحدثين. وسعوا أيضا إلى بناء البيمارستانات " المستشفيات " ومنها البيمارستان فى مدينة مراكش الذى أشرف على تشييده عبد المؤمن بن على وكذلك إقامة الحمامات العامة والفنادق والأسواق المسقفة.

أما الاحتفالات الدينية فمن أهم مناسباتها صلاة الجمعة والاحتفال بقدوم شهر رمضان والاحتفال بعيد الفطر وعيد الأضحى وكذلك الاحتفالات والمهرجانات

---

[1] الموالى تعنى السادة او العبيد على السواء والمقصود هنا العبيد او الإماء (ويأتى بعد أهل الجماعة ، أهل الخمسين وأهل السبعين ومعهم الطلبة "وهم علماء الموحدين" والحفاظ "وهم صغار الطلبة" ثم أهل الدار (أفراد البيت الموحدى)

ثم أهل هرغة (قبيلة محمد بن تومرت) ثم أهل تينملل ثم قبيلة كدميوه او جديموه ثم أهل جنفيسة وأهل حفتاته ثم تليها القبائل التى ناصرت الموحدين فى البداية وليست من قبيلة مصمودة ثم الجند وأهل العساكر (ابن عذارى ، البيان ص، 154 ، سليمان عبد الغنى مالكه ص 178) .

العسكرية التى كانت تتضمن استعراض الجند والعساكر قبل الخروج إلى الحرب إضافة إلى الاحتفالات بالوفود والسفراء والمبعوثين ورسل الملوك والأمراء والقادة أو عند الانتهاء من تشييد أحد المساجد أو الجوامع أو القصور أو المدارس أو لدى العفو عن المسجونين والمحبوسين.

ومن المظاهر الاجتماعية ارتياد الناس للحدائق والمتنزهات ومنها "الحديقة الكبرى" التى أمر بإنشائها وغرسها الخليفة عبد المؤمن بن على والبستان الكبير بمراكش الذى كان خصيصا للأمراء كما أقيمت وسط هذه المتنزهات البرك التى أشبه ما تكون بالمسابح فى الوقت الحاضر.

وعلى الرغم من إن خلفاء الموحدين وأمرائهم وبخاصة الأوائل منهم كانوا عزوفين عن متع الحياة ومباهجها مما يحول دون ممارسة الرعية لها وخصوصاً فيما يتعلق بالغناء والموسيقى ولكن التأثيرات التى تركتها الاندلس فى هذا الجانب أصبحت مجالس الغناء والموسيقى والطرب تعقد فى قصور الحكام والأمراء.

ويولى الموحدون اهتمامهم بالنواحى الاقتصادية فقد تميزه مراكش فى عهودهم بنشاطها التجاري حيث أصبحت لا تقل شهرة عن المراكز التجارية الذائعة الصيت مثل القيروان وتاهرت وسجلماسة واودغست وغيرها ويتوضح حجم هذا النشاط التجاري مما ورد عن كارثة الحريق الذى شب فى سوق مراكش سنة 607 هـ حيث ذهبت أموال جسيمة لا تحصى للتجار الواردين والقاطنين والقاصين والدانين وأدى إلى افتقار طبقة كبيرة من ذوى اليسار والثروة[1] وينقل ابن عذارى، إن الخراج بلغ فى عهد الموحدين مائة وخمسين بغلا من أفريقيا وحدها عدا بجاية وأعمالها وتلمسان وأعمالها وان عبد المؤمن بن على وجه همه لتشجيع الزراعة وإصلاحها وتنظيم الحياة الاقتصادية يساعده فى ذلك اتساع رقعة دولة الموحدين واستتباب الأمن فيها واستقرار الحياة الاجتماعية وتشجيع التجارة والصناعة[2] لذلك فان الازدهار الاقتصادى الذى عرفته دولة الموحدين يجد موارده من الأندلس الغنية بثرواتها فضلا عن بلاد المغربين الأوسط والأقصى.

---

[1] د.حسن إبراهيم حسن ج 4 ص 416. سليمان عبد الغنى مالكه، المصدر السابق ص 181 .

[2] البيان المغرب. المصدر السابق ص 33.

لقد ضمت مراكش العديد من أصحاب الحرف والصناع الذين كونوا فيما بعد طوائف عدة وكان معظم هؤلاء الحرفيين قد استبقى الموحدون على حياتهم لدى دخولهم مراكش للاستيلاء عليها وانتزاعها من المرابطين اذ حرص عبد المؤمن بن علي على حياة الحاذقين والنابهين منهم لاحتياج الدولة إليهم[1] وخاصة في إنتاج الأسلحة والبناء والتشييد ونشر الثقافة وغيرها من مظاهر العمران[2] .

(8) إمارة بني مرين:

قامت دولة بنى مرين بعد الانهيار الذى منيت به دولة الموحدين حيث فقدت نفوذها وسلطتها فى بلاد المغرب والأندلس فتمكنوا من مؤسساتها الإدارية والسياسية والعسكرية أعلنوا استقلالهم فيما كانوا يحكمونه ويديرونه من أملاك دولة الموحدين المترامية الأطراف.

ويمكن القول أن قوانين الموحدين ورسومهم ونظمهم وشرائعهم ظلت سارية المفعول فى دولة بنى مرين الذين يمثلون فى واقعهم ورتبهم السياسيين والإداريين فقد اتخذوا من مراكش عاصمة لهم بما يسرى فيها من تنظيمات سياسية وإدارية كان الموحدون أوجدوها وتحتوها لدولتهم وكانت البداية الحقيقية لبنى مرين كدولة سياسية وإدارية فى منطقة المغرب الأقصى وهى تلعب دورها المهم على نطاق المغرب الإسلامى فى عهد أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق الذى سيطر على مراكش سنة 668 هـ ولما كانت الدولة المرينية قد بسطت سيطرتها من برقة شرقاً إلى منطقة السوس الأقصى والمحيط الأطلسى غربا فلابد لها أن تعتمد ما كان سائداً فى حكمها وإدارتها فى هذه المنطقة المتسعة الأرجاء وبخاصة فيما يتعلق بالدواوين وإدارة الجيوش والموظفين والعمال وأعطياتهم ومرتباتهم والاقطاعات التى كانت تمنح لهم وكذلك بتعيين القضاة والجباة وتنظيم ادارة المدن والحواضر والحياة الاجتماعية ويزودنا ابن الأحمر بمعلومات مفيدة عن أحوالها الاجتماعية وذلك من خلال الحديث عن مدينة فاس فيشير إلى أن بنى مرين اهتموا

---

[1] سليمان عبد الغنى، المصدر السابق ص 182.

[2] د. حسن إبراهيم حسن ج 4 ص 417-418.

بفاس اهتماما خاصا واعتنوا بأمرها وبنوا مدينة ألحقت بها سميت "المدينة البيضاء" وعرفت "فاس الجديدة" اذ اتخذوها دارا للإدارة[1] وكانوا أقاموا أسوارها وجامعها وأسواقها[2] واختط الناس فيها الدور والمنازل وأجريت فيها المياه إلى القصور وأقيمت القناطر بطرقاتها مثل قنطرة وادى البخار وقنطرة مرين[3] كما ابتنيت فى المدينة الجديدة الأسواق والحمام العظيم والقصور للوزراء وعمرت بالأسواق والمدارس والفنادق[4] وأجريت إليها المياه عن طريق وادى الجواهر وغدير الحمص[5] ووصفها ابن الخطيب "بأنها كالصباح أفق للغرر الصباح فيها منابت الروح المفترس ومجالس الحكم الفصل ودواوين الكتاب وخزائن محمولات الاقتاب وكراسى الحجاب وعنصر الأمر العجاب "[6] أما ابن أبى زرع فيلقى ضوءا مفيدا على المدينة الجديدة فاس فى عهد بنى مرين فيقول: "جمعت مدينة فاس بين عذوبة الماء واعتدال الهواء وطيب التربة وحسن الثمرة وسعة المحرث وبها منازل مونقة وبساتين مشرقة ورياض مورقة وأسواق مرتبة متسقة وعيون منهمرة وانهار متدفقة منحدرة واشجار ملتفة وجنات دائرة بها مجتمعة"[5] وبذلك يشير هذا المؤرخ من طرف خفى إلى ازدهار الزراعة حيث تتخلل الانهار ديارها وبساتينها وجناتها وشوارعها وأسواقها كما يذكر ابن الخطيب ما يدل على هذا الازدهار فيقول: " وقيدت طرف الناظر المفتون ادواح الشجر بها وغابات الزيتون زيتها يعصر وخيرها لا يقصر وفواكهها لا تحصى ولا تحصر "[6] كما إن هنالك بعض الصناعات التى كانت تقوم على حطب البلوط والفحم وكذلك إقامة دور

---

[1] روضة النسرين فى دولة بنى مرين ص 19.

[2] ابن أبى زرع، الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية ص 186، 187.

[3] م. ن. ص 99.

[4] ابن الأحمر. روضة النسرين ص 20 .

[5] م. ن. ص 20 .

[6] مشاهدات لسان الدين بن الخطيب ص 112.

[5] الذخيرة السنية ص 528. ثم انظر الجزنائى. زهرة الآس فى بناء مدينة فاس ص 25، 26.

[6] مشاهدات ص 108.

لصناعة القوارب والسفن الصغار المعروفة (بالحبالات) ووجود بعض الصناعات المحلية التى كان يزاولها الصناع والحرفيون والأرجاء المنصوبة على الأنهار تطحن الحبوب ويخرج منها حمل أثقالها واقذارها ورماداتها [1].

وهكذا فان عهد بنى مرين يعد استمرارا لما كان عليه عهد الموحدين فيما يتعلق بالأحوال الاقتصادية من تجارة وزراعة وصناعة وكذلك بما يختص بالأحوال الاجتماعية وعناصر السكان فى المدن ومظاهر أحوالها والحياة العامة فى الحواضر وبخاصة فى مدينتي مراكز وفاس وأحوال القبائل وخططها ومساكنها.

والظاهر إن بنى مرين نقلوا كثيرا من مظاهر الحضارة الأندلسية إلى بلادهم وخصوصا ما يتعلق بمظاهر العمران والعناية بالزراعة ومتطلباتها فاستقبلوا الأندلسيين الماهرين والحاذقين والمهندسين والبناءين وذوى الخبرة فى الصناعة، وكذلك العلماء والفقهاء والمدرسين وأصحاب الفن، وقد درجوا فى ذلك على ما كان يقوم به الموحدون فى هذه الجوانب.

---

[1] ابن أبى زرع، المصدر السابق ص 529 .

المصادر والمراجع

1- المصادر الأولية.
2- المراجع الثانوية.
3- البحوث والأطارح.
4- المراجع الأجنبية.

المصادر والمراجع

أ-المصادر الأولية:

ابن الأثير، عز الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم (ت 630 هـ / 1232م)

1-الكامل فى التاريخ (بيروت – 1966)

ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى(ت 658 هـ/ 1258م)

2-الحلة السيراء (القاهرة – 1963)

البلاذرى، أبو العباس أحمد بن يحيي بن جابر (ت 279 هـ / 892م)

3-فتوح البلدان (القاهرة – 1956)

الباروني، النفوسي سليمان بن عبد الله (ت 559 هـ / 1940م)

4-الأزهار الرياضية فى أئمة وملوك ج2 .

5 -مختصر تاريخ الاباضية (تونس – 1958)

الجزنائى، أبو الحسن على (ت أواخر القرن الثامن الهجرى)

6-كتاب زهرة الأس فى بناء مدينة فاس (الجزائر – 1923)

ابن حزم الأندلسي، على بن أحمد بن سعيد (ت 456 هـ / 1063 م)

7-جمهرة أنساب العرب (دار المعارف بمصر – 1962)

ابن حوقل النصيبى، أبو القاسم محمد البغدادي الموصلي (ت367 هـ/977 م)

8-صورة الأرض (بيروت – 1938)

الحميدى، أبو عبدالله محمد بن أبى نصر فتوح بن عبدالله الازوى (ت488هـ/1892 م)

9-جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس (القاهرة – 1966 م)

الحميرى، أبو عبد الله بن عبد المنعم الصنهاجي (ت القرن التاسع الهجرى)

10-صفة جزيرة الأندلس (قطعة من الروض المعطار فى خبر الأقطار (القاهرة1937)

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت 808 هت / 1405 م)

11-العبر وديوان المبتدأ والخبر 0مصر - بولاق 7 أجزاء)
ابن خلكان، أبو العباسى شمس الدين أحمد بن محمد (ت 681 هـ / 1282م)
12- وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان (مصر - 1310هـ)
ابن خردائبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (توفي في حدود 300 هـ)
13-المالك والممالك (باعتناء دى غريه (بريل، ليدن - 1889م)
الدرجيني، أبو العباس أحمد (ت منتصف القرن السابع الهجرى)
14-طبقات الاباضية (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 12561 خ)
الدباغ، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصارى (ت 690 هـ / 1296 م)
15-معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان (تونس - 1230 هـ)
الرقيق القيروانى، إبراهيم بن القاسم(توفى فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى)
16-تاريخ أفريقيا والمغرب (تونس - 1988)
أبو زكريا، يحيي بن أبى بكر (ت فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى)
17---السيرة وأخبار الأئمة (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 19030 خ)
السلاوى، أحمد بن خالد الناصري (ت 1319 هـ / 1901 م)
18-الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (الدار البيضاء - 1954)
الشماخي، احمد بن سعيد بن عبد الواحد (ت 928 هـ / 1521 م)
19-السير (القاهرة - الطبعة الحجرية)
ابن شاهين الظاهرى، غرس الدين خليل (ت 873 هـ / 1468 م)
20-زبدة كشف الممالك وبيان الطرق بالمالك (باريس - 1894م)
الأصطخرى، أبو اسحق إبراهيم بن محمد الفارسي (ت 341 هـ / 952م)
21-مالك الممالك (القاهرة - 1961)
ابن الصغير المالكى (ت نهاية القرن الثالث الهجرى)
22-أخبار الأئمة الرستميين (باريس - 1958)
أبو عبيدة، مسلم بن أبى كريمة (ت أواخر القرن الثانى الهجرى)
23-رسالة فى أحكام الزكاة (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 21582ت)

أبو عبيد البكرى، عبد الله بن عبد العزيز (ت 487 هـ / 1094م)

24-المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب (الطبعة الأوروبية -1857 م)

عبد الله بن أبى عبد الله المالكى (ت نهاية القرن الرابع الهجرى)

25-رياض لنفوس فى طبقات القيروان وأفريقية (القاهرة-1951)

ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن القرشي المصرى (ت 276 هـ/889م)

26-فتوح مصر والمغرب (القاهرة - 1961)

27-فتوح أفريقية والأندلس (الجزائر - 1947)

فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن فضل الله (ت 742 هـ / 1341م)

28-مالك الأبصار فى ممالك الأمصار(نشر أحمد زكى باشا(القاهرة/ 1924)

أبو الفدا، اسماعيل بن على بن عماد الدين صاحب حماة (ت732 هـ/1331 م)

29-المختصر فى أخبار البشر (القاهرة - 1325م)

30-تقويم البلدان (طبعة باريس - 1840)

القزوينى، أبو عبد الله زكريا الأنصارى (ت 628 هـ / 1230م)

31-آثار البلاد وأخبار العباد (دار صادر دار بيروت - 1960)

لسان الدين بن الخطيب محمد (ت 940 هـ / 1533 م)

32-أعمال الأعلام، القسم3 (دار الكتاب، الدار البيضاء - 1964)

مجهول (من أهل القرن الثالث الهجرى)

33-أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها (مدريد - 1867م)

مجهول (من أهل القرن السادس الهجرى)

34-الإستبصار فى عجائب الأمصار (الأسكندرية - 1958)

محمد بن احمد بن تميم العرب (ت 333 هـ / 944م)

35-طبقات علماء أفريقية (باريس - 1915)

محى الدين عبد الواحد بن على المراكشى (ت 647 هـ / 1247م)

36-المعجب فى تلخيص أخبار المغرب (القاهرة - 1949)

المقرى، احمد بن محمد (ت 1041 هـ / 1623م)

37-نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (القاهرة – 1949)
المقدسى البشارى، محمد بن احمد (ت 375 هـ / 985 م)
38-أحسن التقايم فى معرفة الأقاليم (ليدن – 1907)
النعمان، أبو حنيفة المغربي (ت 636 هـ / 973م)
39-رسالة افتتاح الدعوة وابتداء الدولة (بيروت – 1970)
الوسيانى، أبو الربيع عبد السلام (ت 471 هـ /
40-سيرة أبى الربيع بن عبد السلام (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 911م)
اليعقوبى، أحمد بن أبى يعقوب بن واضح (ت 284 هـ / 897م)
41-كتاب البلدان (ليدن- 1891م)
42-التاريخ (النجف – 1358 هـ)
ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله الرومي البغدادي (ت 626 هـ / 1228م)
43-حجم البلدان (بيروت – 1957)

مصادر مضافة أخرى:

ابن أبى دينار، أبو عبد الله محمد بن أبى القاسم (ت 1092 هـ / 1681م)
44-المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس (المكتبة العتيقة ، تونس – 1967)
الأدريسى، الشريف أبو عبد الله محمد (ت 558 هـ / 1162م)
45-صفة المغرب وارض السودان ومصر (قطعة من كتاب نزهة المشتاق فـى اختراق الأفاق- ليدن – 1894م)
ابن ايبك الداوداري، أبو بكر بن عبد الله (ت حوالي 736هـ /1335م)
46-الدرة المضية فى أخبار الدولة الفاطمية (كتاب كنز الدور وجامع الغرر القاهرة – 1972)
ابن عذارى المراكشى، أبو عبد الله محمد (ت 695هـ / 1295م)
47-البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب (أربعة أجزاء)
الأول والثانى تحقيق ج.س كولان وليفى بروفنسال-دار الثقافة- بيروت- 1929

الجزء الثالث والرابع تحقيق ليفى بروفنسال ، بيروت

ب-المراجع الثانوية:

اسماعيل أحمد

48-نبذة فى تاريخ الصحراء القصوى (باريس – 1911)

د. إحسان عباس

49-العرب فى صقلية (القاهرة – 1959)

آدم متز Adam Mitiz

50-الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى(مجلدان: ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة وبيروت – 1967)

الدكتور حسن إبراهيم حسن

51-تاريخ الإسلام السياسي والدينى والثقافي ج3 (القاهرة – 1965)

52-تاريخ الدولة الفاطمية (القاهرة – 1958)

الدكتور حسن احمد محمود واحمد إبراهيم الشريف

53-العالم الإسلامى فى العصر العباسى (دار الفكر العربى-1977)

54-قيام دولة المرابطين (القاهرة-1957)

حسن حسنى عبد الوهاب

55-ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية (3 أجزاء تونس-1965، 1966)

الدكتور الحبيب الجنحانى

56-المغرب الإسلامى (تونس – 1976)

الدكتور السيد عبد العزيز سالم

57-المغرب الكبير ج2 (العصر الاسلامى) القاهرة-1966)

عثمان الكعاك

58-مراكز الثقافة فى المغرب (القاهرة – 1958)

الدكتور محمود اسماعيل

59-الخوارج فى المغرب الإسلامى (بيروت-1976)
الدكتور محمد حمدي المنياوي
60-الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمي (القاهرة-1970)
الدكتور موسى لقبال
61-دور كتامة فى تاريخ الخلافة الفاطمية (الجزائر-1979)
الدكتور محمد على دبوز
62-تاريخ المغرب الكبير (القاهرة-1943)
فاسيلى بارتولد Barthold .W.
63-تاريخ الحضارة الإسلامية (دار المعارف مصر- 1958)
ليفى بروفنسال Leve-Provencal
64-الإسلام فى المغرب والأندلس (القاهرة-1958)

ج-البحوث والأطارح:

بحاز إبراهيم بكير "أطروحته للماجستير المرسومة"الدولة الرستمية"
(جامعة بغداد-1983).

د.سوادي عبد محمد، بحثه " اباضية البصرة وتأثيراتها الفكرية والسياسية فى اباضية المغرب فى القرن الثانى الهجرى/ مجلة كلية التربية / العدد8 / جامعة البصرة-1982".

وبحثه " تأثر الفكر الأندلسي بالحركة العلمية فى المشرق الإسلامى مجلة عالم الفكر/ المجلد الثالث عشر/ العدد الثانى/ دولة الكويت-1982

د.سليمان عبد الغنى مالكة، بحثه " بعض ملامح الحياة الاجتماعية فى مدينة مراكش فى عصر المرابطين والموحدين / مجلة الدارة العدد الثالث / السنة الثانية عشرة المملكة العربية السعودية - 1986.

د-المراجع الأجنبية:

1. Andre Julien, Historie De A Frique du Nord (Paris-1951)
2. Farhy, Dr.A.Persian dansty in North Aerica, The Rustamides, The Islamic Review (England- 1962)
3. Hopkins Mediveal Moslem government in Barbary untile the 6th cetury of Hijra (London,1958)
4. Heyed, W. Hostoire du commerce du levant au Mogen-Age (
5. Marcais, La, Berberie Musulmane et orient au Mogen-age (Paris, 1946)
6. Lewcki, melanges Berberes Ibadites Revue Des et udes Islamiques Annee cahier (Paris-1930).
7. Prescott, History of Ferdinand and Isabella the catholic (London sonnenechein)
8. Terasse, Historie du Moroco, des oriyines A, Letablissenient du protectoral Francais (casablanca-1949).

الخرائط والمصورات والمخططات

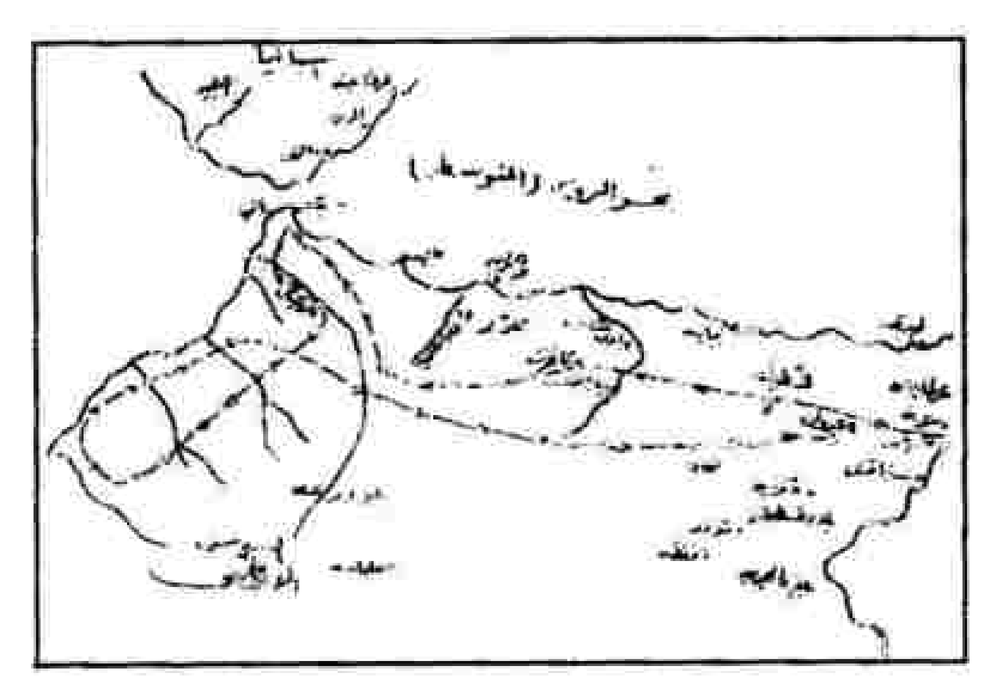
1- مخطط حملة عقبة بن نافع في المغرب الأقصى

2- خريطة الإمارة الرستمية

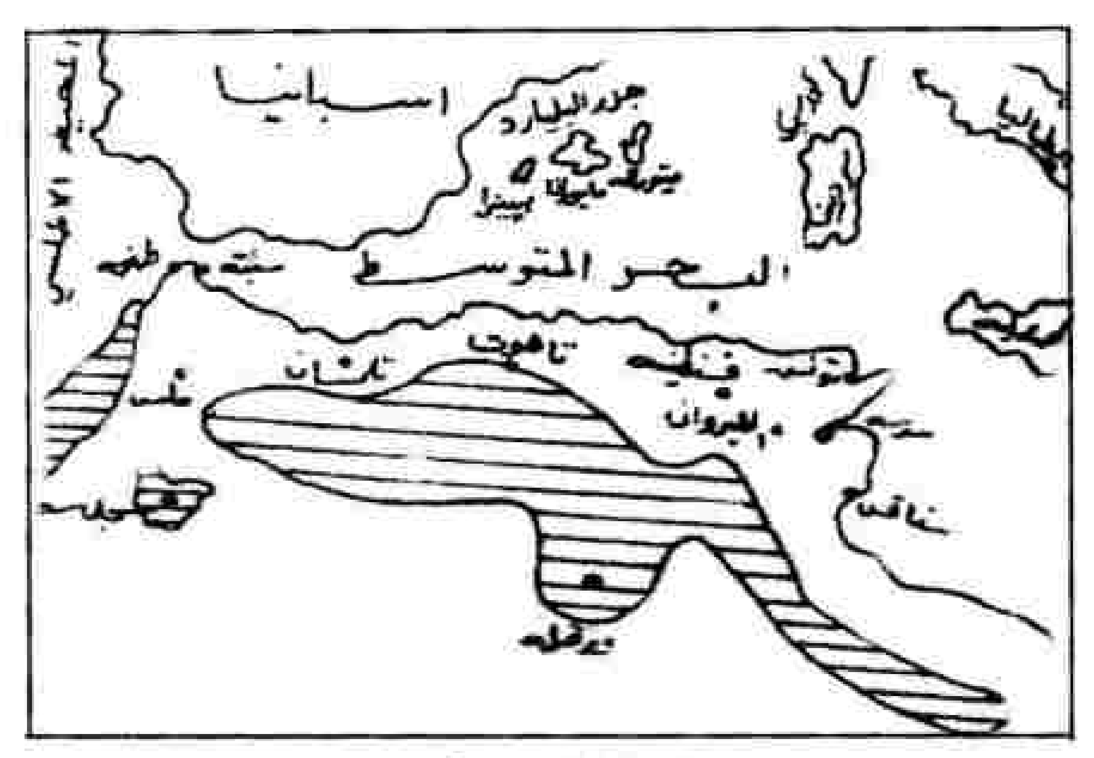
3- خريطة إمارة الأغالبة

4- خريطة إمارة الأدارسة

5- خريطة الدولة الفاطمية

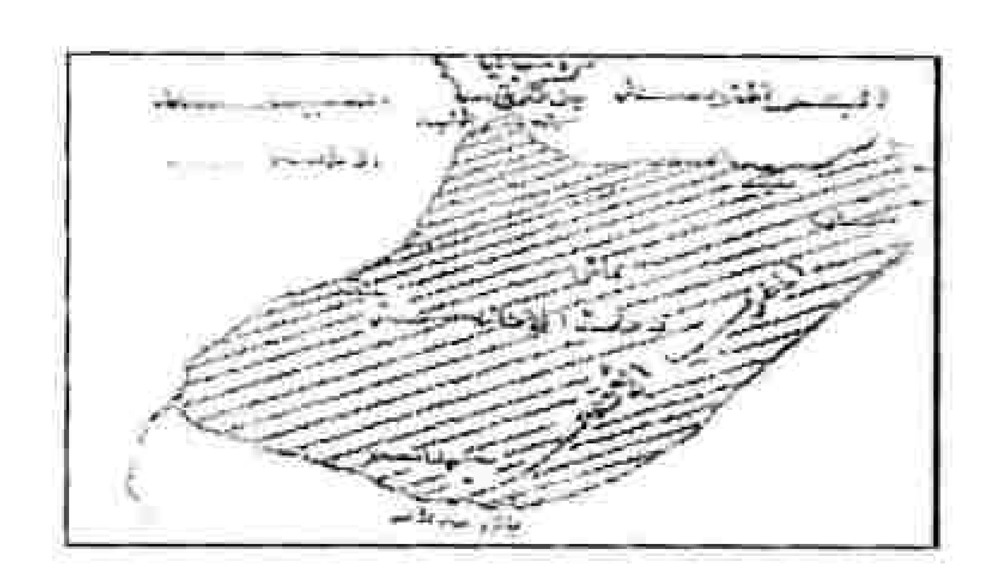


مخطط حملة عقبة بن نافع في المغرب الأقصى



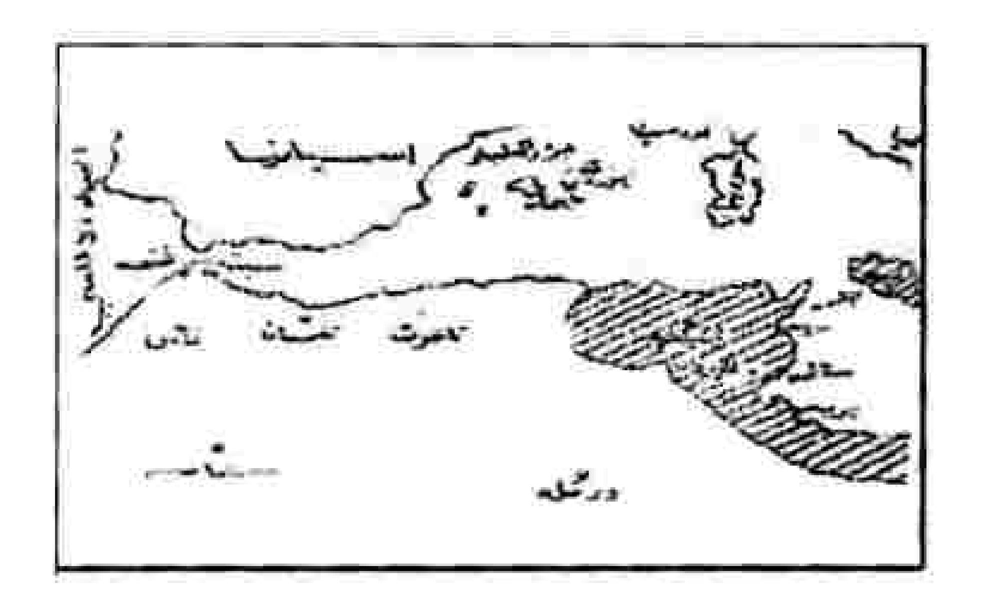
الإمارة الرستمية

(نقلاً عن الموسوعة العسكرية ج2 ط1 بيروت 1979)



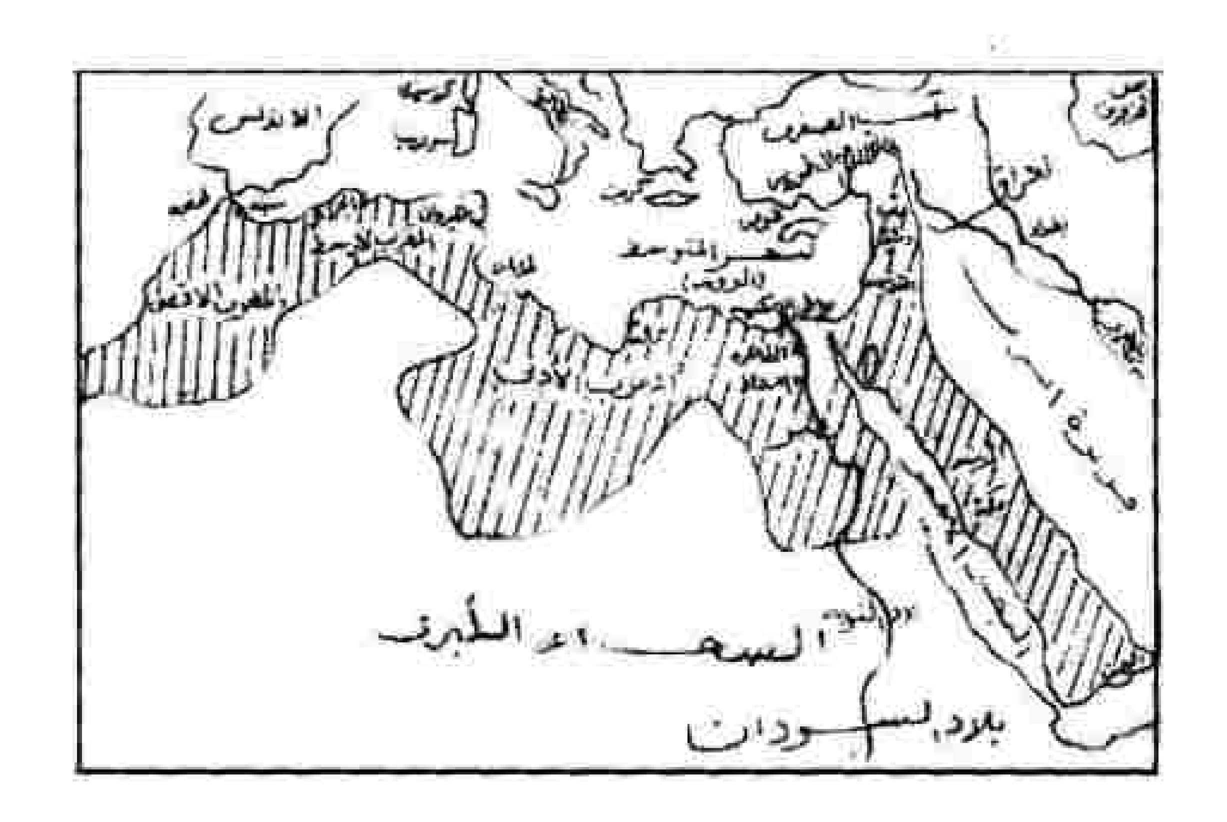
الحدود القصوى لإمارة الأدارسة

(نقلاً عن الموسوعة العسكرية ج2 ط1، بيروت-1975)



الحدود القصوى لإمارة الأغالبة

(نقلاً عن الموسوعة العسكرية ج2 ط1، بيروت-1979)



حدود الدولة الفاطمية فى أقصى اتساعها

(نقلاً عن الموسوعة العسكرية ج2 ط1، بيروت– 1979)

شجرات النسب والسلالات الحاكمة

1. بنو مدرار 140-354هـ/757-965م
2. الرستميون 144-283هـ/761-947م
3. الأدارسة 172-375هـ/
4. الأغالبة 184-296هـ/
5. الفاطميون 297-541هـ/909-1171م
6. المرابطون 448-541هـ/1056-1147م
7. الموحدون 524-667هـ/

بنو مدرار 140-354هـ/757-965م



الرستميون 144- 283هـ/ 761- 947م

[1] عبد الرحمن بن رستم 144 -171هـ

مؤسس الدولة الرستمية وباني مدينة تاهرت، حوالي سنة 160 هـ

أبو الخطاب عبد الأعلى بن سمح المعافري اليمني

140- 144 هـ (أسقطه العباسيون فلم تقم دولته)

[2] عبد الوهاب 171- 211هـ

[3] افلح ← 211- 240هـ

[4] أبو اليقظان محمد 240- 281 هـ

[5] أبو حاتم يوسف 281- 294هـ

[6] أبو اليقظان بن أبي اليقظان 294- 294 هـ

فترة حكم الفاطميين الدولة الرستمية 294- 316 هـ

[7] أبو اليزيد (صاحب الحمار، وهو إباضي نكاري قاوم النفوذ الفاطمي ودعى للأمويين الأندلس)

الأدارسة 172 -375هـ

[1] ادريس بن عبد الله الحسني
172-177 هـ مؤسس إمارة الأدارسة

ادريس بن ادريس (ادريس الثاني) 186-213 هـ
[2] فترة 14 سنة بين ولادة ادريس الثاني وتولية الامارة

كان ادريس وجعفر واحمد عبيدالله بكفالة جدتهم كنزة لصغر
اعمارهم فلم يحكموا

داود — بلاد هوارة، تسول، تازة، مكناسة غياثة

ادريس

عيسى — مدينة مكناسة وتادلا وبلاد فازاز

القاسم — سبتة، طنجة، قلعة الحجر النسر مسكرة تيطاون

عمر — بلاد صنهاجة الهبط، غمارة

أحمد

حمزة — وليلي واعمالها

يحيى — أصيلا، العرائش بلاد زواغة

عبد الله — أغمات نفيس جبال المصامدة، لمطة السوس الأقصى

جعفر

عبيدالله

[3] محمد
213-221هـ
فاس حاضرة الأدارسة

[4] علي (حيدرة)
221-224هـ

[5] يحيى
224-؟

[6] يحيى

[7] علي

ادريس

[8] يحيى الخامس
؟-292

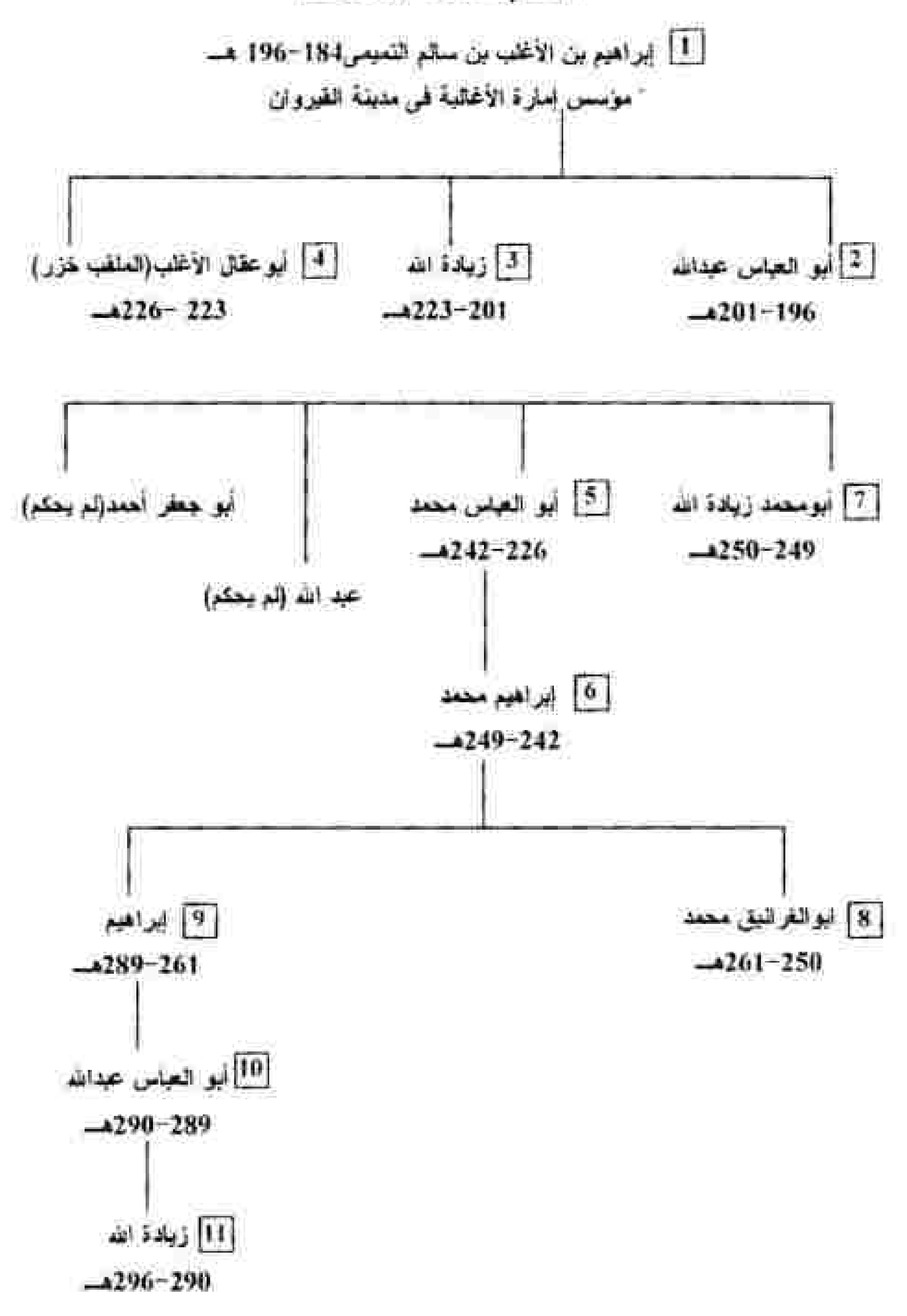
محمد

[9] يحيى الرابع
292/ 310هـ

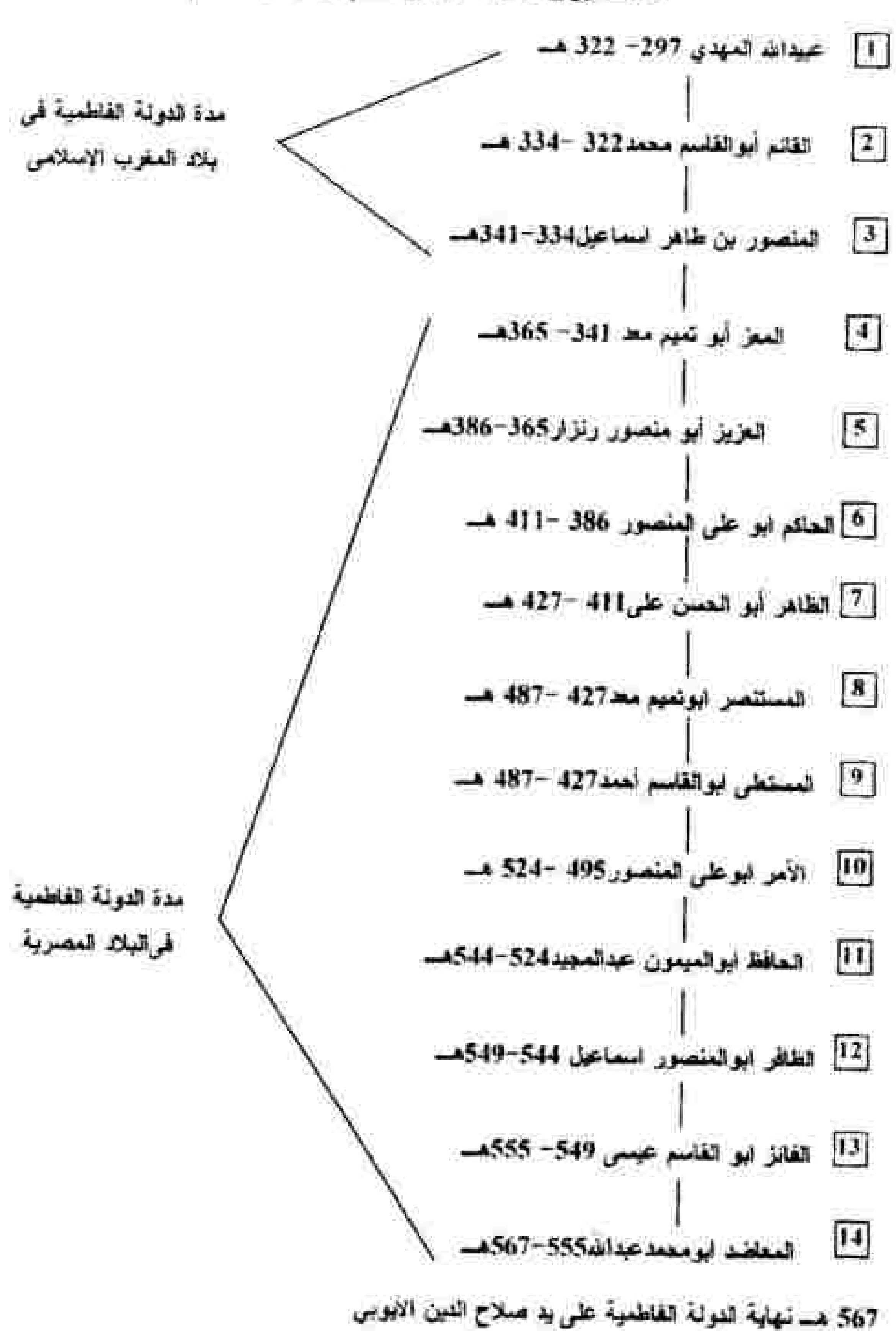
[10] الحسن الحجام 310-312 هـ

312-375هـ (حكم بعده موسى بن أبي العافية باسم الفاطميين ثم عاد فحكمها باسم امويي الأندلس

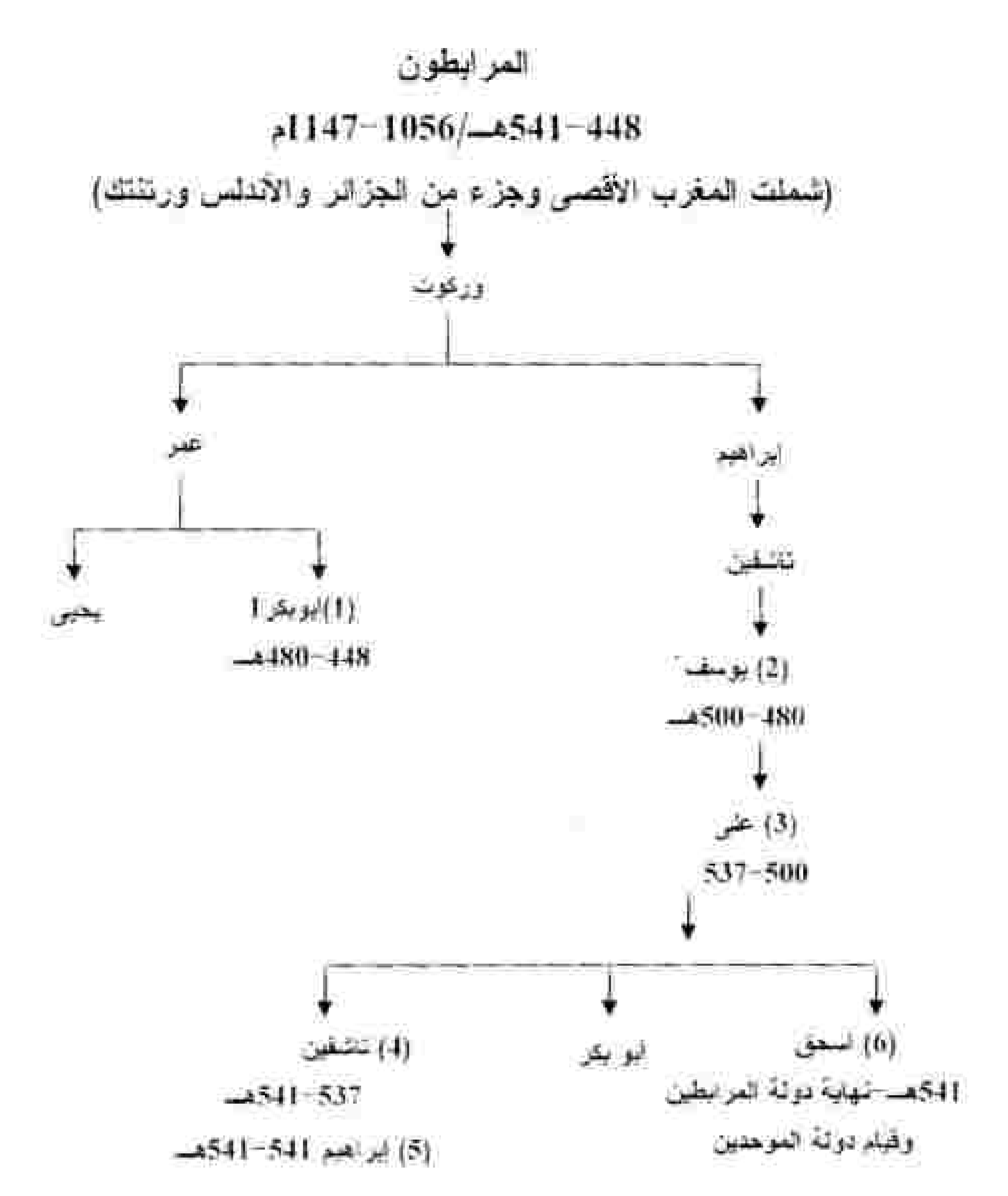
الأغالبة 184-296هـ

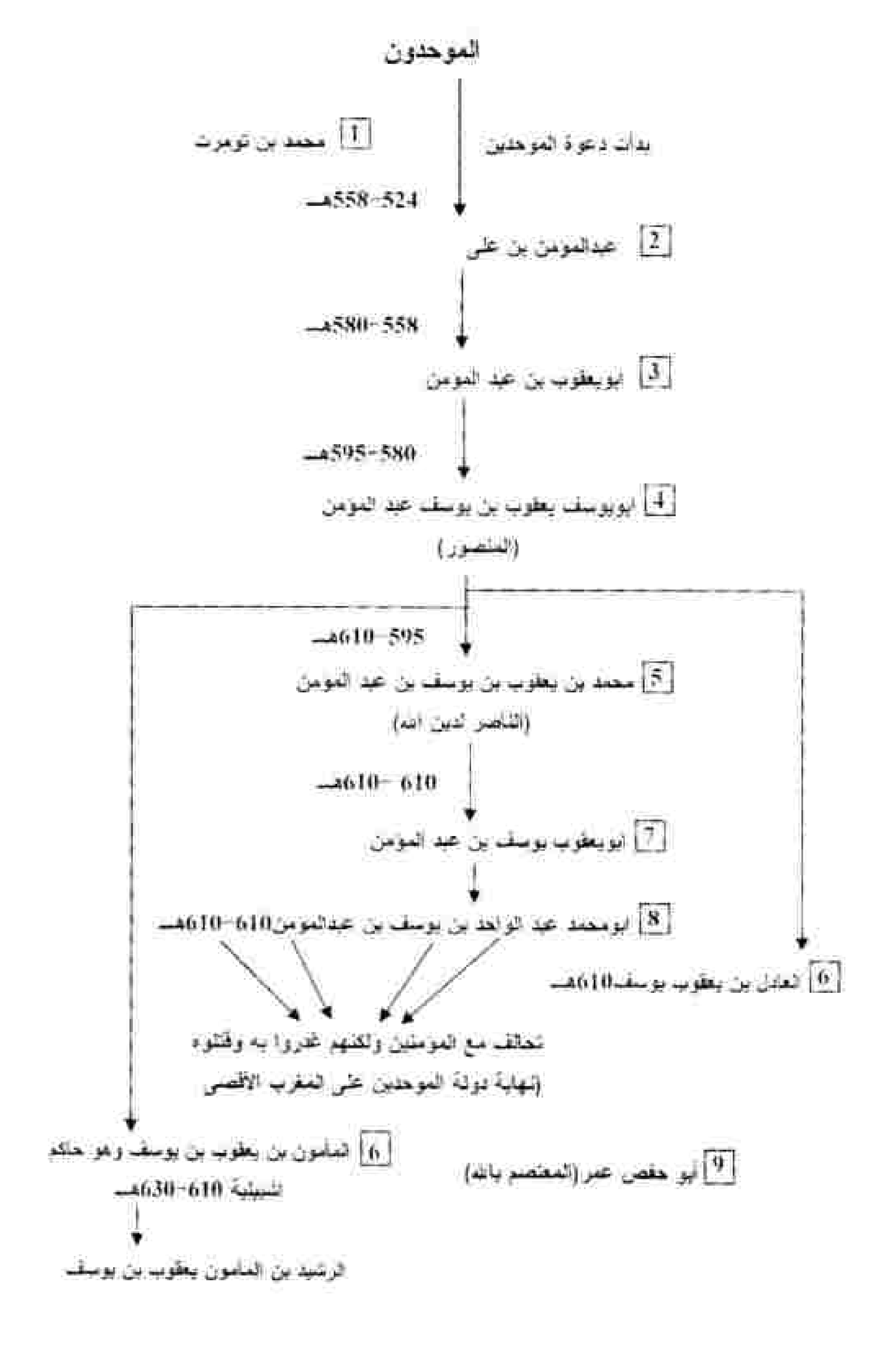


الفاطميون 297-541هـ/909-1171م



567 هـ نهاية الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين الأيوبي


المرابطون
448-541هـ/1056-1147م
(شملت المغرب الأقصى وجزء من الجزائر والأندلس وزنتنك)
وركوت
عمر
ابراهيم
تاشفين
يحيى
(1)ابوبكر I
448-480هـ
(2) يوسف
480-500هـ
(3) علي
500-537
(4) تاشفين
537-541هـ
(5) ابراهيم 541-541هـ
ابو بكر
(6) اسحق
541هـ-نهاية دولة المرابطين
وقيام دولة الموحدين

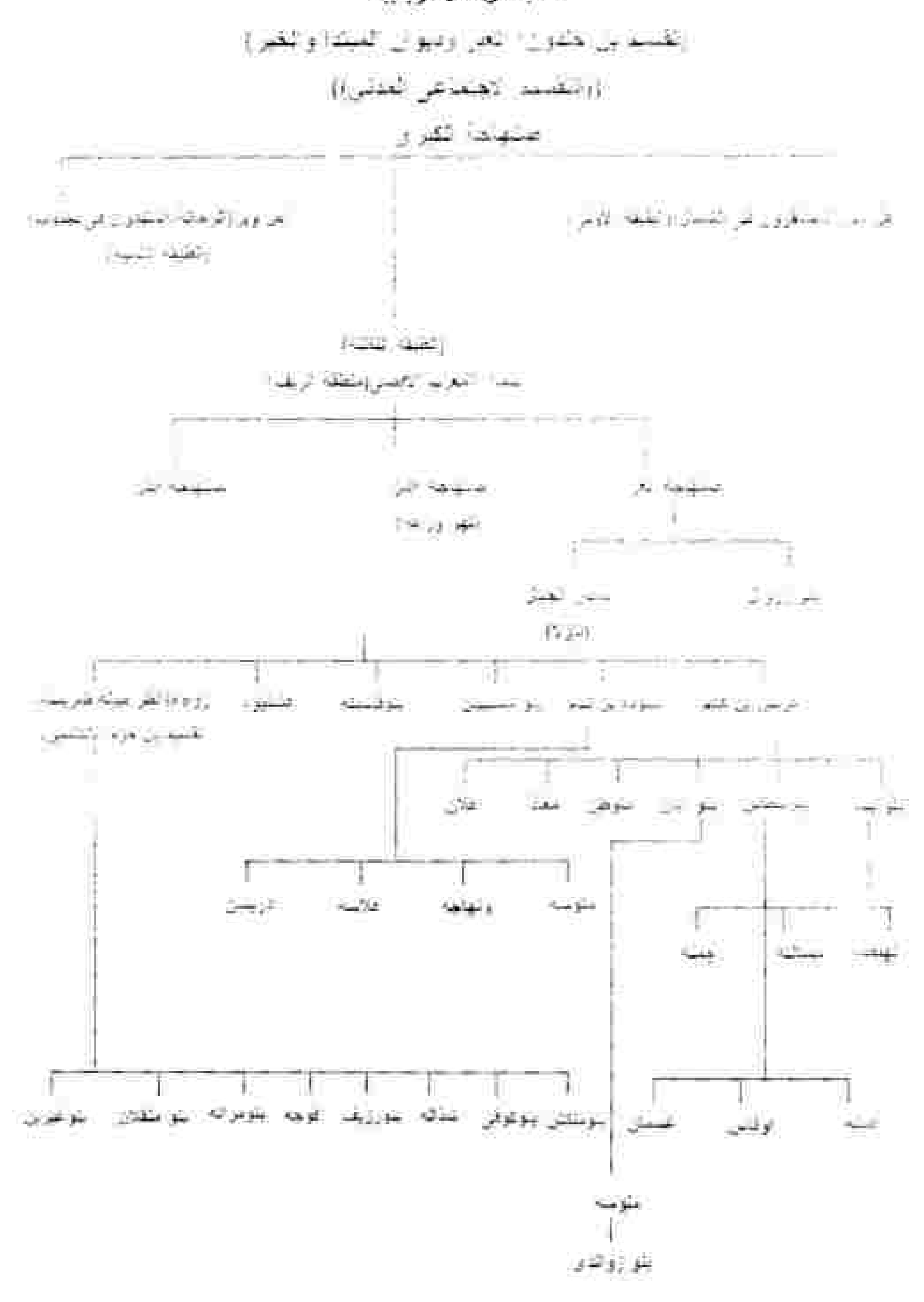

الموحدون
بدات دعوة الموحدين
1 محمد بن تومرت
524-558هـ
2 عبدالمومن بن على
558-580هـ
3 ابويعقوب بن عبد المومن
580-595هـ
4 ابويوسف يعقوب بن يوسف عبد المومن
(المنصور)
595-610هـ
5 محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المومن
(الناصر لدين الله)
610-610هـ
7 ابويعقوب يوسف بن عبد المومن
8 ابومحمد عبد الواحد بن يوسف بن عبدالمومن610-610هـ
6 العادل بن يعقوب يوسف610هـ
تحالف مع المومنين ولكنهم غدروا به وقتلوه
(نهاية دولة الموحدين على المغرب الأقصى
6 المأمون بن يعقوب بن يوسف وهو حاكم
لشبيلية 610-630هـ
9 أبو حفص عمر (المعتصم بالله)
الرشيد بن المأمون يعقوب بن يوسف

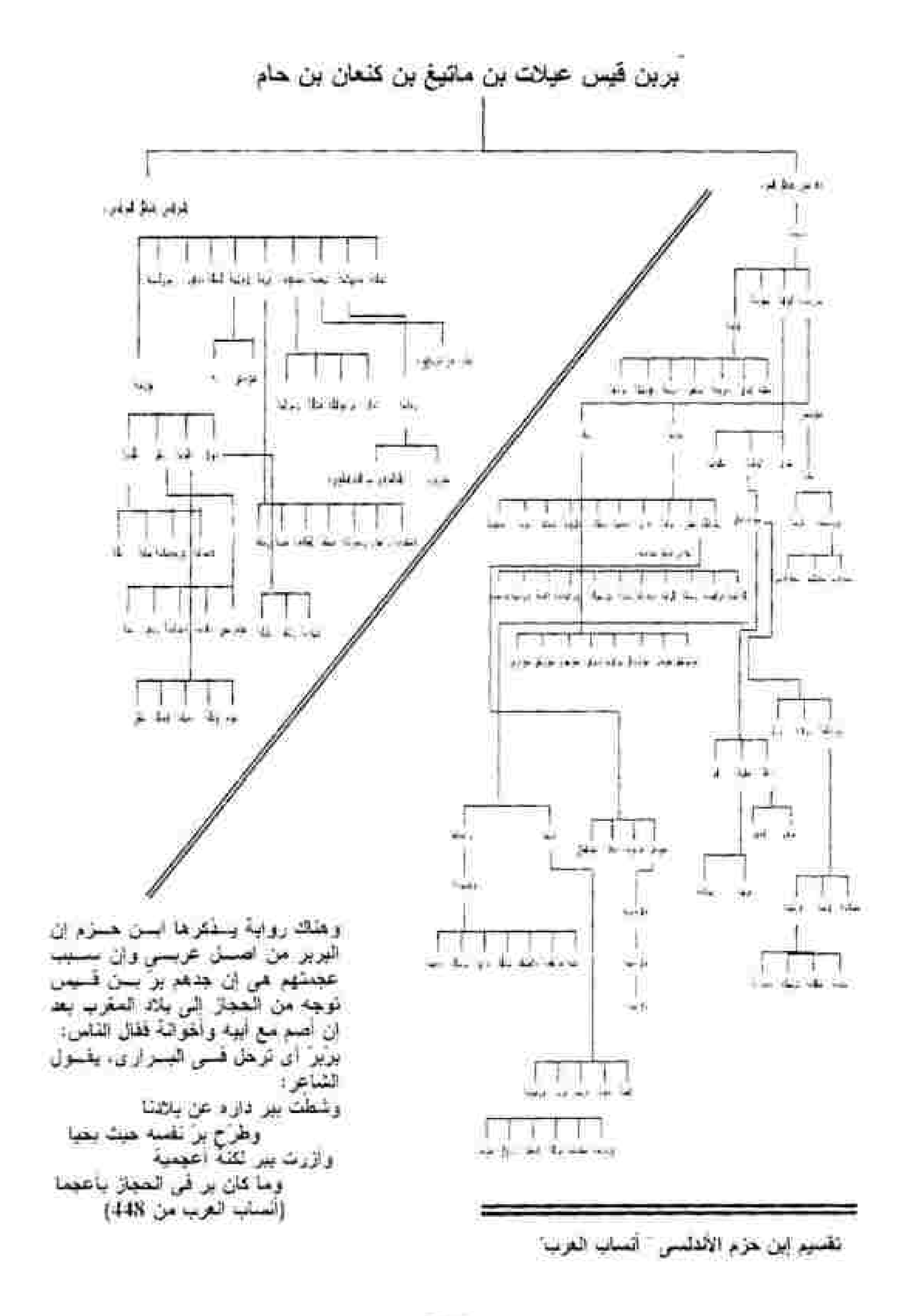
قبائل المغرب الإسلامى

1- تقسيم ابن خلدون "التقسيم الإجتماعى المدني"
" كتابه (العبر وديوان المبتدأ والخبر) "

2- تقسيم ابن حزم الأندلسي "التقسيم العام"
" كتابه (أنساب العرب) "

القبائل المغربية





تقسيم ابن حزم الأندلسي " أنساب العرب"

الملاحق

1- الملحق الأول "كتاب الخليفة العباسى،المستظهر بالله إلى معز الدولة".

2- الملحق الثانى "بنو عبد الحق".

3- الملحق الثالث "كتاب المعتمد بالله يستصرخ يوسف بن تاشفين أمير المرابطين"

4- الملحق الرابع "كتاب أبى يعقوب يوسف بن تاشفين إلى أبى القاسم ابن عباد".

5- الملحق الخامس "من وثائق الموحدين".

المـــــلاحق

الملحق الأول

كتاب الخليفة العباسي المستظهر بالله، الى معز الدولة العباسية وزعيم جيوشها المغربية على يد يوسف بن تاشفين احسن الله توفيق:

أما بعد:

فالحمد لله مقدم على كل مقال، ونال كل فعال، وهو ذو المن والافضال الكبير المتعال. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد المؤيد بالتنزيل الذى كشف عن الامة الغمة واستنقذ من الظلالة الامة، وحمى به من المحارم ما كان مباحا واقترح به من القلوب زنادا اورى بعدما كان شحاحا وأليس الدين بعدما كان بالعراء من البسيطة جناحا وعلى أزواجه وذريته ما عقب مساء صباحا وخص العباس بن عبد المطلب عم النبوة ووارث الخلافة وشقيق الابوة الميمون الظاهر الطاهر الأوائل والأواخر بالصلاة المستهلة العباد، المتصلة الامداد ومواهب الله على أمير المؤمنين حبائس ومنائحه لديه كوامل نفائس وجناب الإسلام مريع وباع الحق وسيع ورياض العدل اريضة وعيون الحق عريضة ونظرة للرعايا على ما تقتضيه قصدها ومرادها ويفل عنهم شبا الايام اذا رهف حدها والنصر لرائبه ألف والظفر لجيوشه حلف، وأعدائه للسيوف حصائد وللحقوف طرائد - وشكره لله تعالى ما ولاه شكر موذن بالمزيد وشاهد بصنع لا يبيد.

وعرض بحضرة أمير المؤمنين كتابك، الموضح الإخلاص، السرية المطبوعة بطبائع الدين. المعربة عن تمسك بطاعته بحب الله المتين. الهاطلة سحائبها من سماء سيرتك. المضيئة مصابيحها من اخلاص طريقتك وأما ما نهيته من توفير الأجناد ومثابرتك على الجهاد ولدفع ادناس الكفرة فيما يليك من البلاد فانك وطائفتك من حزب الله (وحزب الله هم الغالبون) فاتخذ التقوى عما دلك والحق منارك وكتاب الله وسنة رسوله شعارك وتجرد للدفاع عن الإسلام والمسلمين وحطم معارك فى نحور أعداء الله الكافرين وأعلن بالدعاة لأمير المؤمنين على المنابر. تكن الظافر بالأعداء والظاهر. والسلام عليك وعلى من قبلك من أهل

الطاعة سلام يهديكم إلى المقام المحمود ويكنفكم بظل الرحمة الممدودة ورحمة الله وبركاته.

"نقلا عن كتاب: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية" لمؤلف أندلسي من أهل القرن الثاني عشر الهجري (تحقيق د. سهيل زكار والأستاذ عبد القادر رزامه/ دار الرشاد الحديثة – الدار البيضاء –الطبعة الأولى 1979 / ص 87-88)

المحلق الثاني

"بنو عبد الحق"

منهم من درج ومنهم من عز وخلف

قال الفقيه الكاتب أبو على المليانى: يرجع نسبهم إلى بنى مرين ،وبنو ملاين يرجعون إلى زناته وزناته من أولاد جنان يحيى بن ضريس بن زحيك ابن عستلان ،وقد كان جماعة من العلماء ممن له اعتناء بهذا الشأن ينسبونهم لبر بن قيس المذكور واجاز كتابه انهم عرب صرحاء وانما تبربروا بالمجاورة والمخالطة للبربر قال ابن رشيق : ان البربر باجمعهم من ولد جالوت، إلا قبيلتى صنهاجة وزناته فانهما ينتسبان الى حمير .

أصل بنى مرين من أحواز تلمسان، قاعدة المغرب الأوسط ودار مملكة زناته على قديم الزمان – وكان وطنهم ما بينها وبين تاهرت من شرقها يجاورهم فى السكنى من زناته بنو يغمراس وبنو تجين وبنو مغراوة وبنو راشد، وغيرهم وكان غالبهم الفرسان.

قال ابن رشيق: اصل زناته من الشام وكانت دارهم بفلسطين وملكها جالوت فلما قتله داود عليه السلام جاءت البربر الى المغرب فانتشروا الى السوس الأقصى– وقد وقع ذكر البرابر فاشير الى طرف من أصول أنسابهم من جهة زناته وغيرها على جهة الانتصار.

وأعياض البربر هم: هوارة ومغلية وضرية ومغراوة وبنو يفرن وبنو مريع وسدداته ومسطاسة وملزوزة ونفرة وبنو غجدامة ولهاصة ولواته ومديونه ومطماطة وكتامة ومزاته ولمطة ومديونة وعجيمة ومكناسة وزواوة وصدفورة

وزهيلة ومسادة وزواجة ومغرة ومصمودة وغمارة وبنوزروال وبنو سعيد وبنو سنجوم وبنو يازين وبنو خالد وبنو مرموشة وبنو شراحيل وبنو رتجين ولماية وغير هؤلاء هم بطون كثيرة وتفرعوا تفريقاً عريضاً، ليس هذا الموضوع محل بسط القول، وتقصى الأنباء، إنما بنى فيه على الاختصار واطراح التطويل.

نقلا عن كتاب: الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية المؤلف أندلسى مجهول من أهل القرن الثانى عشر الهجرى / ص 185-186).

الملحق الثالث

كتاب المعتمد بن عباد يستصرخ يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، فمن إنشائه وخطه ما نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

إلى حضرة الإمام، أمير المسلمين وناصر الدين محى دعوة الخليفة الإمام أمير المسلمين أبى يعقوب يوسف بن تاشفين.

من القائم بعظيم إكبارها الشاكر لإجلالها المعظم لما عظم الله من كريم مقدارها اللائذ مجرمها المنقطع الى سمو مجدها المستجير بالله وبطولها محمد بن عباد.

سلام الله الكريم يخص الحضرة العلية المعظمة السامية ورحمة الله وبركاته. وكتب المنقطع الى كريم سلطانها من اشبيلية غرة جمادى الأولى سنة تسع وسبعين وأربعمائة وانه أيد الله أمير المسلمين ونصر به الدين، إنا نحن العرب في هذه الأندلس قد تلفت قبائلنا وتفرق جمعنا وتغيرت أنسابنا بقطع المادة عنا من معيننا، نصرنا شعوباً لا قبائل ، وأشتاتا لا قرابة ولا عشائر ، فقل ناصرنا وكثر شامتنا وتوالى علينا هذا العدو المجرم اللعين ادفنش وأناخ علينا بكلكله ووطننا بقدمه واسر المسلمين واخذ البلاد والقلاع والحصون ، ونحن أهل هذه الاندلس ليس لأحد منا طاقة على نصرة جاره ولا أخيه ، ولو شاءوا لفعلوا ، إلا ان الهواء منهم عن ذلك ، وقد ساءت الأحوال وانقطعت الآمال – وأنت أيدك الله ملك المغرب

بيضة وسودة وسبب هذه ومنكبها الأكبر وغيرها [illegible] وترغب [illegible]
واستنصرت [illegible] واستغاثت بحرمتكم للجوار [illegible] هذا العدو الكافر وتجديد
شريعة الإسلام [illegible] دين محمد عليه الصلاة والسلام [illegible]
[illegible] الكريم [illegible] ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم والسلام
الكريم على حضرتكم السامية ورحمة الله وبركاته

الملحق الرابع

كتاب أبي يعقوب يوسف بن تاشفين إلى أبي القاسم بن عباد

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

من أمير المسلمين وناصر الدين محيي دعوة أمير المؤمنين إلى الأمير الأجل [illegible] المؤيد بنصر الله المعتمد على الله أبي القاسم بن عباد أدام الله توفيقه [illegible] ووفقه لما يرضاه

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أما بعد:

فإنه وصل خطابكم المكرم، فوقفنا على ما تضمنه من استدعاء لنصرتك وما ذكرته من كربتك وما كان من قلة حماية جيرانك فنحن يمين لشمالك ومبادرون لنصرتك وحمايتك وواجب علينا ذلك من الشرع وكتاب الله تعالى وإنه لا يمكننا الجواز إلا أن تسلم لنا الجزيرة الخضراء تكون لنا لكي يكون جوازنا إليك على أيدينا متى شئنا فإن رأيت ذلك فأشهد به على نفسك وابعث إلينا بعقودها ونحن في أثر خطابك إن شاء الله والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

نقلا عن كتاب: الحلل الموشية في الأخبار المراكشية لمؤلف أندلسي مجهول من أهل القرن الثاني عشر الهجري.

الملحق الخامس

من وثائق الموحدين

رسالة الخليفة الموحدي المرتضى لأمر الله إلى البابا إنوسنت الرابع إنوسان

عربية مؤرخة في 648 هـ - 1250 م

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما والحمد لله وحده من عبد الله عمر أمير المؤمنين بن سيدنا الأمير أبي إبراهيم أمير المؤمنين أيدهم الله تعالى بنصره وأمدهم بمعونته إلى [illegible] ملوك النصرانية ومعظم عظماء الأمة الرومية وقيم الملة المسيحية [illegible] البابوية البابا [illegible] أسعده الله تعالى [illegible] وجعل التقوى التي أمر عز وجل بها [illegible] [illegible] من سبق العناية ما يقتضي [illegible] الغاية، [illegible] [illegible] تحية كريمة [illegible] ما تقدم من مخاطباتكم الواردة عليه [illegible] [illegible] بعد [illegible] البر [illegible].

أما بعد فإنا نحمد الله الذي لا إله إلا هو حمد من علم أنه الرب الواحد الذي دلت على وحدانيته البراهين القاطعة والشواهد، ونزهته العقول الراجحة عن أن يكون له ولد أو يدعى أنه الوالد تعالى الملك الرحمن عما يقول المثلث والمشبه والجاحد، ونصلي على سيدنا محمد ورسوله المصطفى الكريم الذي وضحت به للنجاد المذاهب والمقاصد وخرقت له بالظهور المعجزات الباهرة على يديه العوايد ونصر بالرغب فألقى له يد الاستلام كل من كان يناوي ويعاند وعلى آله وصحبه الكرام الذين ازدادت بهم المحاضر والمشاهد ووصلت صوارمهم في مواقف الحروب السواعد وأنجزت لهم في استيلاء الإسلام على مشارق الأرض ومغاربها المواعد ونسئل الله عز وجل رضاه عن الإمام المعصوم المهدي المعلوم الذي جذبه لدين الله تعالى الشباب المعاود وأهلت بهدايته بعد إقفارها المعاهد وباء بالخسران المخاتل لأمره والمكايد وعن الخلفاء الراشدين المهتدين الذين تولى فهم

إتمام بدايته الإمام الراشد فالراشد وعلت بهم لأمر الله تعالى المراقى والمصاعد وعن سيدنا الأمير الطاهر أبى إبراهيم بن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين بن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين الذى طابت منه العناصر و المماتد واشتق من نبعه الخلافة من أوراق نضارة وعفناره قنتها المائد، وزهد فى الدنيا الفانية ورغب فى الأخرى الباقية فنعم الراغب الزاهد.

وبعد كتابنا، كتب الله تعالى لنا حظوظاً من رضاه تزكو وتتوفر واستعملنا وإياكم بكل ما تهيأ به لإحراز الفوز لديه ويتيسر من حضرة مراكش حرسها الله تعالى ودين الله عز وجل عال مسماه ومصعده والتوحيد حال بالظهور جيده ومقلده والسعي معمل فى ابتغاء من الله تعالى موفقه وسدده والحمد لله رب العالمين حمدا يتوالى على الألسنة تكرره وتردده ونستدعى به من مزيد النعماء أفضل ما وعد به تعالى من شكره ويحمده والى هذا يسر الله تعالى بتوفيقه إسعادكم وجعل فى طاعته التى تعبد بها خلقه إصداركم وإيرادكم فانه سبقت منا إليكم مراجعات عن كتبكم المؤثرة الواصلة إلينا وأرسلنا نحوكم من الجواب عنها ما تممنا به بركم ووفينا عرفانكم أنا نوجب لمنصبكم الذى ابرز فى ملتكم على المناصب واقر لرتبتكم فيه أهل دينكم بالشغوف على ما تر مالهم من المراتب فأنتم عندنا لذلكم بالتكرمة الخصيلة ملحوظان وبالعناية الجميلة محظوظون نؤكد من أسباب المواصلة لكم ما حقه ان نؤكد ونجدد من عهود الحفاة يتم ما شأنه ان يجدد ونشكر لكم ما توالى علينا من حسن إيثاركم لجانبنا وتردد وفى سالف هذه الأيام انصرف عن حضرة الموحدين أعزهم الله البشير الذى كان قد وصل بكتابكم إلينا انصرافا لم يعده منا فيه بر وإكرام ولم يغبه فيه اعتناء به واهتمام كما انه فى العدة التى قضى له فيها لدينا بالمقام لم نزل نتعهده إثناءها بالإحسان والأنعام وتحمل كتابنا إليكم تعريضا بما اختار من انصرافه وتوخيا فى ما آثره من ذلك لإسعافه وما قصر له فى حالي مقامه ورحيله ولا عدل به عن خفى البر على أوضح طرقه والله تعالى يرشد فى كل الأحوال لأذكى الأعمال لديه وينجد من الأقوال والأفعال على ما يقرب إليه بمنه ومتى سنح لكم أسعدكم الله تعالى بتقواه

ان توجهوا لها ولاء النصارى المستخدمين ببلاد الموحدين أعزهم الله من ترونــه برسم ما يصلحهم ويجر بهم على معتاد قوانينهم فتخيروه من أهل العقل الــراجح والسمت الحق وممن يستلذ فى النزاهة على واضح السنين وممــن يتميــز فــى الخدمة بالمذهب المستجاد والقصد المستحسن وذلكم هو الذى إذا تعين من قــبلكم مستجمعاً للصفات المذكورة متحلياً بالخلال المشكورة حسن فى كل مــا يســتخدم وتسنى له بذلك اجزل الخبر وأوفره وانتم تفون بهذا المقصود فى ما تعلمون مــن اختياركم حتى ظهر لكم التوجيه بهذا الرسم لأحد وتعتمدون فيــه أجمــل معتمــد وشكرنا لكم على كل ما تذهبون إليه فى جانبنا من تمشية الأغــراض والمــذاهب وتحتفلون فيه من المساعدة الصادرة فيكم عن كرم الضرايب وتبادرون الى بذلــه من المكارمة المناسبة لمالكم فى تحلتكم من أناقة المناصب مما نكافئ به صــدق مصادقتكم ونتوخى فيه ما لا يعدل عن موافقتكم جزاء لبركم بأمثاله واعتناء بمــا يقضى لولائكم بدوامه واتصاله بحول الله تعالى وقوته وهو سبحانه ييسر لنا لنيل الحسنى والزيادة من فضله ويأخذ ما فى ديننا ودنيانا على أقوم ســبله ويجعلنــا واياكم بما يمنحنا من التوفيق فى أول رعيل من حزب الحق وأهله بمنه وكرمه لا رب سواه وكتب فى الثامن عشر من شهر ربيــع الأول عــام ثمانيــة وأربعــين وستمائة"

"عن الرسالة المحفوظــة فــى مكتبــة الفاتيكــان الرســولية برومــه بــرقم [(A.A.1.XVIII(1802)] وهى الوثيقة الوحيدة من نوعها وعصرها التى تحتفظ بها مكتبة الفاتيكان.

فهارس الكتاب

الفهرس	صفحة

الباب الأول:

الأحوال العامة في بلاد المغرب

الباب الثاني:

قيام الإمارات والدول وأحوالها

وعلاقاتها السياسية والإدارية

الفهرس صفحة

الباب الثالث:

تلخيص حضارة المغرب الإسلامي

هـــذا الكتـــــاب

يبسط دراسة ملخصة لبعض جوانب الجزء الغربي من العالم الإسلامي، الـذي ولد في بداية القرن الأول الهجري (الربع الأول من القرن السابع الميلادي). ولعـل هذه الدراسة تثير رغبة وربما عند ذوي المختصين فيه لتقديم صورة أكثر تفصيلا ووضوحا. ويمكن قراءة الكتاب بأبوابه الثلاثة وفصوله الثلاثة عشر بما يتضـمنه عن أحوال المغرب العامة، الجغرافية، الفتوح الإسلامية وقيام الإمـارات والـدول وتلخيص لحضارته الفكرية والثقافية ونظمه السياسية والاجتماعية والاقتصادية. لقد تسلح الكتاب بعدة من المصادر والمراجع الواسعة والمتنوعـة وخلـص مـن خلالها الى نتائج مهمة لعلها تعين القارئ على التحقق من معنا فيه وبذلك فإن هذا العمل الذي اتسم بالموضوعية والتوثيق والمنهجية التاريخية وكذلك بالتبسيط غير المخل بعروضه يجعل هذا الكتاب بمتناول كل قارئ مهما كانت عموميـة معارفـه حول تاريخ المغرب المتصل بمضمونه.